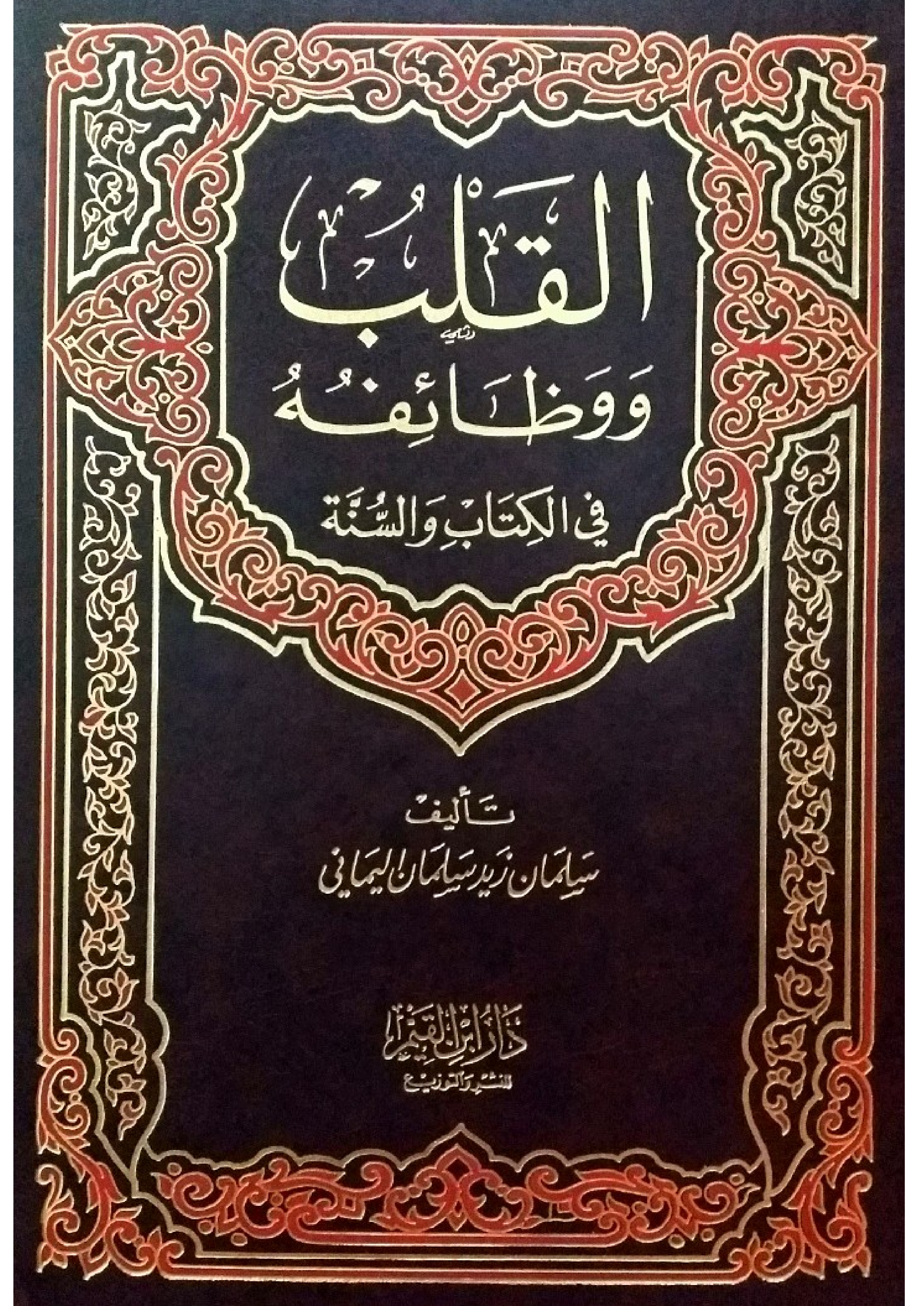

القلب
ووظائفه
في الكتاب والسنة
تأليف
سليمان زيد سليمان اليماني
دار ابن القيم
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

دار ابن القيم
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
ص.ب ١٨٦٥ - الدمام الرمز البريدي ٣١٩٨٢
هاتف: ٨٢٦٨٢٤٣ - فاكس: ٨٢٦٩٨٦٤

القلب ووظائفه في الكتاب والسنة

تأليف

سليمان زيد سليمان اليماني

دار ابن القيم
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم
وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

إهـداء

. . . إلى كـل من علّمني حرفـاً وأنـار لي طـريق الهـدى بعـد الله ؛ والدي ، وشيوخي ، وأساتذتي .

. . . إلى من ســانـدتني في طــريق الحيــاة تهيئــة وصبــراً وتضحية ؛ زوجتي الطاهرة .

. . . إلى المتعطش للحقيقة والمتلهف للمعرفة ؛ طـالب علم أو مثقف .

سائلاً اللّه أن ينفع به الجميع .

سلمان زيد سلمان اليماني

سلمان زيد اليماني

١٤١٠/١/١ هـ

مقدمة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد لله الذي كتب الإيمان وزينه في قلوب أوليائه ، وجعل فيها الرأفة والرحمة على عباده ، المطلع على تقلّب قلوبهم ، والعليم باختلاف أحوالهم ، الممتحن للقلوب بالتقوى ، المطهر لها من الشرك وأدرانه . أحمده ـ جلّت عظمته ـ كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وأشكره على عظيم رحمته وسعة أفضاله ، وأستعين به وأتوكل عليه ، والتوكل من نعمائه . وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، شرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره .

«اللّٰهمَّ رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السمٰوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1] .

---

(١) صحيح مسلم : الإمام مسلم القشيري : ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب صلاة المسافرين ، باب ٢٦ (١/٥٣٤) .

أمـا بعـــد :

فإن من أشرف مخلوقات الله تعالى وأعجبها : هو ما لم يظهـر للحس بـل هو من عـالم الغيب ، وإن كان قـائمـاً بمحـل محسـوس وجسـد ملمـوس ؛ ألا وهي الـروح والنفس واللب والفؤاد والقلب . مضافاً إليها العقل اتصالاً لا استقلالاً . هذه الأنوار الإلهية التي تشرق على عالم الحس فتعطيه المدد النفيس، وتمنح الإنسان غذاءه وضياءه الذي به يفرق بين الحقائق والأبـاطيل وبين الثـوابت والأوهام ، إنمـا يتلقاها أول ما يتلقاها في النفس الإنسانية القلب . ولما كان الإنسان مغرماً بمعرفة ما يجهل ، وخاصة علوم ما وراء المادة ، وطرق الكثير من العلماء أبوابهـا ، إما عن طـريق الشمول ، أو عن طـريق تحليل جزئية في إطار النظريات الفلسفية ؛ سواء كانت فلسفة قديمـة متمثلة في الفلسفة اليونانية والبوذية ، أو كانت فلسفة حـديثة ومعـاصرة ، أو حتى فيما يسمى بالفلسفة الإسلامية .

ولا أعلم بالتحديد متى بدأ شغفي بالبحث عن غير المنـظور . فمن الصغـر كنـا نسمـع عن الجن والمـلائكـة ، ثم ارتقيت سنـاً ، وارتقت الأفكــار إلى العقـل والــروح والنفس والفؤاد واللب والقلب وغيره .

أُمور يتحير فيها الإنسان ولا يجد لها جواباً . إن سأل أباه قـال له قولاً غير شافٍ ، وإن سأل معلمه أحاله إلى كتب كثيرة ، وإن عاد إلى الكتب فسيقع في متاهات ومعان فلسفية يخرج منها كما دخل .

ولمـا سهّل الله لي دراسـة الماجستيـر ؛ تقابلت بقـدرة الله مع سعادة الدكتور فاروق الدسوقي ، في منزل أحد الأفاضل ، وتحدثت معـه في هـذه الأُمـور ، وعـرضت عليـه فكـرة الـدراسـة التكميليـة للمـاجستير بعنـوان : النفس والقلب والعقل ، فوضّح لي المتـاهات

التي سأقع فيها بسبب تشعب الموضوع .

فكل بحث من هذه المسائل ؛ هو قضية اختصم فيها الناس ، وجادلوا فيها وجاءوا على ذلك بما عندهم من حجة وما لديهم من دليل ، دون أن يجتمعوا فيها على رأي إلَّا ما ندر ، فالموضوعات الغيبية متعددة ، وللناس فيها مشارب ، فكل يدلي بقدر معرفته وبمقدار ما حباه الله من تعقل ، وفضل لي أن أبحث إحداها . وفي أي أبحث ؟ الروح ؟ .

فإذا بالحق يخاطب عباده ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء ؛ الآية : ٨٥] .

العقـل ؟ .

تطرق له علماء الصوفية كالحارث المحاسبي [١] ، والحكيم الترمذي [٢] .

القـلب ؟ .

هذا هو الباب الذي لم يفتح كما ينبغي .

اختلط بالنفس ، أمراض النفوس هي أمراض القلوب في كثير من البحوث ، والعكس أيضاً صحيح لديهم .

العقل هو القلب أو كلاهما مغاير للآخر ؟ تجد الموافق وتجد المخالف . هل القلب المعنوي هو نفسه المضخة الموجودة في

---

(١) الحارث بن أسد المحاسبي ، باحث صوفي ، توفي عام ٢٤٣ هـ ، الأعلام ١٥٣/٢ .

(٢) محمد بن علي بن الحسن بن بشر : الحكيم الترمذي، باحث صوفي ، ت ٣٢٠ هـ ، الأعلام ٢٧٢/٦ .

باطن القفص الصدري من الإنسان ؟ .

نجد الإجابات متعددة ، نعم ، ولا ، والثالث يلقي على المجاز كل لفظة وردت عن القلب .

من المسؤول : القلب أم العقل ؟ .

من الذي يبصر ؟ .

أين مقر الإيمان ؟ وأين مقر النفاق ؟ .

كيف يعمى القلب ؟ وكيف يطبع عليه ؟ .

أُمور متعددة الجوانب ؛ تجعل الموضوع ذا أهمية لحياة الإنسان ، الذي كرّمه خالقه الكريم في أعلا صور التكريم ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين ؛ الآية : ٤] وهبه سر المعرفة بما يميزه عن المخلوقات من علم وفهم .

وهبه الإرادة المستقلة من تميز وإدراك ، ليتمّ رسالته على هذه الأرض ، فيعمرها عن طريق الإيمان بالله وما يوجبه من العمل الصالح .

الإنسان الذي يريد الرقي في شعب الإيمان ؛ لا يتم له ذلك إلَّا برقي قلبه في مراحل حياته .

والإنسان الحائر لا يعود إلى الجادة إلَّا إذا رجع قلبه ، ولا يسير في درب الهداية إلَّا إذا غمره الإيمان .

وجلت في الكتب ، وهي أليفي وسميري ، فشعرت بالتيه بين ثناياها ، فعدت إلى المنبع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ ألتمس منهما النور الذي ينير لي الطريق .

وطلبت موجهاً من الجامعة يوجهني في عمل الخطة ، ويشاء

الله أن يكـون الموجـه هو الـدكتور فـاروق الـدسـوقي ، واستبشـرت خيراً .

وتقدمت بالخطة ، وإذا بالمـوجّه يصبـح مشرفـاً من غير حـول مني ولا قوة .

ولا أزكي على الله أحداً ، منحني الجم من علمه والكثيـر من وقتـه ، وأحببت بحثي ، والمحب يضحي بالغـالي والنفيس ، فكثيراً ما كنت أسمع آذان الفجر مثل ما سمعت نداء العشـاء وخاصـة ليالي الإجازات .

جمعت من القـرآن الكريم كـل آية تمس القلب ، فهـو رفيقي من النشأة فلا يصعب تكراره ، وعدت إليـه ثانيـاً وثالثـاً ، ويشهد الله على ذلك حتى اطمأننت إلى ما جمعت ، وعدت إلى السنـة النبويـة فقـرأت الصحيحين بالتفصيـل ، وما عـداهما رجـوعـاً إلى المعـاجم والفهارس ، واستخرجت مـا منَّ الله به علي ، فهي بحر ذو شعب .

وبين المفسـرين وشراح الحـديث وعلمـاء اللغـة والأصـول ؛ مجال واسع ومتاهات للباحث، وكلما تحيرت صليت ودعوت .

وطرق السابقون للقلب إجمالاً ، وصـدر تفصيل من بعضهم ، كـأبي عبد الله محمـد بن علي الحكيم الترمـذي في كتـابـه : «بيـان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» وعلى صغـر حجم الكتـاب بعد تحقيقه ، فقـد ذكر فيـه رحمه الله الفـوارق ، وبيّن أن كلاً منهـا مغاير للآخر ، مختص بصفات تميزه عن غيره ، وقد أفادني كثيراً في بحثي .

كمـا وأن الإمام شمس الـدين ابن قيّم الجـوزيـة في كتـابـه : «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» قد تطرق إلى أمـراض القلوب ،

أو بالأصح أثر الذنوب على القلب ، وعلامات ذلك وعلاجه .

ومن ذلك أيضاً الإمام أبو حامد الغزالي ، شرح عجائب القلب في : «إحياء علوم الدين» ، وفرّق بينه وبين النفس ، وركّز على آفاته وما يمرضه أو يميته . وإن كان أخذ بكلام المتكلمين والفلاسفة واتجه إلى طريق التصوف .

ومن المعاصرين ؛ طرق هذا الباب الدكتور محمد علي الجوزو في كتابه : «مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة» ، وكان للعقل النصيب الأوفى في كتابه ، واحتل القلب نصيب من بحثه ، فقد أجمل مراحل حياة القلب في بصيرته ، كما أجمل مراحل المرض والموت في صفات المنافقين ، فلم ينل القلب من بحثه من العناية والتوسع ما أعطاه للعقل من كتابه . ولكن المعرفة موزعة بين البشر ليعم الخير الجميع ، وقد يصل إلى بعض الحقيقة متأخر قام على لبنة الأوائل ، ولا حلاوة للبحث إلَّا بهذا ، وما استمرار الحياة إلَّا بماضيها .

وحاولت جمع ما فرّقه السابقون ، وتوضيح ما أبهم ، وتفصيل ما أجمل ، وإن ورد جديد ففتح من الله ، فالقرآن ينبوع يروي وارده ، والسنة صنو له ، والكل شفاء ، ورد بأفصح عبارة على أصدق أمة ، وأنوار الوحي تلج القلب المستأنس به .

وقسمت بحثي بين أبواب وفصول ومباحث ، وحوى الباب الأول وعنوانه : **القلب والألفاظ المقاربة له** ؛ معاني القلب وإطلاقاته ، وتحديد تعريف له يزيل اللبس ويوضح المراد من هذه اللطيفة الربانية ، ووردت ألفاظ مرادفة له فما الفرق بين هذه المترادفات ، وأي الروابط تحويها ، وما هي صفاتها المتفقة مع القلب والمستقلة بذاتها ؛ كالفؤاد واللب والعقل والصدر والروع

والخلد والجنان .

وبدأ الباب الثاني الذي عنوانه: **مراحل حياة القلوب** ؛ سيراً مع الفطرة في نموها أو انحدارها ، ومع أنوار لا إله إلاَّ الله زيادة ترتقي ، ونقصاناً أو انعداماً يكون للشيطان مدخل إليها ، مع تبيين الفارق بين الإسلام والإيمان ومقر كل منهما ، واستطرد في تدرج رقي القلب في درجات الإحسان ، من بداية القلب السليم حتى الغين عليه ، مروراً بالخشوع ثم التقوى ، فالخبت والإنابة ، ثم السكينة ، من بداية الطمأنينة حتى أعلى رقيّها .

وحوى الباب الثالث وعنوانه : **القلب المريض** ؛ نقيض الصحة والمانع من إتمام الوظيفة المرادة من القلب ، وكلها رذائل خلقية تمنع زيادة النور فيه ، من النكتة السوداء حتى انتكاسه ، وكلها تدور في دائرة الآثام سواء كان صغواً أو زيغاً ، وكل إثم ينقل إلى درك أدنى غلظة كان أو قسوة عن تكبر أو نفاق سلوك . وفي مبحث النفاق تم التفريق بين السلوك والعقيدة ، وأيّها المؤثر في زيادة المرض ، وكذلك الكفر الذي لا يخرج عن الملّة الدائر في دائرة السلوك الجاهلي ؛ كالطعن في النسب والنياحة على الميت وغير ذلك ؛ كما أوضحه رسول الله ﷺ في سننه ، والسبب عائد إلى أثر الذنوب على القلب .

وفي **مراحل موت القلب** وهو الباب الرابع ؛ تحدثت عن نفي الحياة عن القلب مع سلامة البنية ؛ سواء كان نفي نمو أو حاسة أو عقل ، بتدرج مؤدي إلى نقض الحياة عنه مطلقاً في ختام الختم عليه دائر بين الضلال والكفر على أوسع المهاوي والدركات . وأوضحت حكمة عدم تصريح القرآن بموت القلب مع تعدد معانيه وأنواعه ، إذ تبدأ المراحل من لهوه واستهزائه الذي يغمره ، فينكر

الحق إنكار جهل فاشمئزاز ثم كنّ وريب إلى أن يتم التقطيع ، فيتغلف بركام الذنوب ويشربها فيصرف عن الحق بعد سلوك الكفر فيه ، فيحال بينه وبين الإيمان إذا أصابه طمس الإدراك التام النابع عن الغواية واللجاجة في الباطل ، فينتهي به إلى الران فالطبع ثم الختم الذي تترتب عليه الغفلة فلم يعد متسع للهداية .

ثم تتطرقت لأعراض القلوب التي قد تجتمع في قلب واحد ، أو تظهر أعراضاً يشترك فيها المعنوي والحسي من رعب وجزع وخوف مع ذكر الفوارق بينها ، ومن التشابه والقسوة والوجوف والحمية والوهن وما شاكل ذلك من أعراض يقذفها أو يجعلها الله في القلوب .

ومسك الختام الباب الأخير : **القلب والمعرفة** تحدثت عن معرفة القلب وتحديد التعقل وأهميته ، لتقوم به الحجة على من جحد ، مع توضيح الفارق بينه وبين الفهم ، ومراتب الناس في التعقل ، وتدرج المعرفة المحصلة إلى المنهج الصحيح المقتضي لمدلول لا إله إلّا الله ، المرتقي في مراتب الإيمان عن طريق تعقل القلب بزيادة القصد من أبواب الخير والهدى وأسباب السعادة والنجاة ، مع ذكر شروط كمال المعرفة في العلم والعمل .

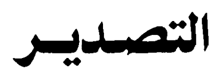
ثم تتبعت أقسام المعرفة المباشرة للقلب ؛ ابتداء من الرؤيا والخاطر والإلهام فالتحديث والفراسة والوحي ، مع توضيح بقدر المستطاع لكل منها .

وكلها معاناة متعددة ذات مراحل متغايرة . ومن مراحل المعاناة ما كان بين المكتبات ، والمراجع قد تجمع العشرة ومطلوبك في إحداها أو في غيرها فتعود كما بدأت ، وإذ بك في ثنايا الفكرة وينتهي دوام المكتبة وما حصلت شيئاً، وباطلاعك تستجليك وَجُوْدُ

مكتبات مدن أُخر تقرب أو تبعد عن مدينتك ، وحبك لمزيد المعرفة فتح من الله لك، وَجُوْدُ الله لا يحد ، وإذا بالموضوع يتسع فكل نقطة تكون جدولاً ومجموعها يم ، ولا بد من جمع المعلومات والإيجاز بغير إخلال ، وسرت على منهج موضح في التصدير ، والفضل بعد الله لمشرفي ، والنفس تطمع في المزيد ، والوقت ليس ملكي إنما أنا مطالب ومتابع ، فإن وفقت فمن الله وذاك مطلبي ، وإن أخطأت فهذا قصار جهدي فقد أبى الله أن يتم إلاَّ كتابه ، داعياً الله بدعاء كليمه عليه الصلاة والسلام ﴿ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي * وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي * وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾[طه ؛ آية : ٢٥ ، ٢٨] .

سلمان زيد سلمان اليماني

غرة العام الهجري / ١٤١٠ هـ


التصدير

تصدير

منهج البحث :

ينبغي لمن أراد بحث علم أن يعود إلى مبدأ ذلك العلم ، وكذلك من أراد البحث في كتاب الله أن يعود إلى لغة القرآن يستنبئها في يسر وسهولة عن معنى اللفظ المراد بحثه ، فالقرآن الكريم هو أساس الإسلام وينبوعه الأول ، وإذا كان القرآن المجيد كتاب عقيدة تخرج منها شريعة يقوم عليها نظام الحياة ، فإنه في الوقت نفسه كتاب اللغة الأول كما قال تعالىٰ : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت، آية : ٣] فهذا القرآن نزل بلسان عربي مبين .

ومن ناحية أُخرى كتاب الله شفاء لما في الصدور ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[يونس؛ آية :٥٧] ولا يمكن أن نستنبط منه طرق الشفاء والوقاية لما في الصدور إلَّا بإرجاع اللفظ إلى أصله العربي .وقد تعرض كتاب الله تعالىٰ في كثير من آياته لما يحيي قلوب المؤمنين ويشفي صدورهم ،وعالج القلب مما يعلق

به، كما عالج النفس مما يشينها، حتى يكون المسلم صالحاً لتلقي أوامر الله التي تجعله يسيطر بروحه على بدنه، ويسمو بنفسه فوق حسه. ويحسن الوفاق بين قلبه ولبه، فإذا هو سليم القلب، لديه من نور البصيرة ما يجعله موطن الرحمة الربانية في دنياه والنعمة الباقية في أخراه، إذ لا ينجو يوم القيامة إلَّا من أتى الله بقلب سليم.

وليس القرآن هو المصدر الوحيد لدين الله. ذلك أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى نبيه الكريم بوحي آخر غير القرآن، هو السنة النبوية الشريفة؛ فهي كالقرآن سواء بسواء من حيث الأصل. فهما مصدرا الإسلام لا يختلف في ذلك مؤمنان.

ويقدم لنا القرآن الحقائق الكونية والأحكام. سواء كانت خلقية أو عملية. وكذلك السنة فهي مبيّنة لهذه الأحكام. والباحث في نصوص الوحي بحاجة إلى أسس يتبعها ليخرج بعد البحث بمعنى حقيقي متكامل وشامل لما استفسر عنه، فهناك قواعد أساسية لكل باحث في كتاب الله، وقواعد أخرى تفرضها طبيعة البحث. ومن أهم القواعد الأساسية:

أولاً: **إخلاص النية وابتغاء الحق**؛ وهو أمر نفسي لا يطلع عليه إلَّا الله، ولا يصفو هذا المقصد إلَّا برقي القلب في شعب الإيمان، فإذا التجأ الباحث إلى الحق - تبارك وتعالى - يطلب منه ابتغاء معرفة الحق وحده؛ سيهديه الله ويعلمه. خاصة إذا تقرب إليه بكثرة النوافل. وهذا دأب سلفنا الصالح رحمهم الله؛ وعلى سبيل المثال قال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، صاحب الصحيح: (خرّجت كتاب الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة.

وما وضعت فيه حديثاً إلَّا اغتسلت وصليت ركعتين)[1] .

فهذا السلوك الخلقي مع الخالق لا بد أن يثمر في قلب الإنسان حياة راقية ، تدفعه إلى مواصلة البحث في القرآن الكريم والسنة المشرفة ؛ اللذين بهما تحيا القلوب وتشفى مما يصيبها من وصب الدنيا . وجدير بمن كانت نيته خالصة لله تعالىٰ أن ينفع المسلمين بما يتوصل من نتائج .

ثانياً : **النظر في القرآن جملة واحدة** : فالقرآن يفسر بعضه بعضاً ، فعلى سبيل المثال إذا أردنا أن نعرف القلب المتقي فلا ننظر للفظة في آية واحدة أو عدد منها إنما الرجوع لكامل مواطن المادة في القرآن ، وبقدر الاستطاعة في السنة ، والرجوع للمفسرين والمحدثين فسنخرج بمعنى حقيقي للتقوى ومرتبتها بالنسبة لمراتب حياة القلب وكيفية نموها في الإنسان ، ومتى يكتسبها العبد ، ومتى تكون هبة من الله تبارك وتعالىٰ ، وما هي العلامات الظاهرة في الإنسان المتصف بهذه الصفة ، وتأثيرها على حياة الفرد والمجتمع في العبادات والمعاملات والأحكام الشرعية ، فنستطيع أن نجمع بحثاً متكاملاً عن التقوى .

فهي عملية إحصاء شامل لا تغفل فيه آية واحدة[2] .

---

(١) صحيح البخاري : أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري «ت : ٢٥٦ هـ» الطبعة السلطانية ١٣١١ هـ عن النسخة اليونينية : تصوير عالم الكتاب : المقدمة ص (٨) .

(٢) ذكر الدكتور فاروق الدسوقي في الجزء الأول من كتابه : «القضاء والقدر في الإسلام» ، قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة في القرآن والسنة ، حريّ بالباحث أن يطلع عليها ، وفيه توسع في شرح هاتين القاعدتين .

ثالثاً : الرجوع إلى لسان القرآن: فالقرآن نزل بلسان عربي ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء ؛ آية : ١٩٢ - ١٩٥] فكل عبارة أو اسم في اللغة العربية يوجب اختلاف المعنى ولا بد ، وإن كان بينهما تقارب إلاّ أن هناك فوارق تظهر للباحث .

قال أبو هلال العسكري[1] : (الشاهد على أن اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أن الاسم كلمة تدل على معنى دلالة الإشارة ، وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فعرف ؛ فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيد ، وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد ، فإن أشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول كان صواباً ، فهذا يدل أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة ؛ فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر وإلاّ لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه ، وإلى هذا ذهب المحققون) .

وقال : (جميع ما جاء في القرآن وعن العرب ، من لفظين جاريين مجرى ما ذكرناه، من العقل واللب والمعرفة والعلم والكسب والجرح والعمل والفعل ، معطوفاً أحدهما على الآخر ، فإنما جاز هذا فيها لما بينهما من الفرق في المعنى ، ولولا ذلك لم يجز عطف زيد على أبي عبد الله إذا

---

(٢) أبو هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري عالم بالأدب ، توفي ٣٩٥ هـ ، الأعلام (١٩٦/٢) .

كان هو هو)[1] .

رابعاً : **عدم العدول باللفظ من الحقيقة إلى المجاز** ؛ وخاصة في كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله . فالله تبارك وتعالىٰ أنزل الكتاب شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

فمعانيه أشرف المعاني ، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها .

فإذا وردت صفة في القرآن الكريم أو السنة المشرفة ولا نجد دليلاً على نقل هذه الصفة عن موضوعها في اللغة ، فلا يصح حملها على غير الحقيقة لأن الله تعالىٰ قال : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم ؛ آية : ٤] فكل خطاب خاطبنا الله تعالىٰ به أورسوله ﷺ فهو على موضوعه في اللغة ، إلَّا اللَّهمَّ إن وجدنص أو إجماع علماء على أن هذه الصفة قد نقلها الله تعالىٰ أو رسوله ﷺ عن موضوعها إلى معنى آخر ، خاصة ونحن نجد أن العلماء اختلفوا في أصل وقوع المجاز في اللغة .

قال أبو الحسن الآمدي[2] : (اختلف الأُصوليون في اشتمال اللغة على الأسماء المجازية : فنفاه الأستاذ أبو إسحاق[3] ـ يعني أبا

(١) الفروق اللغوية : ص (١١ ـ ١٢) أبي هلال العسكري ، تحقيق حسام الدين القدسي .

(٢) أبو الحسن الأمدي : علي بن محمد بن سالم التغلبي ، أبو الحسن سيف الدين الآمدي ـ أُصولي باحث ، توفي سنة ٦٣١ هـ ، الأعلام (٣٣٢/٤) .

(٣) محمد بن محمد بن أحمد تاج الدين الاسفرايني عالم بالنحو ، ت ٦٨٤ هـ ، الأعلام (٣١/٧) .

إسحاق الإسفرائيني ـ ومن تابعه ، وأثبته الباقون وهو الحق)[١] .

وقد ردّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] بقوله : (إن أراد بالباقين من الأصوليين كل من تكلم في أصول الفقه من السلف والخلف فليس الأمر كذلك ـ إلى أن قال ـ فمعلوم أن أول من عُرِفَ أنه جرّد الكلام في أصول الفقه هو الشافعي ، وهو لم يقسم الكلام إلى حقيقة ومجاز ، بل لا يعرف في كلامه مع كثرة استدلاله وتوسعه ومعرفته الأدلة الشرعية أنه سمّى شيئاً منه مجازاً ، ولا ذكر في شيء من كتبه ذلك لا في الرسالة ولا في غيرها .

وحينئذ فمن اعتقد أن المجتهدين المشهورين وغيرهم من أئمة الإسلام وعلماء السلف قسّموا الكلام إلى حقيقة ومجاز كما فعله طائفة من المتأخرين : كان ذلك من جهله وقلة معرفته بكلام أئمة الدين وسلف المسلمين)[٣] .

وقد فصّل رحمه الله في الفتاوى أدلة المثبت والنافي ورد على القائلين بالمجاز . وعلى سبيل المثال ؛ أنقل ردّه على قول الآمدي رحمه الله : (كيف وأن أهل الأعصار لم تزل تتناقل في أقوالها وكتبها عن أهل الوضع تسمية هذا حقيقة ، وهذا مجاز)[٤] .

فقال : (هذا مما يعلم بطلانه قطعياً ، فلم ينقل أحد قط عن أهل الوضع أنهم قالوا : هذا حقيقة وهذا مجاز ، وهذا معلوم

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/٦١) المسألة الثانية .
(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني = شيخ الإسلام ، توفي سنة ٧٢٨ هـ ، الأعلام (١/١٤٤) .
(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/ ٤٠٠ ـ ٤٠٤) .
(٤) الإحكام (١/٦٢) .

بالاضطرار أن هذا لم يقع من أهل الوضع ، ولا نقله عنهم أحد ممن نقل لغتهم ، بل ولا ذكر هذا أحد عن الصحابة الذين فسروا القرآن وبيّنوا معانيه وما يدلّ في كل موضع ، فليس منهم أحد قال : هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز ، ولا ما يشبه ذلك ، لا ابن مسعود وأصحابه ولا ابن عباس وأصحابه ، ولا زيد بن ثابت وأصحابه ، ولا من بعدهم ، ولا مجاهد[1] ولا سعيد بن جبير[2] ، ولا عكرمة[3] ، ولا الضحاك[4] ، ولا طاووس[5]، ولا السدي[6] ، ولا قتادة[7] ولا غير هؤلاء ، ولا أحد من أئمة الفقه ؛ كالأئمة الأربعة وغيرهم ، ولا الثوري[8] ولا الأوزاعي[9] ولا الليث بن سعد[10] ، ولا غيره ،

---

(١) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي المخزومي من الطبقة الثالثة من التابعين ، توفي سنة ١٠١ هـ السيوطي : طبقات الحفاظ (٤٢) .

(٢) سعيد بن جبير بن هشام : أبو محمد ، تابعي مفسر كوفي ، روى عن ابن عباس ، توفي سنة ٩٤ هـ . ابن حجر : تهذيب التهذيب (١١/٤) .

(٣) عكرمة مولى ابن عباس أبو عبد الله المدني إمام في التفسير ، توفي عام ١٠٥ هـ . طبقات الحفاظ (٤٣) .

(٤) الضحاك بن مزاحم البلخي الخرساني مفسر ، ت : ١٠٥هـ ، الأعلام (٢١٥/٣) .

(٥) طاووس بن كيسان اليماني أبو عبد الرحمن الحميري من كبار التابعين ، توفي ١٠٦ هـ . طبقات الحفاظ (٤١) .

(٦) إسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، تابعي سكن الكوفة ، ت : ١٢٨ هـ ، النجوم الزاهرة (٣٠٨/١) .

(٧) قتادة بن دعامة السدوسي البصري ، أحد الأعلام ، روى عن أنس ، ت ١٠٦ هـ ! طبقات الحفاظ (٤١) .

(٨) الثوري : سفيان بن سعيد بن مسروق ، ت ١٦١ هـ ، الأعلام (١٠٤/٣) . =

وإنما وجد في كلام أحمد بن حنبل لكن بمعنى آخر ، كما أنه وجد في كلام أبي عبيدة معمر بن المثنى[1] بمعنى آخر .

ولم يوجد أيضاً تفسير الكلام إلى حقيقة ومجاز في كلام أئمة النحو واللغة كأبي عمرو بن العلاء[2] ، وأبي عمرو الشيباني[3] ، وأبي زيد[4] ، والأصمعي[5] ، والخليل[6] ، وسيبويه[7] ، والكسائي[8] ، والفراء[9] ، ولا يعلمه أحد من هؤلاء عن العرب)[10] .

=(٩) الأوزاعي : عبد الرحمن بن عمر بن يحمد ، ت ١٥٧ هـ ، الأعلام (٣/٣٢٠) .

(١٠) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي ، ت ١٧٥ هـ ، الأعلام (٥/٢٤٨) .

(١) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري ، ت ٢٠٩ هـ ، الأعلام (٧/٢٧٢) .

(٢) أبو عمرو بن العلاء : زبان بن عمار التيمي المازني البصري ، ت ١٥٤ هـ ، الأعلام (٣/٤١) .

(٣) أبو عمرو الشيباني : إسحاق بن مرار ، لغوي ، ت ٢١٥ هـ ، الأعلام (٣/١٨١) .

(٤) أبو زيد : سعيد بن أوس الأنصاري ، ت ٢١٥ هـ ، الأعلام (٣/٩٢) .

(٥) الأصمعي عبد الملك بن قريب ـ أبو سعيد ، ت ٢١٦ هـ ، الأعلام (٤/١٦٢) .

(٦) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ت ١٧٠ هـ ، الأعلام (٢/٣١٤) .

(٧) سيبويه : عمر بن عثمان بن قنبر ، إمام النحو ، ت ١٧٩ هـ ، إنباه الرواة (٢/٣٤٦) .

(٨) الكسائي : علي بن حمزة ، ت ١٨٩ هـ ، إرشاد المبتدي ص (١٥٠) .

(٩) الفراء : يحيى بن زياد النحوي ، ت ٢٠٧ هـ ، الأعلام (٨/١٤٥) .

(١٠) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٥١ ـ ٤٥٢) .

وقد سار على هذا المنوال تلميذه ابن القيم [1] وذكر في الصواعق المرسلة ردود كثيرة بعنوان : (ذكر الطواغيت الأربع التي هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين .

الطاغوت الثاني : قولهم إن آيات الصفات مجازات لا حقيقة لها) [2] .

وفي الفصل التاسع في وظائف المتأول قال رحمه الله : (لما كان الأصل في الكلام هو الحقيقة والظاهر ، كان العدول به عن حقيقته وظاهره مخرجاً له عن الأصل ، فاحتاج مدعي ذلك إلى دليل يسوّغ إخراجه عن أصله ، فعليه أربعة أمور لا تتم له دعواه إلاَّ بها ـ أذكرها باختصار ـ :

الأمر الأول : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي تأوله في ذلك التركيب الذي وقع فيه ، وإلاَّ كان كذباً على اللغة منشئاً وضعاً من عنده ، فإن اللفظ قد لا يحتمل ذلك المعنى لغة .

الأمر الثاني : ويبيّن تعين ذلك المعنى ثانياً ، فإنه إذا أُخرج عن حقيقته قد يكون له معان ، فتعين ذلك المعنى يحتاج إلى دليل .

الأمر الثالث : إقامة الدليل الصارف للفظ عن حقيقته وظاهره ، فإن دليل المدعي للحقيقة والظاهر قائم ، فلا يجوز

---

(١) شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، توفي ٧٥١ هـ . مقدمة الصواعق المرسلة .

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : شمس الدين محمد أبي بكر بن قيم الجوزية ـ تحقيق الدكتور علي بن محمد الدخيل الله (٢/٦٣٢ فما بعد) .

العدول عنه إلاَّ بدليل صارف يكون أقوى منه .

الأمر الرابع : الجواب عن المعارَض ، فإن مدعي الحقيقة قد أقام الدليل العقلي والسمعي على إرادة الحقيقة)[1] .

وقد حقق ذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[2] في كتاب بعنوان : «منع جواز المجاز في المنزَل للتعبد والإعجاز» فقال فيه : (والذي ندين الله به ويلزم قبوله كل منصف محقق أنه لا يجوز إطلاق المجاز في القرآن مطلقاً على كلا القولين .

أما على القول بأنه لا مجاز في اللغة أصلاً وهو الحق . فعدم المجاز في القرآن واضح .

وأما على القول بوقوع المجاز في اللغة العربية فلا يجوز القول به في القرآن)[3] . وقد رتّب كتابه رحمه الله على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ، ففي المقدمة ذكر الخلاف في وقوع المجاز في أصل اللغة وأنه لا يجوز في القرآن على كلا القولين .

وفي الفصل الأول بيّن أنه لا يلزم من جواز الشيء في اللغة جوازه في القرآن وذكر أمثلة لذلك .

وفي الفصل الثاني أجاب عن آيات زعموا أنها من المجاز نحو قوله تعالىٰ ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ الآية[سورة الكهف،الآية : ٧٧] .

وفي الفصل الثالث أجاب عن إشكالات تتعلق بنفي المجاز ونفي بعض الحقائق ، ويشتمل على أمور لها تعلق بالموضوع .

---

(١) الصواعق المرسلة (١/٢٨٨ ـ ٢٩٣) .

(٢) محمد الأمين محمد المختار الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» ، ت ١٣٩٣ هـ ترجمته في آخر «أضواء البيان» .

(٣) منع المجاز ص (٨) .

وفي الفصل الرابع حقق المقام في آيات الصفات مع نفي المجاز عنها .

وذكر في الخاتمة وجه مناظرة النافي لبعض الصفات بالطرق الجدلية .

والمهم أن موضوع المجاز في القرآن يحتاج إلى دراسة دقيقة فبعض كتب التفاسير أكثرت من المجاز وعلى سبيل المثال أبو القاسم الزمخشري[1] رحمه الله صاحب الكشاف قسّم كل أحوال القلوب من قبيل المجاز فقال في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة ؛ الآية : ٧] :

(فإن قلت : ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار . قلت : لا ختم ولا تغشية ثَمَّ على الحقيقة وإنما هو من باب المجاز ، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه ، وهما : الاستعارة والتمثيل . .)[2] .

فلو حملنا اشمئزاز القلب وإكنانه وريبه وتقطيعه وإشرابه وما يصاب به من العمى والران والطبع ثم الختم عليه ، وهي كلها أعلى من أن تكون مرضاً أو قل مرضاً متقدماً ، وهي مراحل موت القلب ؛ وحملناها على المجاز وأنه لا ثَمّ شيء من ذلك ، وهي كلها أحوال قلوب يخبرنا الله بها ، فما هي الفائدة التي نجنيها من ذكرها في القرآن ؟ .

---

(١) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ، معتزلي ، صاحب الكشاف ، توفي ٣٨٠ هـ . سير أعلام النبلاء (٢٠/١٥١) .

(٢) الكشاف (١/٢٦) .

وكذلك فسر قوله تعالىٰ : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة ؛ الآية : ١٠] .

فقال عفا الله عنه : (واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً . فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول : في جوفه مرض ، والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب : كسوء الاعتقاد والغل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف ، وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض . كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائض ذلك . والمراد هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر أو من الغل والحسد والبغضاء ، لأن صدورهم كانت تغلي على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلاً وحنقاً . .)[1] .

فهنا نجده حدد المرض بالعلم المشاهد الذي تعرفه الأطباء . أما أمراض القلوب من الإثم والصغو والزيغ والغل والغيظ وغيرها كثير يظهر في ثنايا البحث فاعتبرها من قبيل المجاز . ثم هو رحمه الله لم يفرق بين أمراض النفس وأمراض القلب وكأنها شيء واحد . وكأني به يرى حديث النكتة السوداء الوارد في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب صقل منها ، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه فذلك الران . .**» الحديث[2] .

وأيضاً ما ورد في حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ : «إن

---

(١) الكشاف (١/٣٢) .

(٢) المستدرك على الصحيحين في الحديث : أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، كتاب الإيمان (١/٥) وقال : حديث صحيح .

الفتن تعرض على القلوب حتى يعود القلب أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّيا»[1] .

كأني به يحمل هذه الألفاظ على المجاز وكأن القلب مجرد مضخة لا يتأثر بشيء من هذه الواردات ، والأخذ بهذه المعاني يحرمنا كثيراً من جواهر القرآن ودرره . ولو تتبعنا تفسيره لوجدنا هذا منواله ، وإن كان تفسيره بلغ الغاية في البيان والكشف عن أسرار القرآن ، فهو إمام في النحو واللغة والبيان إلاَّ أنه سار في تفسير الأحوال على مذهب الاعتزال .

وتتبع من قال بالمجاز في كتاب الله يخرجنا عن المقصود إذ الهدف توضيح مبدأ سير البحث وتوضيح قواعده .

خامساً : عدم الاعتماد في تفسير كلام الله وتوضيح سنة رسوله ﷺ على أقوال غير المسلمين . لأن البحث في كتاب الله عبادة، والعبادة تسبقها نية الإخلاص لله تعالى وطلب العون منه وتوكلاً عليه ، فيلهم الله المسلم الصواب على قدر إيمانه ، فإن وصل إلى مرتبة التقوى مثلاً منح من العلم ما يستحقه أهل هذه المرتبة كما قال تعالىٰ : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ؛ الآية : ٢٨٢] .

وكلما ارتقى القلب فتح الله عليه علماً لم يكن يعلمه من قبل ، فالموحىٰ إليه يعلم أكثر من المحدَّث ، والمحدَّث يعلم أكثر من الملهم ، والملهم يعلم أكثر من غيره .

فعلى الباحث أن يسأل أهل لا إله إلاَّ الله عن معاني كتاب الله

---

(١) يأتي نصه وتخريجه في باب أمراض القلوب .

وسنة رسوله ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل ؛ الآية : ٤٣ والأنبياء ؛ الآية : ٧] .

قال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن[١] . وقال ابن زيد[٢] : أراد بالذكر القرآن ، أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن .

قال جابر الجعفي[٣] : لما نزلت هذه الآية قال علي رضي الله عنه : نحن أهل الذكر ، وقال سفيان[٤] : هم أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي ﷺ[٥] .

فلا بد أن يؤخذ معنى كلام الله عن المسلم العالم العدل الثقة الثبت ، فأنوار الوحي لا تلج القلب المؤلم . أما الأمور المادية القائمة على التجربة ، فهي للخلق عامة ، لا مانع من الاستئناس بقول من بحثها أو اكتشفها ، أما درر المعاني فلا تكون في قلب عاص مطبوع على قلبه ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة ؛ الآية : ٩٣] .

---

(١) أ ـ الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبي» (١٠/١٠٨) .
ب ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم (١٢/١٥٠) .

(٢) ابن زيد : أحمد بن محمد بن أحمد بن زيد من علماء الحنابلة . توفي ٨٧٠ هـ ، الأعلام (١٢/ ٢٣٠) .

(٣) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي تابعي من فقهاء الشيعة . ت : ١٢٨ هـ ، الأعلام (٢/١٠٥) .

(٤) سفيان بن عيينة بن أبي عمران : محدث الحرم المكي ثقة ، توفي ١٩٨ هـ ، تهذيب التهذيب (٤/ ١١٧) .

(٥) تفسير القرطبي (١١/ ٢٧٢) .

فمن تكدر قلبه بالظلمات والشهوات ، لا بد أن تحجب عنه أنوار العلوم ، لأن القلوب كالأواني : ما دامت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء ، والقلب المشغول بغير الله لا تدخله المعرفة بجلال الله[1] .

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في القلب والمعرفة .

موضوعات البحث الرئيسية

- الباب الأول : القلب والألفاظ المقاربة له .
- الباب الثاني : مراحل حياة القلوب .
- الباب الثالث : القلب المريض .
- الباب الرابع : مراحل موت القلب .
- الباب الخامس : القلب والمشاعر والإرادة .
- الباب السادس : القلب والمعرفة .

الباب الأول

القلب والألفاظ المقاربة له

- **الفصل الأول : تعريف القلب .**
- **الفصل الثاني : الألفاظ المقاربة للقلب .**

الفصل الأول

تعريف القلب

- **المبحث الأول : معاني القلب في اللغة العربية .**
- **المبحث الثاني : معاني القلب في القرآن الكريم .**

المبحث الأول

معاني القلب في اللغة العربية

القاف واللام والباء أصلان صحيحان .

أحدهما يدل على خالص الشيء وشريفه .

والآخر قلب الإنسان وغيره ، سمي به لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه .

وخالص كل شيء وأشرفه قلبه[1] .

(والقلب : تحويل الشيء عن وجهه . . . وقلّب الأُمور : بحثها ونظر في عواقبها . . . وفي التنزيل العزيز ﴿ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾ [التوبة ؛ آية ٤٨] .

وتقلّب في الأُمور وفي البلاد : تصرف فيها كيف شاء . وفي التنزيل العزيز ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [غافر : آية ٤] معناه : فلا يغررك سلامتهم في تصرفهم فيها ، فإن عاقبة أمرهم الهلاك .

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/١٧) .

ورجل قُلَّب : يتقلب كيف شاء .

وقوله تعالىٰ : ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [النور: آية ٣٧] .

قال الزجاج معناه : ترجف وتزحف من الجزع والخوف .

والمنقلب : مصير العباد إلى الآخرة ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : آية ٢٢٧] .

والقلب : مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط [١] . . وقوله تعالىٰ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : آية ١٩٤] .

قال الزجاج[٢] : معناه نزل به جبريل ، عليه السلام ، عليك فوعاه قلبك . . . قال الفراء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق : آية ٣٧] أي عقل .

وقال : وجائز في العربية أن تقول : . . . وما قلبك معك . . . ما عقلك معك . . وقال بعضهم : سمّي القلب قلباً لتقلبه ، وأنشد :

ما سمّي القلب إلاّ من تقلّبه   والرأي يصرف بالإنسان أطوارا

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «لا ومقلّب القلوب»[٣] .

---

(١) النياط : عرق علق به القلب من الوتين ، فإذا قطع مات صاحبه . لسان العرب (٧/٤١٨) .

(٢) الزجاج = إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحق الزجاج نحوي ، توفي ٣١١ هـ ، إنباه الرواة (١/١٥٩) .

(٣) صحيح الإمام البخاري كتاب التوحيد : باب (١١) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [الأنعام : آية ١١٠][1] .

ويطلق القلب على معنيين :

أحدهما : أمر حسي ملموس جسماني مشاهد ، وخير من يعرّفه لنا ذوي الاختصاص في العلوم الطبية بعامة وعلم وظائف الأعضاء بخاصة فقالوا :

هو عضو عضلي مجوف موضوع في باطن التجويف الصدري الأيسر شكله مخروطي غير منتظم قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، والذي لا يزيد في وظيفته عن مضخة تضخ الدم إلى أنحاء الجسم (رغم الأهمية القصوى لهذه المضخة)[2] .

ولقد استطاع الإمام أبو حامد الغزالي[3] أن يعبر بكل وضوح عن هذين المعنيين فقال : (لفظ القلب يطلق لمعنيين :

أحدهما : اللحم الصنوبري الشكل المودوع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه .

ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض

---

(١) لسان العرب (١/ ٦٨٥) ، مادة «قلب» .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين (٧/ ٩٠٩) ، محمد فريد وجدي ؛ كتاب المعرفة ، جسم الإنسان (٦٨) ، شركة إنماء النشر والتسويق ؛ الموسوعة العلمية الحديثة ، الجسم البشري (٥/ ١٠١) ، ميتشل ولسن ؛ قاموس القلب الطبي (١٥) ، محمد رفعت .

(٣) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، ت ٥٠٥ هـ ، الأعلام (٧/ ٢٢) .

الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية ، وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب (أي كتاب إحياء علوم الدين) لم نعن به ذلك ، فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة ، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين .

والمعنى الثاني : هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسماني . . وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته ، فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة)[١] .

ونكاد نرى شبه إجماع بين العلماء على هذا التعريف[٢] .

وقال الجرجاني[٣] : (اللطيفة هي كل إشارة دقيقة المعنى تلوح للفهم لا تسعها العبارة كعلوم الأذواق)[٤] .

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/١٣٥٠) .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص (١٤) . التعريفات ص (١٧٨) . إتحاف السادة المتقين (٧/٢٠٢) ، بشرح إحياء علوم الدين . غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/١٥٩) .

(٣) علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني ، من كبار العلماء بالعربية ، توفي ٨١٦ هـ ، الأعلام (٥/٧) .

(٤) التعريفات ص (١٩٢) .

المبحث الثاني

معاني القلب في القرآن الكريم[*]

ذكر العلماء أن القلب في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه :

الأول : بمعنى العقل :

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق : آية ٣٧] أي عقل يتدبر به ، فكنّي بالقلب عن العقل لأنه موضعه[١] .

الثاني : بمعنى الرأي والتدبير :

ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر : آية ١٤] .

أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف ، لا تستوي قلوبهم ولا يتعاونون بنيّات مجتمعة ، لأن الله

(*) لم أجد بعد البحث ـ على قدر جهدي ـ أوجهاً متعددة للقلب في السنة النبوية مثلما تطرقت كتب الوجوه والنظائر للمادة في القرآن الكريم .

(١) تفسير القرآن العظيم = تفسير ابن كثير (٤/٢٢٩) ، وكذلك تفسير القرطبي (١٧/٢٣) .

ناصر حزبه وخاذل أعدائه من اليهود والمنافقين [1] .

الثالث : بمعنى حقيقة القلب الذي في الصدر بعينه :

ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

أي أن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم ، وهي الآفة التي كل آفة دونها .

وتكاد تتفق كتب الأشباه والنظائر على هذه الأوجه الثلاث [2] .

---

(١) الكشاف (٤/٨٣) ، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢١٨) .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤/٢٨٩) : مجد الدين محمد يعقوب الفيروز أبادي .

نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ص (٤٨٣) : أبي الفرج ابن الجوزي ، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي .

إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص (٣٨٨) ، الحسين بن محمد الدامغاني ،تحقيق عبد العزيز السيد الأهدل .

الفصل الثاني

الألفاظ المقاربة للقلب

- **المبحث الأول : الفؤاد وعلاقته بالقلب .**
- **المبحث الثاني : اللب ومعانيه في اللغة والوحي .**
- **المبحث الثالث : العقل ومعانيه في اللغة والوحي .**
- **المبحث الرابع : الصدر ومعانيه في اللغة والوحي .**

المبحث الأول

الفؤاد وعلاقته بالقلب

ومن الألفاظ المقاربة للقلب : الفؤاد .

والفاء والألف والدال أصل صحيح يدل على حمى وشدة حرارة، من ذلك فأدت اللحم : شويته .

ومما هو من قياس الباب : الفؤاد ، سمّي بذلك لحرارته[1] .

ومن ثم يُقال للقلب الفؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي التوقد[2] .

وفي قول آخر أن أصل الفأد الحركة والتَحريك، ومنه اشتق الفؤاد لأنه ينبض ويتحرك كثيراً ، ورجّحه الزبيدي[3] عن الفيروز أبادي[4] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٤٦٩) .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص (٣٨٦) .

(٣) الزبيدي : محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي الملقب بمرتضى ، علامة باللغة والحديث، توفي ١٢٠٥ هـ ، الأعلام (٧/٧٠) .

(٤) الفيروز أبادي : محمد بن يعقوب بن محمد مجد الدين=

وقال : هذا أظهر لعدم تخلفه ومرادفته للقلب[1] .

(والفؤاد : القلب ، وقيل وسطه ، وقيل الفؤاد غشاء القلب والقلب حبته وسويداؤه)[2] .

الفؤاد في القرآن الكريم :

ذكر الله تبارك وتعالى الفؤاد في القرآن الكريم في ستة عشرة موضعاً .

في مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : آية ٧٨] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح وقيل الدماغ ، والعقل به يميز بين الأشياء : ضارها ونافعها)[3] .

كما ذكر الفؤاد في قوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون : آية ٧٨] .

ويُقال نشأ ينشأ : إذا ربا وشبَّ ، ومنه نشأ السحاب إذا ارتفع وبدا[4] .

= الفيروز أبادي ، من أئمة اللغة والأدب ، توفي ٨١٧ هـ ، الأعلام (١٤٦/٧) .

(١) تاج العروس ، من جواهر القاموس (٤٤٨/٢) .

(٢) لسان العرب (٣٢٩/٣) .

(٣) تفسير ابن كثير (٥٧٩/٢) .

(٤) لسان العرب (١٧٣/١) .

(فالله يذكر عباده بنعمه عليهم بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وهي العقول والفهوم ، التي يذكرون بها الأشياء ، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء)[1] .

وقد اتصف الفؤاد بصفات مغايرة للقلب منها :

الفراغ كما في قوله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ [القصص : آية ١٠] .

والفراغ : الخلاء أي خالياً من الصبر ، وتفريغ الظروف إخلاؤها[2] (فالحق تبارك وتعالىٰ يخبر عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً ، أي من كل شيء من أمور الدنيا إلَّا من موسىٰ . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن البصري[3] وقتادة وغيرهم)[4] .

كما اختص الفؤاد بالرؤى :

قال تعالىٰ : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم : آية ١٠ ، ١١] .

(أي اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه ، وتواطأ عليه سمعه وبصره وقلبه ، وهذا دليل على كمال

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٥٢) .

(٢) لسان العرب (٨/٤٤٥) .

(٣) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري مولى زيد بن ثابت ، توفي سنة ١١٠ هـ ، طبقات الحفاظ ص (٣٥) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٣٨١) .

الـوحي الذي أوحـاه الله إليه ، وأنـه تلقاه منـه تلقياً لا شـك فيـه ولا شبهــة ولا ريب ، فلم يكـذب فؤآده مــا رأى بصـره ولم يشــك في ذلك .

ويحتمل أن المراد بذلك : ما رأى ﷺ ليلة أسري به من آيات الله العـظيمة وأنـه تيقنه حقـاً بقلبه ورؤيتـه ، وهذا هـو الصحيـح في تأويل الآية الكريمة)[1] .

واتصف الفؤآد بالتثبت :

كما قال تعالىٰ : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : آية ١٢٠] .

(أي ونقصّ عليـك من أنبـاء الـرسـل الأشيــاء التي نثبت بهـ فؤادك . قـال ابن عباس : نثبت نسكن ، وقـال الضحـاك : نشـدّ . وقال ابن جريج[2] : نقوّي)[3] .

وعمـوم المعاني لا تخلو من الـطمأنينـة ، ففيها تـطيب لقلب رسول الله ﷺ .

واتصف بالخلو والهواء :

قال تعالىٰ : ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ

---

(١) «تيسيـر الكريم الـرحمن في تفسير كـلام المنان» عبـد الرحمن بن نـصـر السعدي ، تحقيق محمد زهري النجاري ، إدارة البحوث١٤٠٤ هـ .

(٢) ابن جريج : عبد الملك بن عبد العزيز بن جـريـج ، فقيـه الحرم المكي ، توفي ١٥٠ هـ ، الأعلام (٤/ ١٦٠) .

(٣) تفسير البحر المحيط (٥/ ٣٧٤) .

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : آية ٤٣] ، أي لا تغني شيئاً من شدة الخوف[1] . والهواء كل فرجة بين شيئين ، كما بين أسفل البيت إلى أعلاه وأسفل البئر إلى أعلاها ، ويُقال : هوى صدره يهوي إذا خلا ؛ والهواء : الجبان لأنه لا قلب له[2] .

واتصف الفؤاد بالصغو :

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [الأنعام : آية ١١٣] .

والصغو : الميل . صغا إليه يصغى : أي مال ، وصغا الرجل إذا مال على أحد شقيه ، وأصغى إليه رأسه : أماله[3] .

وقد اشترك مع القلب في هذه الصفة كما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : آية ٤] .

فلكل من القلب والفؤاد اختيار وميل .

واتصف بالتقليب :

كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : آية ١١٠] أي نصرفها من رأي إلى رأي .

---

(١) تفسير القرطبي (٣٧٧/٩) .

(٢) لسان العرب (١٥/ ٣٧٠) .

(٣) لسان العرب (١٦/ ٤٦١) ، بصائر ذوي التمييز (٤١٦/٣) ، المفردات ص (٢٨٢) .

والتقليب كما يكون للفؤآد فهو حالة من حالات القلب والبصر أيضاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [النور: آية ٣٧].

كما اتصف الفؤآد بالهوى والميل:

قال تعالىٰ: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: آية ٣٧].

(أي تنزع، يُقال: هوى نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوي هوياً فهي هاوية إذا عَدَتْ عدواً شديداً كأنها في هواء بئر: وقوله تعالىٰ: ﴿تهوي إليهم﴾ مأخوذ منه)[1].

والفؤآد لا قيمة له ولا فائدة منه لمن لا يتعظ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأحقاف: آية ٢٦] فاشترك مع القلب في الصغو والتقليب، وانفرد ببقية الخصائص والأحوال.

ونسبت إليه الرؤية والإصغاء والفراغ، وفعل الله في الفؤآد التثبيت والميل والتقليب.

الفؤآد في السنة المشرفة:

ورد في مسند أحمد من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: «بعثني رسول الله ﷺ قاضياً إلى اليمن.. فذكر

---

(١) تفسير القرطبي (٣٧٣/٩).

الحديث وفيه :قال له رسول الله :«**إن الله مثبت قلبك وهاد فؤادك**»[1].

وتثبيت الله للقلب انفردت به السنة وهي موضحة للقرآن ، بينما القرآن ذكر التثبيت كفعل من أفعال الله في الفؤآد ، من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ [هود : آية ١٢٠] .

ومثلها هداية الفؤاد وردت في السنة فعلاً من أفعال الله للفؤآد بينما في القرآن وردت الهداية للقلب كما في قوله تعالىٰ : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴾ [التغابن : آية ١١] .

والسنة المشرفة ميّزت بين حالات القلب وحالات الفؤآد . ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «**جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة وأضعف قلوباً ـ وفي رواية ـ ألين قلوباً وأرق أفئدة**»[2] .

والرقة : ضد القسوة والشدة .

واللين : بمعنى السكون والوقار والخشوع[3] .

---

(١) مسند أحمد = المسند (١/١٤٩) ، وسنن أبي داود ـ كتاب القضاء ، حديث (٣٥٨٢) وأخرجه الترمذي مختصراً وقال : حديث حسن (عون المعبود ٩/٥٠٠) .

(٢) صحيح مسلم (١/٧٣) كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر مادة رق (٢/٢٥٢) ، مادة لين (٤/٢٨٦) .

وكل هذه المعاني من أعمال القلوب ، فدل ذلك أن الفؤاد وإن كان مغايراً للقلب إلَّا أنه جزء منه اختص ببعض الأحوال .

فالقلب كالوعاء كما في حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : **«القلوب أوعية بعضها أوعى من بعض»** الحديث[1] .

(ومثل الفؤاد في القلب كمثل الحدقة في سواد العين ، وكمثل المسجد الحرام في داخل مكة ، وكمثل المخدع والخزانة في البيت ، وكمثل الفتيلة في موضعها وسط القنديل ، وكمثل اللب في داخل اللوز . وهذا الفؤاد موضع المعرفة وموضع الخواطر وموضع الرؤية ، وكلما يستفيد الرجل يستفيد فؤاده أولاً ثم القلب ، والفؤاد في وسط القلب كما أن القلب في وسط الصدر مثل اللؤلؤة في الصدف)[2] .

---

(١) مسند أحمد (٢/١٧٧) ، وإسناده حسن . مجمع الزوائد (١٠/١٥١) .
(٢) بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ص (٣٨) .

المبحث الثاني

اللب ومعانيه في اللغة والوحي

اللام والباء : أصل صحيح يدل على لزوم وثبات وعلى خلوص وجودة .

فالأول : ألبَّ بالمكان إذا أقام به .

والمعنى الآخر : اللُّب معروف من كل شيء ، وهو خالصه وما ينتقى منه ، ولذلك سمّي العقل لباً ، ورجل لبيب ، وخالص كل شيء لبابه[(١)] ولب الرجل ما جعل في قلبه من العقل[(٢)] .

ورد أيضاً أن اللب هو العقل[(٣)] وبه قال النووي[(٤)] أن المراد كمال العقل[(٥)] .

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٢٠٠) .

(٢) لسان العرب (١/ ٧٢٩) .

(٣) القاموس المحيط ص (١٧٠) ، تاج العروس (١/ ٤٦٤) .

(٤) النووي : يحي بن شرف بن مري الحزامي النووي محيي الدين ، علامة بالفقه والحديث ، توفي ٦٧٦ هـ ، الأعلام (٨/ ١٤٩) .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان (٢/ ٦٦) .

وقال ابن حجر[1] : اللُّب أخص من العقل وهو الخالص منه[2] . ويسمّى اللب لباً لأنه خلاصة الإنسان ، أو لأنه لا يسمى بذلك إلاَّ إذا خلص من الهوى وشوائب الأوهام ، فهو خالص ما في الإنسان من معانيه ، كاللُّباب واللُّب من الشيء[3] .

وقيل : ما زكى من العقل . فكل لب عقل وليس كل عقل لباً .

اللب في القرآن الكريم :

ذكرت هذه المادة ستة عشر مرة في القرآن الكريم ، وقد بيّن تعالىٰ صفة المستحقين لهذا التتويج .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : آية ١٩٠ ، ١٩١] .

ففي الآية حث العباد على التفكر في السموات والأرض والتبصر بآياتها وتدبر خالقها ، لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين ويقنع المتفكرين ويجذب أفئدة الصادقين ، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلٓهية ، وخصّ أولو الألباب وهم : أهل

---

(١) ابن حجر : أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، من أئمة العلم ، ت ٨٥٢ هـ ، الأعلام (١/١٧٨) .

(٢) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري (١/٤٠٥) .

(٣) تاج العروس (١/٤٦٤) ، المفردات في غريب القرآن ص (٤٤٦) .

العقول لأنهم هم المنتفعون بها ، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم[1] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [الرعد : آية ١٩ ، ٢٠] .

فلا يتذكر ويتفكر إلَّا أولو العقول الرزينة والآراء الكاملة ، الذين هم لب العالم وصفوة بني آدم ، ولن تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله : الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون العهد الذي عاهدوا الله عليه[2] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾[الزمر: آية١٧- ١٨].

فهذه صفات المؤمنين وقد نعتهم الله بذلك بقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الطلاق : آية ١٠] ، وهم أيضاً قالوا : ﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ [آل عمران : آية ١٩٣] .

وقد امتازوا عن غيرهم بالتذكر ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : آية ٢٦٩] .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/٤٧٣) ، بتصرف .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/١٠٢) بتصرف .

اللّب في السنة :

ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري وفيه : «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»[1] .

وقال ابن حجر في شرحه للحديث : اللب أخص من العقل ، وهو الخالص منه . وقال النووي : المراد كمال العقل .

(ولكن اللب في الفؤاد كمثل نور البصر في العين، وكمثل نور السراج في فتيلة القنديل ، وكمثل الدهن المكنون في داخل لب اللوز)[2] .

ومن مرادفات القلب : العقل :

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

(١) صحيح البخاري (١/٧٨) كتاب الحيض ، باب (٦) ، صحيح مسلم (١/١٣٢) كتاب الإيمان ، وسيرد في العقل .

(٢) بيان الفرق ص (٣٨) .

المبحث الثالث

العقل ومعانيه في اللغة والوحي

العين والقاف واللام أصل واحد يدل عُظمه على حبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة ، من ذلك العقل وهو الحابس عن ذميم القول والفعل[1] .

والعقل : نقيض الجهل ، يُقال : عقل يعقل عقلاً إذا عرف ما كان يجهله قبل .

والعقل : الحجر والنهى .

وفي قول آخر : التثبت في الأُمور .

والعقل : القلب ، والقلب العقل[2] .

وقال الفيروز أبادي : العقل : العلم ، أو هو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها ، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين ، أو مطلق الأُمور ، أو القوة بها يكون التميز بين القبح والحسن ، واقتصر كثيرون من علماء اللغة على أن العقل

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٦٩) .

(٢) لسان العرب (١١/٤٥٩) ، تاج العروس (٨/٢٧) .

هو العلم[1] .

ولكن هناك فرق بين العلم والعقل .

فالعقل : هو العلم الأول الذي يزجر عن القبائح ، وكل من كان زاجره أقوى كان أعقل .

وسمّي العقل عقلاً لأنه يمنع صاحبه عن الوقوع في القبيح ، وهو من قولك : عقل البعير إذا شده فمنعه من أن يثور ، ولهذا لا يوصف الله به[2] .

بينما العلم : هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة ، ويكون مجملاً ومفصلاً[3] .

وخلاف العلم الجهل ، وخلاف العقل الحمق[4]

وللعقل ألفاظ مرادفة كاللب والحجر والنهى والحلم والحجى .

العقل في القرآن الكريم :

لفظ العقل اسم ليس له وجود في القرآن الكريم ، وإنما استخدم القرآن ما تصرف منه بصيغة الفعل على النحو التالي :

١ - عقلوه :وردت في موضع واحد في قوله تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة :آية ٧٥].

---

(١) القاموس المحيط ص (١٣٣٦)، تاج العروس (٨/ ٢٥) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٦٥) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٦٢) .

(٤) الفروق اللغوية ص (٦٦) .

٢ ـ تعقلون : وردت في أربعة وعشرين موضعاً في مثل قوله تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : آية ٤٤] وأيضاً في مثل قوله تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة : آية ٢٤٢] .

٣ ـ نعقل : وردت في موضع واحد في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : آية ١٠] .

٤ ـ يعقلها : وردت في موضع واحد في قوله تعالىٰ : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت آية ٤٣] .

٥ ـ يعقلون : وردت في اثنين وعشرين موضعاً في مثل قوله تعالىٰ : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : آية ١٧١] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : آية ٢٢] .

العقل في السنة :

وردت أحاديث كثيرة في فضل العقل ، ولا يكاد يوجد لفظ المصدر في حديث صحيح إلاّ ما ورد في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال : «**يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار** . فقلن : وبم يا رسول الله قال : **تكثرن اللعن وتكفرن**

العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن . قلنا : وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال : **أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل** ؟ قلن : بلى . قال : **هذا من نقصان عقلها** . . » الحديث[1] .

قال ابن حجر :ومن فوائد الحديث : أن العقل يقبل الزيادة والنقصان ، وليس المقصود بذكر النقص في النساء لومهن على ذلك لأنه من أصل الخلقة[2] .

وقال النووي نقلاً عن الإمام أبو عبد الله المازري[3] رحمهم الله : (أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ؛ تنبيه منه ﷺ على ما وراءه وهو ما نبّه الله تعالىٰ في كتابه بقوله : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة :آية ٢٨٢] . أي أنهن قليلات الضبط)[4] .

وأما ما عدا ذلك كحديث :

«أوّل ما خلق الله العقل فقال له : أقبل ، فأقبل» .

فقد قال ابن تيمية : (اتفق أهل المعرفة بالحديث على أنه ضعيف بل هو موضوع على رسول الله ﷺ وقد ذكر الحافظ أبو حاتم

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحيض (١/٧٨) ، صحيح مسلم كتاب الإيمان (١/١٣٢) ، النووي (٢/٦٥) ورواه مسلم من طريق عبد الله بن عمر وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري .

(٢) فتح الباري (١/٤٠٦) .

(٣) أبو عبد الله المازري : محمد بن علي بن عمر التميمي ، محدث من فقهاء المالكية ، توفي ٥٣٦ هـ ، الأعلام (٦/٢٧٧) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/٦٧) كتاب الإيمان .

البستي[1] وأبو الحسن الدارقطني[2] والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي[3] وغيرهم أن الأحاديث المروية عن النبي ﷺ في العقل لا أصل لشيء منها وليس في روايتها ثقة يعتمد)[4] .

معنى العقل :

بالتتبع في التعريفات اللغوية والأحاديث النبوية نجد أن العقل ليس هو عيناً قائمة بنفسها .

يقول ابن الجوزي : العقل يطلق بالاشتراك على أربعة معان :

أحدها : الوصف الذي يفارق به الإنسان البهائم ، وهو الذي استعد لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية ، وهو الذي أراده من قال : غريزة ، وكأنه نور يقذف في القلب يستعد به لإدراك الأشياء .

والثاني : ما وضع في الطباع ، من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات .

والثالث : علوم تستفاد من التجارب تسمى عقلاً .

---

(١) أبو حاتم البستي : محمد بن حبان بن أحمد التميمي ، علامة محدث ، توفي ٣٥٤ ، طبقات السبكي (٢/١٤١) .

(٢) أبو الحسن الدارقطني : علي بن عمر بن أحمد الشافعي ، إمام عصره في الحديث ، توفي ٣٨٥ هـ ، طبقات السبكي (٤/٣١٤) .

(٣) أبو الفرج ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، علامة في الحديث والتاريخ ، توفي ٥٩٧ هـ ، الأعلام (٣/٣١٦) .

(٤) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد ص (١٧١) ، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ، تحقيق الدكتور موسىٰ بن سليمان الدويش .

والرابع : منتهى قوة الغريزة ، التي تقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة[1] .

وتقسيم ابن الجوزي ينحصر في ثلاث معان فالأول والثاني بمعنى واحد ، وإبدال كلمة الإرادة بالغريزة أنسب لأن الغريزة : هي الطبيعة[2] . والطبيعة : السجية ، وهي ما ركّب فينا من المطعم والمشرب وغير ذلك[3] .

والفرق بين الإرادة والشهوة : أن الإنسان قد يشتهي ما هو كاره له كالصائم يشتهي الماء ويكرهه ، وقد يريد الإنسان ما لا يشتهيه كشرب الدواء المر والحمية والحجامة وما بسبيل ذلك ، وشهوة القبيح غير قبيحة ، وإرادة القبيح قبيحة فالفرق بينهما بيّن[4] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

(العقل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكلام الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وسائر أئمة المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل سواء سمي عرضاً أو صفة ، ليس هو عيناً قائمة بنفسها ، سواء سمّي جوهراً أو جسماً أو غير ذلك)[5] .

ومعنى هذا أنه ليس عند الإنسان عضو مستقل يسمّى العقل .

---

(١) الأذكياء ص (١٠) .
(٢) القاموس المحيط ص (٦٦٧) .
(٣) القاموس المحيط ص (٩٦٠) .
(٤) الفروق اللغوية ص (٩٩) .
(٥) مجموع الفتاوى (٩/٢٧١) .

المبحث الرابع

الصدر ومعانيه في اللغة والوحي

الصاد والدال والراء أصلان صحيحان أحدهما يدل على خلاف الورد ، والآخر صدر الإنسان وغيره .

فالأول قولهم : صدر عن الماء . وصدر عن البلاد ، إذا كان وردها ثم شخص عنها .

وأما الآخر فالصدر للإنسان والجمع صدور[١] .

والصدر : أعلى مقدَّم كل شيء وأوّله ، حتى إنهم يقولون : صدر النهار والليل وصدر الشتاء والصيف[٢] .

والصدر من الإنسان والحيوان ما دون العنق إلى فضاء الجوف ، وعند الأطباء : قفص عظمي غضروفي يتضمن الآلات الرئيسية للتنفس والدورة[٣] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/٣٣٧) .

(٢) لسان العرب (٤/٤٤٥) ، تاج العروس (٣/٣٢٨) .

(٣) دائرة المعارف (١٠/٧٠٤) .

الصدر في القرآن الكريم :

ولكن القرآن أثبت له أفعال تصدر منه ، وصفات يكتسبها ، وأفعال ترِدُ عليه من الحق تبارك وتعالى ، وأفعال تُؤثر فيه من الخلق .

فأثبت له الانشراح فقال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : آية ١٠٦] .

كما أن هذه الصفة فعل الله في العبد كما في قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ الزمر : آية ٢٢] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الانشراح : آية ١] وقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام :آية ١٢٥] .والشرح : التوسعة والفتح والفهم والكشف[١] .

ومعنى أن يشرح صدره للإسلام (أي ييسره وينشطه ويسهله)[٢] والإسلام مقرّه الصدر وهو بداية النور ، قال تعالى : ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر : آية ٢٢] . فمقرّ الإسلام عند المسلم صدره .

فالإسلام والإيمان نور الصدر والقلب وبداية النور علامات الخير والفلاح (فشرح الصدر مقدمة لسطوع الأنوار الإلهية في القلب)[٣] .

---

(١) لسان العرب (٢/٤٩٨) ، القاموس المحيط ص (٢٨٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٧٤) .

(٣) التفسير الكبير (٣٨/٢٦) للفخر الرازي .

ضيق الصدر :

كما أثبت الله للصدر حالة الضيق قال تعالىٰ على لسان موسىٰ عليه السلام : ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء :آية ١٣] .

وكما في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر : آية ٩٧] .

وقوله : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود : آية ١٢] .

ثم إن الضيق أيضاً من أفعال الله في الصدور ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام :آية ١٢٥] .

والضيق ضد الاتساع ، والضيق الشك والبخل والعسرة[1] .

وضيق الصدر المذكور في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ معناه : هو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه[2] .

وضيق الصدر للمؤمنين انقباض وغمّ مما يشاهد من أفعال لا ترضي الحق أو توصل الضرر إلى نفسه أو الآخرين .

وقد فسر ابن كثير قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل : آية ١٢٧] بالغم[3] .

---

(١) القاموس المحيط ص (١١٦٥) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٧٥) .

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٥٩٢) .

حـرج الصـدور :

وأوضح الحق أن الحرج مكانه الصـدر كما في قـوله تعـالى : ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعرف: آية ٢] .

وفي مثـل قولـه تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام : آية ١٢٥] وهو فعـل الله في القلب ، وهذه من صفات النفوس .

كما قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ [النساء : آية ٦٥] .

والحــرج : المكـان الضيق الكثيـر الشجـر ، ويـأتي بمعنى الإثم[١] .

وفسَّر القرطبي قـوله تعـالىٰ : ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ [الأعراف : آية ٢] أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ[٢] .

وقوله : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام : آية ١٢٥] .

إن الحـرج شـدة الضيق وفسـره ابن عبـاس فقـال : (الحـرج موضع الشجر الملتف فكأن قلب الكافر لا تصل إليه الحكمـة ، كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذي التف شجره)[٣] .

---

(١) القاموس المحيط ص (٢٣٤) .

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ١٦٠) .

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٨١) .

الصدر محل الكبر :

كما أوضح الحق أن الصدر مقر الكبر فقال تعالىٰ :﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾[غافر : آية ٥٦] .

والكبر من أفعال النفوس بدليل قوله تعالىٰ : ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان :آية ٢١] .

الكبر معظم الشيء ، والإثم القبيح من الذنوب ، والتجبر ، والعظمة[١] .

كما اختص الصدر بالحصر كما في قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء : آية ٩٠] .

والحصر ـ بالتحريك ـ ضيق الصدر ويأتي بمعنى البخل ، والعيّ في الكلام وعدم القدرة على الكتابة ، والكتوم للسر[٢] .

والحصر : حبس مع تضييق ، يُقال : حصرهم في البلد[٣] .

وفسر القرطبي قوله تعالىٰ : **﴿حصرت صدورهم﴾** بالضيق[٤] .

ومن حالات الصدر الرهبة . كما قال تعالىٰ : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ

---

(١) القاموس المحيط ص (٦٠٢) .
(٢) القاموس المحيط ص (٤٨٠) .
(٣) الفروق اللغوية ص (٩٣) .
(٤) تفسير القرطبي : (٥/٣٠٩) .

رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : آية ١٣] .

والرهبة : الخوف[1] وتأتي بمعنى الخشية ، وفسَّر القرطبي الرهبة بالخوف والخشية[2] ، ولكن الرهبة أشد من الخوف ؛ (فهي طول الخوف واستمراره ومن ثم قيل للراهب راهب لأنه يديم الخوف)[3] .

كما جعل الله الابتلاء لما تكنّه الصدور قال تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : آية ١٥٤] أي يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان ، ويمحص ما في قلوبكم من وساوس الشيطان وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة[4] .

والابتلاء : الاختبار والامتحان[5] ويكون بالسراء كما بالضراء .

ومعنى قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي ليختبر صبركم ،وقيل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غيباً[6] .

ونسب الله تعالىٰ الغل إلى الصدر ، وهو أيضاً سبحانه الذي ينزعه ، فقال : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الأعراف : آية ٤٣] .

---

(١) القاموس المحيط ص (١١٨) .

(٢) تفسير القرطبي (٣٥/١٨) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٢٠٠) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤٤١/١) ، التفسير الكبير (٥٠/٩) .

(٥) المفردات ص (٦١) ، القاموس المحيط ص (١٦٣٢) ، التفسير الكبير (١٣١/٣١) ، تفسير القرطبي (٨/٢٠) .

(٦) تفسير القرطبي (٢٤٣/٢) .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : آية ٤٧] .

والغل مقره الصدر ، فإن زاد وصل إلى القلب ، فقال تعالىٰ على لسان عباده المؤمنين : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الحشر : آية ١٠] .

والغل اسم جامع للغش والعداوة والضغن والحقد والحسد[١] .

وأيضاً الصدر محل وسوسة الشيطان قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[الناس: آية ٥] .

والوسوسة فعل الشيطان في النفس ونسبها الله إلى النفس فقال تعالىٰ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق : آية ١٦] .

(والوسوسة : حديث النفس والشيطان بما لا نفع فيه ولا خير)[٢] .

أو هو الخطرة الرديئة ، وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفي) .

كما وأن الصدر مكان إخفاء الأسرار قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن

---

(١) لسان العرب (١١/٥٠١)،النهاية في غريب الحديث (٣/٣٨١) ،القاموس المحيط ص (١٣٤٣) .

(٢) القاموس المحيط ص (٧٤٨) .

﴿ تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ ﴾ [آل عمران : آية ٢٩] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ ﴾ [آل عمران : آية ١١٨] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : آية ١٩] .

واشتركت النفس في هذه الخاصية كما في قوله تعالى : ﴿ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ ﴾ [الأحزاب : آية ٣٧] .

وكقوله : ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ ﴾ [البقرة : آية ٢٨٤] .

ولو تتبعنا أحوال وصفات النفس لوجدناها تدور في الصفات السابقة ، واستقلت بصفات أخرى مغايرة للصدر ، لا مجال لسردها في هذا البحث .

العلاقة بين الصدر والقلب :

(فالصدر بالنسبة للقلب بمنزلة بياض العين في العين ، ومثل صحن الدار في الدار ، ومثل الذي يحوط بمكة ، ومثل موضع الماء في القنديل ، ومثل القشر الأعلى من اللوز الذي يخرج اللوز منه إذا يبس في الشجر . فهذا الصدر موضع دخول الوسواس والآفات ، كما يعيب بياض العين آفة البثور وسائر علل الرمد)[١] .

(والذي يدخل في الصدر قلّما يشعر به في حينه ، وهو موضع

---

(١) بيان الفرق ص (٣٥) .

دخـول الغـل والشهـوات والمُنى والحـاجـات ، وإنـه يضيق أحيـانـاً وينشرح أحياناً ، وهو موضع ولايـة النفس الأمارة بـالسوء ، ولهـا فيه مدخل وتتكلف أشياء وتتكبر وتظهر القدرة من نفسها .

وهـو موضـع نور الإسـلام ، وموضـع حفظ العلم المسموع ؛ الذي يتعلم من علم الأحكام والأخبار .

وإنما سمي صدراً لأنه صدر القلب وأول مقامه ، كصدر النهار هو أوله ، وكصحن الـدار الذي هـو أول موضـع منها ، ويصـدر منه وسـاوس الحوائـج ، وفكر الاشتغـال تصدر منـه إلى القلب أيضاً إذا استقرت وطالت المدة)[1] .

فلا انفكاك بين الصدر والقلب فكل منهما مرتبط بالآخر ، وإن استقـل كل واحـد منهما بصفـات مغـايـرة عن الآخـر ففي تفـريعهـا تشـابه ، فـانشراح الصـدر يؤدّي إلى خشوع القلب وهـدايته ويمهـد لـنزول السكينة فيـه ، كما وأن ضيق الصـدر قد يؤدّي بصـاحبـه إلى عمى القلب .

ومما أطلقه العرب على القلب الروع والخلد والجنان[2]:

الرُّوع : وهو بالضم القلب ، أو موضع الفزع منـه أو سواده ، والذهن والعقل[3] .

والروع : الخلد[4] .

---

(١) بيان الفرق ص (٣٥ ـ ٣٦) .

(٢) اكتفيت بشرح موجز لهذه الألفاظ باعتبار أنها لم تستخدم في اللغة العربية كدلالة على القلب بصفة أساسية .

(٣) القاموس المحيط ص (٩٣٥) .

(٤) المفردات ص (٢٠٨) .

وفي حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : **«أخبروني عن شجرة مثلها مثل المؤمن ؟ فجعل القوم يذكرون شجراً من شجر البوادي ، قال ابن عمر : وألقي في نفسي ـ أو روعي ـ أنها النخلة . . »** الحديث[1] .

قال النووي : والرُّوع هنا بالضم الراء وهو النفس ، والقلب ، والخلد .

والخلد : بالتحريك : البال ، والقلب ، والنفس[2] .

والخلد : اسم للجزء الذي يبقى من الإنسان على حالته ؛ فلا يستحيل ما دام الإنسان حياً ، استحالة سائر أجزائه[3] .

والجنان : القلب : سمّي به لاستتاره في الصدر ، أو لحفظه الأشياء ، أو لكونه مستوراً عن الحاسة ، ويطلق على الرُّوع والروح لأن الجسم يجنّها .

وسمّي القلب جناناً لأن الصدر أجنّه[4] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٥) ، حديث رقم (٦٤) .

(٢) القاموس المحيط ص (٣٥٧) .

(٣) المفردات ص (١٥٤) .

(٤) القاموس المحيط ص (١٥٣٢) ، المفردات ص (٩٨) ، لسان العرب (١٣/ ٩٣) ، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ص (١١٢) ، ومعجم مقاييس اللغة (١/ ٤٢١) .

الباب الثاني

مراحل حياة القلوب

- **الفصل الأول : الفطرة والقلب .**
- **الفصل الثاني : القلوب الحية ودرجات الايمان .**
- **الفصل الثالث : أفعال اللّه في القلوب .**

الفصل الأول

الفطرة والقلب

- **المبحث الأول : الفطرة وعلاقتها بالقلب .**
- **المبحث الثاني : تعرض الفطرة للانحراف وأثر ذلك على القلب .**

المبحث الأول

الفطرة وعلاقتها بالقلب

في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ : «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** . . .» الحديث[1] .

الحق تبارك وتعالىٰ هيأ القلوب على قبول الهدى في أصل الجبلة ، تقبل الحق وترضاه وتميل إليه ، فهو محبب إلى النفوس، خلق الإنسان في أحسن تقويم ، نفخ فيه من روحه ، هيأه لخلافة الأرض ، وخلق له جنة عرضها السمٰوات والأرض ، أعطاه من الحرية قدراً ، فتسلط عليه الشيطان من هذا القدر ، فأعطاه قدرة الدفاع قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : آية ٧٨] .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي ، وباب ما قيل في أولاد المشركين . انظر فتح الباري (٣/٢٤٥) ، صحيح مسلم رقم (٢٦٥٨) في القدر .

فالسمع والبصر يمدّان الفؤاد بما يتطلبه الإدراك فتستيقظ الفطرة إلى معرفة الله ، تتذكر العهد المكنون في عالم الغيب المستكن فيها قبل أن تظهر إلى عالم الشهادة .

(إن العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة . فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده ، أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها ويميل بها عن فطرتها)[1] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[الأعراف:آية١٧٢،١٧٣] .

فهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات لا سبيل إلى إنكاره .

فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقاً وديناً له ، لكن يعرض لها ما يفسدها ، ومعرفة الحق تقتضي محبته ومعرفة الباطل تقتضي بغضه ، لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل . فالإقرار به فطرياً ضرورياً في حق من سلمت فطرته لا تحتاج إلى أدلة ولا براهين ، فهو أشد رسوخاً في القلوب من أي شيء آخر .

---

(١) في ظلال القرآن (١٣٩٣/٩) سيد قطب .

المبحث الثاني
تعرض الفطرة للانحراف وأثر ذلك على القلب

الفطرة تتعرض لعوامل الانحراف ، ففي صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً**»[1] .

فشياطين الإنس والجن يعتمدون على نقط الضعف الموجودة في التكوين البشري ، فيحولون الفطرة عن المنهج القويم ، ولهم في ذلك طريقان :

الأول : **طريق الشبهات** : فيصدونهم عن اتباع الحق بإثارة الشبهات وتشكيكهم في أصول الإيمان وخصائصه قال تعالىٰ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب (١٦) ، حديث (٢٨٦٥) ، (٢١٩٧/٤) .

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران : آية ٧] .

الثاني : **طريق الشهوات** التي تصد القلب عن الاتباع . فاليهود يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم . ولا يتبعونه بما في نفوسهم من الحسد والكبر الذي يوجب بغض الحق ومعاداته . والإنسان ضعيف بطبعه ، قال تعالى : ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : آية ٢٨] فينتهز الشيطان نقطة الضعف ، فهو يجري في الإنسان مجرى الدم ، فإذا لم يكن للعبد عاصم من الحق ، أمله الشيطان مما هو محبب للنفس ، فيترك ما أمره الله من التكاليف قال تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم : آية ٥٩] .

فطالما ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين وميزان العمل والإخلاص لرب العالمين ؛ كانوا لما سواها من دينهم أضيع وله أرفض ، والسبب اتباع شهوات النفس .

فالشيطان بلغ من حقده بعد طرده ولعنته أن يغوي من البشر كل من لا يلجأ إلى حمى الله ، فيمني الإنسان بالأمنيات الكاذبة في طريق الغواية ؛ من لذة كاذبة ، وسعادة موهومة .

وشعور الإنسان بأن هذا الشيطان عدوه القديم ؛ يثير في نفسه على الأقل الحذر من الوقوع في الفخ الذي نصبه العدو ، فيبقى في صراع ومعركة دائمة ، فإما أن يكون من حزب الله ولياً من أوليائه ، وإما أن يكون ولياً للشيطان ، لا ثالث لهما ، وليس هناك وسط .

ومن يجعل الله مولاه فقد فاز ونجى ، ومن يجعل الشيطان

مـولاه فقد خسـر وهلك، ولكن حالة استهواء من أحـد الطريقين هي التي تنحـرف بـالفـطرة البشـريـة عن الإيمـان والتـوحيـد إلى الكفـر والشـرك ، ولولا هـذا الاستهواء لمضت الفـطرة في طريقهـا . ولكن الإسـلام هو هـادي الفطرة وحـاديها ، أي أن الإسـلام بـدايـة حلقـة السلسلة يـرتقي منـه الشخص إلى مـرتبـة أعلى ، فـالإسـلام وحـده مدلول شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، فهو في البدء مـدلول اعتقـاد أن البشر في هـذه الأرض خاضعين للنـاموس الإلٓهي الـواحـد الـذي يصـرفهم ويصـرف الأرض كمـا يصـرف الكـواكب والأفلاك ، وما تدركه منه العقول وما يقصر عنه إدراك البشر .

فـالإسلام بمعنـاه العملي مرتبـة دون الإيمـان أوضحهـا الحق بقوله تعالىٰ : ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات : آية ١٤] .

فهـو اعتراف بـاللسان وبـه يحقن الدم . ثم يتـدرج في دائـرة الإسلام حتى تتم الدائرة ، فإن اقترنت الطاعة مع اعتـراف اللسان ، بدأت التكاليف بالأهم فالمهم من الأركان الخمس : صلاة ، زكاة ، صيام ، حج ، ومن بداية التعبـدات تبدأ حـركة ذات مـراحل ، كـل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحـاجاتهـا ، وكل مـرحلة تسلم إلى المـرحلة التي تليها ، فمتى تحـرر الإنسـان من عبـوديـة الأرض وانتقـل إلى عبوديـة إله الأرض والسمـاء ؛ لا بـد أن تختفي الأهـواء شيئاً فشيئاً فيحيى القلب ، وتبدأ مرحلة الإيمان .

الفصل الثاني

القلوب الحية ودرجات الايمان

- **المبحث الأول : القلب مقر الايمان .**
- **المبحث الثاني : القلب السليم .**
- **المبحث الثالث : خشوع القلب .**
- **المبحث الرابع : تقوى القلوب .**
- **المبحث الخامس : القلب واللين .**
- **المبحث السادس : القلب المخبت .**
- **المبحث السابع : وجل القلب .**
- **المبحث الثامن : القلب المنيب .**
- **المبحث التاسع : القلب المطمئن .**
- **المبحث العاشر : الغين على القلب .**
- **المبحث الحادي عشر : توضيح مكان القلب المعنوي من الانسان .**

المبحث الأول

القلب مقر الايمان

تبدأ هذه المرحلة بنهاية القلق والتيه إلى بداية التصور الناصع للقلب البشري ، فهو استمساك بالعروة الوثقى قال تعالىٰ : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة : آية ٢٥٦] وهي حقيقة التوحيد استقبالاً كاملاً مباشراً للخلق مع الخالق ، استقبال معرفة نابع من القلب ، اعتقاد ووفاء بالفعل (فمن الناس من نور لا إله إلَّا الله في قلبه كالشمس ، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري ، وآخر كالمشعل العظيم ، وآخر كالسراج المضيء ، وآخر كالسراج الضعيف ، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بإيمانهم بين أيديهم على هذا المقدار ، بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملاً ، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم ؛ أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته)[1] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص (٣٧٦) الإمام أبو جعفر الطحاوي ، تحقيق جماعة من العلماء ، تخريج : ناصر الدين الألباني .

وهذه الأنوار المتدرجة تدخل في طبقتي الإيمان والإحسان ، حيث يكون ما هو كالسراج الضعيف أدنى درجة من درجات الإيمان ، وما هو كالشمس أعلى درجة من درجات الإحسان .

فالقلب محل الإيمان قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة : آية ٤١] .

والإيمان ضد الكفر ، وهو بمعنى التصديق وضده التكذيب ، والتصديق يقين يحسن به العبد ويشعر به ، وهو درجات يبدأ بالدخول وينتهي بالعبد إلى أعلى مراتب الطمأنينة ، فيرسخ في القلب . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : آية ١٤] .

الفرق بين الاسلام والايمان :

إن الإسلام إظهار الخضوع والقبول لما يأتي به النبي ﷺ فإن كان مع ذلك إظهار اعتقاد وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح : فذلك الإيمان الذي يُقال للموصوف به هو مؤمن مسلم ، فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر .

(والأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها ، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه ، فقد أدى الأمانة فهو مؤمن)[1] .

والإيمان نور الله في القلب ، يشرق عليه فتشرق به النفس ،

(١) لسان العرب (٢١/٣) .

ويشرق به الكيان البشري عامة ، ولا بد للمركّب من الطينة الغليظة ومن النفخة الإلٓهية من روح الله ؛ أن تشرق عليه هذه النفخة ، وإلَّا كان جسداً من لحم ودم .

ولا بد للنفس البشرية أن يشرق عليها النور النابع من القلب ؛ لترى الطريق فتحذر من الشبهات والشهوات ، ولا بد للفطرة من الإيمان لتزداد معرفة بالخالق ، والقلب مقر الإيمان قال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة : آية ٢٢] .

(أي كتب له السعادة وقررها في قلبه ، وزيّن الإيمان في بصيرته . قال السدي[١] : (كتب في قلوبهم الإيمان : جعل في قلوبهم الإيمان)[٢] .

وأثبت الحق أن الإيمان يدخل القلوب قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ [الحجرات : آية ١٤] .

وأن القلب يطمئن به قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل : آية ١٠٦] .

وقد تولى الله تزيين الإيمان ليقبله القلب وينفتح له ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ [الحجرات : آية ٧] .

فنور لا إله إلَّا الله يزيد في القلب إشراقاً إذا عني به . قال

---

(١) السدي : إسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، تابعي ، صاحب التفسير ، توفي ١٢٨ هـ ، النجوم الزاهرة (١/٣٠٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٢٩) .

تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : آية ١٢٤] .

والحياة التي يريدها الله لا بد أن يشرق فيها نور الله . فالله نور السمٰوات والأرض ، فمن حرم من نور الله أصبح في ظلمات . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : آية ٤٠] .

والنور واحد لا يتعدد في كتاب الله ، وليس له جمع في الذكر الحكيم للدلالة على مصدره الواحد ، بعكس طرق الضلال ؛ فهي ظلمات بعضها فوق بعض ، وكلّ ما أتى به رسول الله ﷺ فهو نور يهدي به الله من يشاء من عباده . قال تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : آية ١٥] .

والقرآن نور ، قال تعالىٰ : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف : آية ١٥٧] .

قال ابن كثير[1] في تفسير النور في الآية إنه (القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس)[2] .

والإيمان نور وكل ما جاء من الهدى فهو نور ، فهو حياة القلب قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : آية ٤٠] .

ومقر هذه الأنوار قلب المؤمن ، فهو مقر الإيمان ومقر

---

(١) ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، حافظ مؤرخ فقيه ، توفي ٧٧٤ هـ ، الأعلام (١/٣٢٠) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٢٥٤) .

القرآن . قال تعالىٰ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : آية ١٩٣ ، ١٩٤] .

فإذا تمكن الإيمان من قلب شعّ نوره على الحواس .

القلب موطن الخير :

والإيمان مفتاح كل خير ، مفتاح هداية القلب قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن : آية ١١] .

والإيمان حاجز ضد مكايد الشيطان قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [النحل : آية ٩٩] .

مهما وسوس فإن القلب العامر بالإيمان يتأبى أن ينساق معه وينقاد إليه ، وقد يخطىء ولكن سرعان ما يتدارك ويعود إلى رشده ويتوب .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : آية ٢٠١] .

والإيمان كله خير ، وكل بوادره خير ، وقد ارتبط الخير بالقلب في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال : آية ٧٠] .

(والخير ضد الشر ، وجمعه خيور)[1] .

(والخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلاً ، والعدل ،

---

(١) لسان العرب (٤/ ٢٦٤) .

والفضل ، والشيء النافع ، قيل : والخير ضربان .

خير مطلق : وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل حال وعند كل أحد ، كما قال رسول الله ﷺ : «**الحياء كله خير**»[1] .

والثاني : خير وشر مقيدان : وهو أن يكون خيراً لواحد شراً لآخر ، كالمال : خيراً لزيد وشراً لعمر[2] .

والخير ورد في القرآن على ثمانية أوجه ، منها الخير بمعنى الإيمان كقوله تعالىٰ : ﴿**إن يعلم الله في قلوبكم خيراً**﴾[3] .

فالقلب الذي فيه خير مهما قلّ ؛ لا بد وأن ينفتح للإيمان لأن الشيء يميل إلى شاكلته ، فالفطرة التي لم تدنس ولم تنحرف هي الخير ، فإذا جاءها الإيمان أيقظ فيها أجهزة الاستقبال والتلقي والاستجابة لنور الله .

كل هذه الأمور مجتمعة تدل على : أن قلب صاحبها سليم خال من الدغل ، والشر ، والشرك ، والكفر ، والضلال ظاهره كباطنه ، وسرّه تنطق به جارحته .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان (٦١) .
(٢) المفردات ص (١٦٠) ، بصائر ذوي التمييز (٢/٥٧٢) .
(٣) الوجوه والنظائر ص (١٦٨) .

المبحث الثاني

القلب السليم

(السين واللام والميم ـ معظم بابه من الصحة والعافية ، فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى)[1] .

والسلامة : البراءة . يُقال سلم من الأمر سلامة : نجا ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه : آية ٤٧] أي من اتبع هدى الله سلم من عذابه وسخطه .

ورجل سليم : أي سالم ، والجمع سلماء ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : آية ٨٩] أي سليم من الكفر[2] .

كما قيل في معنى السليم : هو الذي لم يشرك بالله قط[3] .

وأيضاً قيل في معنى السليم : إنه المعافى[4] .

---

(١) مقاييس اللغة (٩١/٣) .

(٢) لسان العرب : (٣٣٧/٨) .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص (٣٣٨) أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .

(٤) الأضداد ص (٣٨) ، عبد الملك بن قريب الباهلي الأصمعي ، الأضداد =

ووردت هذه المادة كصفة من صفات القلب في موضعين من الذكر الحكيم .

الأول : في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : آية ٨٨ ، ٨٩] .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : الآيتان ٨٣ ، ٨٤] .

ومما ورد من أدعية رسول الله ﷺ قوله : **«أسألك قلباً سليماً»**[1] .

ونجد في معنى القلب السليم أقوالاً كثيرة منها :

أنه سلامة القلب من الشك في توحيد الله والبعث بعد الموت ، وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم من أئمة التفسير ، واختاره ابن جرير الطبري[2][3] .

= ص (١١٤) سهل بن محمد بن عثمان السجستاني ، نشره أوغست هفنر .

(١) سنن النسائي (٣/٥٤) في السهو ، باب : نوع آخر من الدعاء ، مسند أحمد (٤/١٢٥) ، سنن الترمذي رقم (٣٤٠٤) ، وفيه : كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه : **«اللَّهمَّ إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وحسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً»** وقال : في إسناده ضعف .

(٢) محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، المؤرخ والمفسر ، توفي ٣١٠ هـ ، طبقات السبكي (٢/١٣٥) .

(٣) جامع البيان (١٩/٨٧) ، تفسير القرطبي (٧/١١٤) .

ومدار هذا المعنى على الشرك ، أما الذنوب فلا يسلم منها أحد .

وقيل : صاحب القلب السليم هو الذي لم يلعن شيئاً قط[1] .

وأيضاً قيل : إنه قلب المؤمن لأن قلب المنافق مريض لأن الله قال عنهم ﴿**في قلوبهم مرض**﴾[2] وهو قول سعيد بن المسيب[3] .

كما قيل إنه القلب الخالص ، أو هو الخالي من البدعة المطمئن إلى السنة . وهناك أقوال ذكرها الإمام القرطبي وغيره في تفاسيرهم .

ولكن نبي الله إبراهيم عليه السلام يصرح أنه لا ينجو من عذاب الله إلَّا صاحب القلب السليم ، كما قال تعالىٰ عنه : ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : آية ٨٧ ـ ٨٩] .

والحق لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فلا بدّ أن يكون القلب السليم هو قلب كل مؤمن ، فهو بذلك أول درجات الإيمان ، بهذا القلب استنكر إبراهيم قومه على عبادة الأصنام واستبشع أفعالهم ، وبهذا القلب انتهت حيرته في بداية أمره واستقرت في معرفة الخالق جل جلاله ، فهو قلب الفطرة التي بدأت تصقل وتضيء بعد أن شعّ عليها نور الإيمان .

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٦٩) .

(٢) جامع البيان (٢٣/ ٦٩) .

(٣) سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، توفي ٩٤ هـ ، الأعلام (٣/١٠٢) .

وارتقى قلب إبراهيم عليه السلام ، وارتقى إبراهيم بقلبه الحي حتى استحق الخلة بعد النبوة .قال تعالى :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : آية ١٢٥] .

(فلا أحد أحسن من دينٍ منْ جمع بين الإخلاص للمعبود وهو إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه ، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله ، وهو مع هذا الإخلاص والاستسلام متبع لشريعة الله مائلاً عن الشرك إلى التوحيد)[1] .

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/١٧٨) .

المبحث الثالث

خشوع القلب

ولكن الحق تبارك وتعالىٰ يريد من العبد أن يرتقي إلى مرتبة أعلى من القلب السليم ، يريده أن يخشع لذكر الله وتهزه كلمات الله .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : آية ١٦] .

والشاهد في هذه الآية الكريمة : أن الموجَّه إليهم الخطاب هم مؤمنون ولكنهم لم تخشع قلوبهم بعد ، مما يدل على أن الخشوع هو الدرجة الأعلى التي تلي درجة القلب السليم ، والتي توصلنا إلى أنها أول درجات الإيمان وأدنى مراتب حياة القلوب .

فما هو الدافع لهذه القلوب أن ترتقي إلى مرتبة أعلى في دائرة الإيمان ؟ إنه الخشوع ، ولكن خشوع القلب ، فأحكام الله تكاليف قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : آية ٤٥] .

ومما صح من أدعية رسول الله ﷺ أنه كان يقول في دعائه :
«اللَّهمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع»(١) .

والخشوع في اللغة التطامن ، يُقال خشع إذا تطامن وطأطأ رأسه(٢) وكل ساكن خاضع خاشع .والتخشع **التذلل** ،يُقال : خشع سنام البعير إذا أفضى وذهب شحمه وتطأطأ شرفه(٣) .

فهو يدور حول اللين والسهولة والانخفاض والذل والسكون(٤) .

وقد ذكر سبحانه وتعالىٰ الخشوع في كتابه في سبعة عشر موضعاً ، وأثبت في آية سورة الحديد خشوع القلب ، فمن الممكن أن يكتسب العبد هذه المنزلة إذا أخلص النية لله ، وصغى لذكر الله حتى تمكن من قلبه (وأوصل أهل التفسير الذكر في القرآن إلى عشرين وجهاً ، منها : التوحيد والصلوات الخمس وصلاة الجمعة والقرآن والثناء على الله وغيرها)(٥) .

ولكن العلامة المميزة هي حب الصلاة والصبر على كل ما أتى من عند الله . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : آية ٤٥] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الذكر ، باب (١٨) ، حديث (٧٣) ، تسلسل (٢٧٢٢) .
(٢) مقاييس اللغة (١٨٢/٢) .
(٣) لسان العرب (٧٢/٨) ، تاج العروس (٣١٨/٥) .
(٤) مدارج السالكين (٥٥٨/١) ، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، ونزهة الأعين النواظر ص (٢٧٦) .
(٥) نزهة الأعين النواظر ص (٣٠١) .

فإنها سهلة خفيفة ؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها منشرحاً صدره ، لترقبه للثواب وخشيته من العقاب .

بخلاف من لم يكن كذلك ؛ فإنه لا داعي له يدعوه إليها ، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه .

والمادة وردت في القرآن الكريم على أربعة أوجه :

أحدها : **التواضع** .ومنه قوله تعالىٰ ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : آية ٤٥] يعني المتواضعين .

والثاني : **الخوف** .ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : آية ٩٠] .

الثالث : **سكون الجوارح** ، ورمي البصر إلى موضع السجود ،ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : آية ١ ـ ٢] .

الرابع : **الذل والتذلل** ،ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه : آية ١٠٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ الغاشية : آية ٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [القلم : آية ٤٣][1] .

وقال الراغب[2] : الخشوع : الضراعة ، وأكثر ما يستعمل

---

(١) إصلاح الوجوه والنظائر ص (١٥٨) ، نزهة الأعين النواظر ص (٢٧٦) .

(٢) الراغب : الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني ، أديب من الحكماء العلماء ، ت ٥٠٢ هـ ، الأعلام (٢/ ٢٥٥) .

الخشوع فيما يوجد على الجوارح[1] . والوجوه السابقة كلها قريبة من تعريف الراغب .

تعريف الخشوع في أقوال العلماء :

مدار الخشوع : تحقيق حقيقة الإيمان في القلب ؛ ليتجرد من التعلق بغير الله ، ويتجه حقيقة لمالك السموات والأرض الذي خاطبه ، فهو أعلم بحاله ومداخله ليخرجه من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان .

لهذا نجد تعريفات متعددة للعلماء في معنى الخشوع :

فالخشوع : فعل يرى فاعله أن من يخضع له فوقه وأنه أعظم منه ، ولا يكون إلاَّ مع خوف الخاشع من المخشوع له ، ولا يكون تكلفاً ، ولهذا يضاف إلى القلب فيقال : خشع قلبه[2] .

الثاني : الخشوع والخضوع والتواضع : بمعنى واحد وهو الانقياد للحق[3] .

الثالث : الخوف الدائم في القلب[4] .

الرابع : الاستسلام للحُكمين ، أي الحُكم الديني الشرعي فيكون معناه عدم معارضته برأي أو غيره ، والحكم القدري وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض[5] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص (١٤٨) .
(٢) الفروق اللغوية ص (٢٠٦) .
(٣) التعريفات ص (٩٨) .
(٤) المرجع السابق نفسه .
(٥) بصائر ذوي التمييز (٢/٥٤٢) .

الخامس : قيام القلب بين يد الرب بالخضوع والذل[1] .

السادس : خمود نيران الشهوة ، وسكون دخان الصدر ، وإشراق نور التعظيم في القلب[2] .

السابع : تذلل القلوب لعلام الغيوب[3] .

الثامن : الخشوع : خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالىٰ وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً وإيماناً به وبلقائه[4] .

الفرق بين الخشوع والخضوع :

ولكن تعريف الخشوع بالخضوع فيه تسامح ؛ إذ أن الخضوع ورد مرتين في الذكر الحكيم على غير سياق المدح ، فقال تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: آية ٣٢].

وقال تعالىٰ : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء : آية ٤] .

والخضوع هو التطامن والتطأطؤ ، ولا يقتضي أن يكون معه خوف ، ولهذا لا يجوز إضافته إلى القلب فيُقال خضع قلبه ، وقد يجوز أن يخضع الإنسان تكلفاً من غير أن يعتقد أن المخضوع له فوقه ، ولا يكون الخشوع كذلك[5] .

---

(١) مدارج السالكين (١/٥٥٨) .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/٨٣) .
(٥) الفروق اللغوية ص (٢٠٦) .

والخشـــوع محله القلب ، وثمـــرتـــه على الـجـــوارح ، وهي تظهره[1] .

وليس مقصوراً على القلب ؛ بل كـــل ما في الإنســان له حــالة خشـــوع ، كــالسمـــع والبصــر والمـــخ والعـظم والعصب والــوجــه والأصوات ، وكذلك الجماد كالأرض والجبل ، أوضــح ذلك القــرآن والسنة ، سواء كان ذلك في الدنيا أو عند البعث .

فعن خشوع الأصوات يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه : آية ١٠٨] .

وعن الأبصار قال تعــالىٰ : ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [القلم: آية ٤٣] ، ومثلها فى [المعارج : آية ٤٤] ، وقــال تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾ [النازعات : آية ٩] .

وعن الوجوه قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾ [الغاشية : آية ٢] .

وعن بقية الجوارح ورد في الحديث الصحيح عن علي بن أبي طــالب ـ رضي الله عنه ـ عن رســول الله ﷺ أنه كــان إذا ركع قــال : «**اللَّهمَّ لــك ركعت وبــك آمنت ولــك أسلمت ، خشــع لــك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي . .**» الحديث[2] .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٥٨) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب المسافرين ، باب (٢٦) حديث (٢٠١) ، وأخــرجه أبو داود ، في كتاب الصلاة (١١٩) .

وعن الجماد قال تعالىٰ : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر :آية ٢١] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت :آية ٣٩].

وسواء كان المقصود من الخشوع حسياً أو معنوياً ؛ فالمقصود التذلل والسكون مع الحق تبارك وتعالىٰ ، وعدم الفتور والتكاسل .

وفسّره الألوسي بأنه : (الانقياد التام لأوامر الله ونواهيه ، والعكوف على العمل بما فيها من الأحكام ، من غير توان ولا فتور)[1] .

مكانة الخشوع :

أوّل ما تفقد هذه الأُمة الخشوع ؛ فقد ورد في حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة**»[2] .

فالخشوع أول ما يرفع من القلوب ، تتلوه أعمال الجوارح ، كعقد انفرط فتتابع نظمه ، فبذهاب الخشوع تكون العبادة بغير روح .

وبذهاب الخشوع يذهب العلم ؛ ففي حديث أبي الدرداء قال : كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : «**هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء**»

---

(١) روح المعاني (٢٧/ ١٨٠) ، تفسير أبي السعود (٥/ ٢٧٧) .

(٢) المستدرك (٤/ ٤٦٩) كتاب الفتن والملاحم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي في التلخيص : تلخيص المستدرك ، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، بهامش المستدرك .

وفي الحديث : **«إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس ؟ الخشوع ، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً»**[1] .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وروى بعضهم هذا الحديث عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه ، عن عوف بن مالك ، عن النبي ﷺ .

ونلاحظ فيما سبق : أن رسوخ الإيمان وثبوت العبد على أوامر الله ؛ لا بد له من الصبر على الطاعة ، حتى يبدأ القلب في الخشوع درجة بعد أخرى ، فقد يخشع مرة تليها ثانية ، فتكرار هذه الحالة لا بد أن تصبح صفة من صفات القلب الملازمة له ؛ فيحترم أوامر الله ويعظمها بقلبه ، وتعظيم شعائر الله دليل على أن القلب ارتفع إلى مرتبة أعلى من الخشوع وهي التقوى .قال تعالى :﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج : آية ٣٢] .

---

(١) سنن الترمذي ، أبي عيسى محمد عيسى بن سورة المتوفى ٢٩٧ هـ ، كتاب العلم (٣٢/٥) ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض .

المبحث الرابع

تقـوى القلـوب

التقوى مكانة ومرتبة يرتقي إليها المؤمن ، يؤمر بهـا العبد حتى قبل دخوله الإسلام ، ويراد بها الحث على الطاعة وإفراد الله بالتوحيد كما هي دعوة الأنبياء . قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : آية ١٠٦] .

وكقـولـه تعـالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : آيـة ١٢٤] ولكن تقـوى القلوب وردت في القـرآن في موضعين :

الأول : في قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج : آية ٣٢] .

والثاني : في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات:آية ٣].

والواو والقاف واليـاء : كلمة واحـدة تدل على دفـع شيء عن شيء بغيره[١] .

---

(١) مقاييس اللغة (٦/١٣١) .

(والتقـوى : اسم من وقى ، يُقـال وقـاه الله : صـانـه وحفـظه وكلأه ، ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى)[1] .

(ووقاه الله السوء يقيه وقاية بالكسر أي حفظه)[2] .

(والتقـوى اعتماد المتقي مـا يحصل بـه الحيلولة بينـه وبين ما يكرهه) .

فالمتقي هو المحترز مما اتقاه[3] .

(والتقوى أكثر مدحة من الإيمـان[4] ؛ لأن الإيمان قـد يتخلله غيره ، والتقوى لا يتخللها غيرهـا ؛ ويقارب التقـوى الورع ؛ إلاَّ أن الفـرق بينهما : أن التقـوى أخذ عـدة والورع دفـع شبهة ، والتقـوى متحقق السبب والـورع مظنـون السبب ، والورع تجـاف بالنفس عن الانبساط فيما لا يؤمن عاقبته)[5] .

(ويسمى الخـوف تارة تقـوى والتقوى خـوفاً ؛ حسب تسميـة مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضي بمقتضاه)[6] .

أما في عـرف الشرع :

(فـالتقوى حفظ النفس عمـا يؤثم ، وذلـك بتـرك المحـظور ، ويتم ذلك بترك بعض المباحات)[7] في رأي البعض .

---

(١) لسان العرب (١٥/٤٠١) ، تاج العروس (١٠/٣٩٦) .
(٢) المصباح المنير ص (٦٦٩) .
(٣) نزهة الأعين النواظر ص (٢١٩) .
(٤) الفروق اللغوية ص (١٨٣) .
(٥) نزهة الأعين النواظر ص (٦٦٩) .
(٦) المفردات في غريب القرآن ص (٥٣٠) .
(٧) المفردات في غريب القرآن ص (٥٣١) .

(وقيل : العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله ، وترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله)[1] .

(وورد أنها الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته ، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك)[2] .

وأيضاً : (فهي عبارة عن كمال التوقي عما يضره في الآخرة)[3] .

التقوى في أقوال المفسرين :

وذكر أهل التفسير أن التقوى في القرآن على خمسة أوجه :

أحدها : التوحيد ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [النساء : آية ١٣١] .

الثاني : الإخلاص ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج : آية ٣٢] ، وقوله تعالىٰ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [الحجرات : آية ٣] .

الثالث : العبادة والطاعة ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل : آية ٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل : آية ٥٢] .

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١/٦١) ، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي .

(٢) التعريفات ص (٦٥) .

(٣) تفسير أبي السعود (١/٤٨) .

الرابع : **ترك المعصية** ،ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة : آية ١٨٩] أي اتركوا خلاف أمره .

الخامس : **الخشية** ،ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء : آية ١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : آية ١٠٦][1] .

وقد ذكر القاضي أبو السعود[2] في تفسيره أن للتقوى ثلاث مراتب :

الأولىٰ : التوقي عن العذاب المخلد بالتبرؤ عن الكفر ، وعليه قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح : آية ٢٦] .

الثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع ، وهو المعني بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ [الأعراف : آية ٩٦] .

الثالثة : أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عزّ وجلّ ، ويتبتل إليه بكليته ، وهي التقوى الحقيقية المأمور بها في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : آية ١٠٢][3] .

---

(١) نزهة الأعين النواظر ص (٢٢٠) ، بصائر ذوي التمييز (٢/ ٣٠٠) ، إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٩٤) .

(٢) أبو السعود : محمد بن محمد العمادي الحنفي ، الإمام المفسر ، ت ٩٨٢ هـ ، شذرات الذهب (٣٩٨/٨) .

(٣) تفسير أبي السعود (٤٨/١) .

وقد ذكر الله هذه المراتب في قوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة : آية ٩٣] .

فربْط التقوى الثالثة بالإحسان ـ وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ـ أمر قلبي ، والإحسان مرتبة أعلى من الإيمان(١) .

فأصحاب هذه المرتبة : ذكر الحق تبارك وتعالىٰ أنه يحبهم ، فهي خير الزاد وخير لباس يلبسه القلب .

بعض صفات المتقين :

فالقلب المتقي لا بد من صفات اكتسبها من أثر التقوى ظهرت على الجوارح ، والحق تبارك وتعالى ذكر في كتابه الكريم فقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ـ من هم المتقون ؟ .

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة : آية ١ ـ ٤] .

---

(١) التفسير الكبير (١٢/ ٨٤) الألوسي (٧/ ١٨) أبو السعود (٢/ ١١٨) وغرائب القرآن (١٧/ ٩٧) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : آية ١٣٣ ـ ١٣٥] .

وأيضاً في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : آية ٤٨ ـ ٤٩] .

وكما في قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : آية ٢٠١] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ [الأحزاب : آية ٣٢] .

فالتقوى يستطيع الإنسان أن يكتسبها ؛ لذا اقترنت بالصبر في أكثر من موضع في كتاب الله . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران : آية ١٢٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ ﴾ [آل عمران: آية ١٢٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : آية ٩٠] .

وهناك ترابط بين الصبر والتقوى والرحمة والأعمال الصالحة في غير موضع من كتاب الله وسنة رسوله ، فنتائج تقوى القلوب لا تحد بحد ، ولا بد لمن هو في هذه المكانة أن تسطع على قلبه أنوار رحمة الله ، والرحمة فعل الله في القلوب[1] .

وهي أثر من آثار التقوى ، يستفيد القلب منها اللين ، فبرحمة الله التي نزلها في قلوب عباده يلين القلب من أثر الخشية ، والخشية أثر من آثار المعرفة امتاز بها العلماء ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : آية ٢٨] .

فلا يصل القلب إلى مرتبة حتى يأتي بالتي قبلها ، ولا يرتفع من الأدنى إلى الأعلىٰ إلَّا من رحم ربك .

---

(١) سنفرد أفعال الله في القلوب بباب مستقل ومنه الرحمة .

المبحث الخامس

القلب اللين

ذكر الله اللين في كتابه في أربع مواضع :

الأول :في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : آية ٢٣] .

والثاني : قوله تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : آية ١٥٩] .

الثالث : في قصة موسى وهارون عندما أرسلهما الله إلى فرعون ، فقال تعالىٰ ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : آية ٤٤] .

والرابع : في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ [سبأ : آية ١٠] .

اللام والياء والنون كلمة واحدة «وهي اللين» : ضد الخشونة .

ويُقال : هو في ليان من عيش، أي نعمة، وفلان ملينة : أي لين الجانب[1] .

واللين يكون على وجهين : لين في الأجسام ؛ كلين الشمع والحديد وغيره .

ولين في المعاني : كلين الطبع ولين القول[2] .

والملاينة: المداهنة ، والألين : اللين[3] .

ولين القلب ضد الغلظة ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران : آية ١٥٩] .

وقد تجلّى لين القلب في موقف الصديق ـ رضي الله عنه ـ مع أسرى بدر عندما قال رسول الله ﷺ ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : يا رسول الله ؛ قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم ؛ وفي الحديث فقال رسول الله ﷺ : **«إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدّ قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ،وإنما مَثَلكَ يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال : من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم . .»** الحديث[4]

---

(١) مقاييس اللغة (٥/٢٢٥) غرائب القرآن ص (٤٥٧) لسان العرب (١٣/٣٩٤) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٤/ ٤٧٢) .

(٣) تاج العروس (٩/٣٣٨) .

(٤) مسند أحمد (١/٣٨٣) حياة الصحابة (٢/١٠٥) محمد يوسف الكاندهلوي ، والحديث إسناده صحيح . البداية : ابن كثير (٣/٢٩٨) .

وهذا مدح في حق عمر ـ رضي الله عنه ـ فهي شدة قلب في الحق .

وعلامة لين القلب اتباع هدي المصطفى ﷺ . ففي حديث أبي أُمامة رضي الله عنه قال : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال لي : «**يا أبا أُمامة ! إن من المؤمنين من يلين لي قلبه**»[1].

وقال الطبري في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : آية ٢٣] : يعني إلى العمل بما في كتاب الله والتصديق به[2] . ولكن إضافة إلى الاتباع ، فللقرآن وقع على القلب المتقي العالم فيؤثر فيه بالخشية واللين والوجل والاطمئنان .

كما أن بعض القلوب فطرت على اللين ، أو هي امتازت بعناية الرحمة التي وهبها الله ، فكان اللين سجية لها ، كحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : «**أتاكم أهل اليمن ؛ هم أرق أفئدة وألين قلوباً**»[3] .

فإذا كان القلب ليناً لا بدّ للفؤآد أن يرق ، فيتقد ويعي ما يصل إليه من الحق ، فيكسب خير الآخرة إضافة لكسبه خير الدنيا ؛ بالإلفة واجتماع الكلمة له ، بعد اجتماع القلب معه مع سكينة

---

(١) مسند أحمد (٥/٢٦٧) والحديث إسناده جيد ورجاله ثقات . الأحاديث الصحيحة للألباني (١٠٩٥) .

(٢) جامع البيان (٢٣/٢١١) .

(٣) صحيح البخاري (٥/١٢٢) ، كتاب المغازي باب (٣٤) باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن . وفي عمدة القاري (١٨/٣١) للإمام بدر الدين محمد بن محمود العيني المتوفى ٨٥٥ هـ .

واطمئنان ، وذاك نور على نور .

وهذه الأنوار لها في قلوب أهل العلم حالات أُخر ، فإذا ازداد علماً من أثر اتقاد القلب وصاحَبَهُ تقوى ؛ أدى إلى الإخبات .

المبحث السادس

القلب المخبت

الخبت ورد في القرآن الكريم في ثلاث مواضع :

الأول : في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [هود : آية ٢٣] .

والثاني : في قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج : آية ٣٤] .

والثالث : في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾ [الحج :آية ٥٤] .

وكان من دعاء رسول الله ﷺ فيما رواه عنه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : «**اللَّهمَّ اجعلني لك شاكراً ، لك ذاكراً ، لك راهباً ، لك مطواعاً ، إليك مخبتاً ـ أو منيباً . .**»الحديث[1] . إسناده حسن

(١) سنن أبي داود (٢/٨٤) حديث رقم (١٥١٠) ، عون المعبود ، شرح سنن أبي داود (٤/٣٧٦) رقم (١٤٩٦) .

وله شواهد . كنز العمال (٣٧٢٩) .

فما هو الخبت ؟ :

الخبت كلمة عربية محضة تطلق على ما اتسع من بطون الأرض ، وجمعه أخبات ، وخبوت .

وقال ابن الأعرابي : الخبت ما اطمأن من الأرض واتسع [١] .

وقيل : الخبت ما اطمأن من الأرض وغمض ، فإذا خرجت منه أفضيت إلى سعة .

وقيل : الخبت الوادي العميق الوطيء ، ممدود ، ينبت ضروب العضاة .

وقيل : الخبت الخفي المطمئن من الأرض ، فيه رمل [٢] .

قال الشاعر الجاهلي ضمرة بن ضمرة في قصيدة طويلة منها :

ولجندب سهل البلاد وعذبها   ولي الملاح وخبتهن المجدب [٣]

والخبت : ما انخفض من الأرض [٤] ، أو هو المطمئن من الأرض فيه رمل [٥] .

= سنن الترمذي كتاب الدعوات باب (١٠٣) ، حديث (٣٥٥١) ، (٥/٥٥٤) وقال : حديث حسن صحيح .

(١) لسان العرب (٢/٢٧) .

(٢) لسان العرب (٢/٢٧) ، تاج العروس (١/٥٤٠) .

(٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب (٢/٣٨) عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .

(٤) التفسير القيم ، للإمام ابن القيم ص (٣١٠) ، جمعه : محمد أويس الندوي ، تحقيق محمد حامد الفقي .

(٥) التفسير القيم (٢/٤٠) ، (١١/٥٢) .

فأصل الكلمة يدل على المكان المنخفض من الأرض[1] ، أو الاستواء من الخبت وهو الأرض المستوية الواسعة[2] .

وقد وردت في القرآن الكريم على وجهين :

الأول : أخبتوا يعني أخلصوا ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود : آية ٢٣] يعني أخلصوا ، ومثلها في [الحج : آية ٣٤] ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ يعني المخلصين .

الثاني : الإخبات : القبول ، ومنه قوله تعالىٰ في سورة [الحج : آية ٥٤] ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني فتقبل له صدورهم[3] .

ولكن الراغب الأصفهاني اعتبر الخبت بمعنى اللين والتواضع والخشوع وذكر الآيات الثلاث في باب واحد ، وكأن الوجه الثاني بمعنى الأول[4] وكذلك الفيروز أبادي في البصائر[5] وابن الأثير في النهاية[6] .

واختلف أهل التفسير في معنى الإخبات .

(فقال مجاهد : هو الطاعة .

وروي عن ابن عباس والضحاك : أنه التواضع والخضوع .

---

(١) مدارج السالكين (٣/٢) .
(٢) أحكام القرآن (٢١/٩) .
(٣) إصلاح الوجوه والنظائر ص (١٥٣) .
(٤) المفردات في غريب القرآن ص (١٤١) .
(٥) بصائر ذوي التمييز (٥٢١/٢) .
(٦) النهاية في غريب الحديث (٤/٢) .

كما روي عن قتادة ومقاتل[1] أنه الإخلاص)[2] .

وجميع هذه الأقوال تدور على معنى السكون إلى الله وتتضمن معنى الطمأنينة ، وهو أول مراتبها . فتقوى القلوب تؤدّي إلى العمل الصالح ، فيلين القلب ، ويثمر الإخبات الذي يكون حالة من حالات القلب الحي ، ثم يصبح صفة من صفاته ، فهو صفة العلماء العاملين الصابرين على ما أصابهم مستسلمين للطاعة بعدم الاعتراض على قضاء الله ، وعبادته بتفان وانقياد والإنفاق في مرضاته ، فهو تحول مطلق وتفان تام للحق تبارك وتعالى .

وقال ابن القيم : (اعلم أنه متى استقرت قدم العبد في منزلة الإخبات وتمكن فيها ؛ ارتفعت همّته وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم ، فلا يفرح بمدح الناس ولا يحزن لذمهم ، هذا وصف من خرج عن حظ نفسه وتأهل للفناء في عبودية ربه ، وصار قلبه مطرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات ، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه)[3] .

وقال أيضاً :(النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عزّ وجلّ ، وكل سائر لا طريق له إلاّ على ذلك الجبل فلا بد أن ينتهي إليه ، ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سهل عليه ، وإنه ليسير على من يسّره الله)[4] .

---

(١) مقاتل : مقاتل بن سليمان الأزدي ، مفسر ، توفي ١٥٠ هـ ، الأعلام (٢٨١/٧) .

(٢) جامع البيان (٢٤/٢ ، ١٦١/١٧) الدر المنثور (٤١٤/٤ ، ٤٩/٦) الجامع لأحكام القرآن (٢١/٩) ، روح المعاني (١٥٤/١٧) .

(٣) مدارج السالكين (٦/٢) .

(٤) مدارج السالكين (٨/٢) .

ولكن صفاء القلب من دون الذنوب العظام ، والتفكر في قدرة الله ، والتفاني في طاعته بعمار الدنيا والآخرة ، وجعل الـدنيا طـريق الآخـرة بإيمـان كامـل ، ويقين صادق ، ومـداومـة على الـطاعـة في الحدود المشروعة ، سينقله من مرتبـة الإخبات إلى مـرتبة الـوجل ، لأن المخبت إذا ذكر الله وجل قلبه .

المبحث السابع

القلب الوجل أو وجل القلب

يقول الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج : آية ٣٤ - ٣٥] .

وذكر الله سبحانه وتعالىٰ «الوجل» في كتابه الكريم في أربعة مواضع في ثلاث منها أثبت الوجل للقلب :

فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال : آية ٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج : آية ٣٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمن : آية ٦٠] .

وقال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [٥١ - ٥٣] .

وفي حديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال : صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه ، فوعظنا موعظة بليغة ذَرَفتْ منها العيون ، ووجلت منها القلوب . . الحديث[١] .

الوجل في كلام العرب :

إذا عدنا إلى معاجم اللغة لوجدنا أن الوجل هو : الفزع والخوف . يُقال : وجل وجلاً[٢] أو هو استشعار الخوف[٣] .

واستشهد بقول الشاعر :

لعمرك ماأدري وإني لأوْجَل   على أيّنا تعدو المنية أوّل

وقال البغدادي[٤] في الخزانة : هو الخوف[٥] .

(ولكن الخوف هو : توقع الضرر المشكوك في وقوعه ، ومن

---

(١) سنن أبي داود رقم (٤٦٠٧) باب لزوم السنة ، سليمان بن الأشعث السجستاني، ت ٢٧٥ هـ ، تعليق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، والترمذي في العلم رقم (٢٦٧٨) باب (١٦) وإسناده صحيح . وأخرجه أحمد في المسند (٤/١٢٦ ، ١٢٧) .

(٢) لسان العرب (١١/٧٢٢) القاموس المحيط ص (١٣٧٩) تاج العروس (٨/١٥٣) .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص (٥١٣) .

(٤) البغدادي : عبد القادر بن عمر البغدادي ، علامة بالأدب والتاريخ ، ت ١٠٩٣ هـ ، الأعلام (٤/٤١) .

(٥) خزانة الأدب (٨/٢٨٩) ، (١/٦١) .

يتيقن الضرر لم يكن خائفاً له . وكذلك الرجاء لا يكون إلاَّ مع الشّك ، ومن تيقن النفع لم يكن راجياً له)[1] فعلى هذا يكون الخوف خلاف الرجاء .

(أما الوجل خلاف الطمأنينة ، وجل الرجل يوجل وجلاً إذا قلق ولم يطمئن . ويُقال : أنا من هذا على وجل ومن ذلك على طمأنينة ، ولا يُقال : على خوف في هذا الموضع .

وفي القرآن الكريم قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج : آية ٣٥] .

أي إذا ذكرت عظمة الله وقدرته لم تطمئن قلوبهم إلى ما قدموه من الطاعة ، وظنوا أنهم مقصرون ، فاضطربوا من ذلك وقلقوا ، فليس الوجل من الخوف في شيء ، وخاف متعد ، ووجل غير متعد وصيغتاهما مختلفتان أيضاً ، وذلك يدل على فرق بينهما في المعنى)[2] .

فالوجل مقترن بالعمل الصالح وهو البذل والعطاء ، وقد يكون من الإجلال والمهابة لعظمة الله وسلطانه ، أو لوعده ووعيده ، ومحاسبته لخلقه وإدانتهم[3] .

وقد يقول المؤمن في تهجده «الله أكبر» مستحضراً لمعنى كبرياء الله فينتفض ويقشعر جلده ، ولا يوجد الوجل في كتاب الله عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء ، والوجل يكتسبه المؤمن

---

(١) الفروقات اللغوية ص (١٩٩) .
(٢) الفروقات اللغوية ص (٢٠٢) .
(٣) تفسير المنار (٩/٥٨٩) .

بزيادة تلاوة كتاب الله واستشعار مكانة الله في قلبه . بخلاف الخوف فإنه أمر نفسي . قال تعالىٰ : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه : آية ٦٧ ـ ٦٨] وهو عام في حق الله ومن خلقه .

فوجل القلب مكانة عالية (روي أن الحسن سأله رجل وقال : أمؤمن أنت ؟ فقال : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فأنا مؤمن . وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا)[1] .

والعبد الحي إذا ذكر العقاب لا يأمن من الوقوع في المعاصي ، فهو في حالة وجل ، ويوضح ذلك أن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : آية ٦٠] .

«قالت عائشة : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا . يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[2] .

فإذا استصغر العبد عبادته ، واستقل كُلَّ طاعة بجانب آلاء الله ونعمائه ، إضافة إلى استشعار جلال الله وعظمته وهيبته : تمكن من

---

(١) التفسير الكبير (١٥/١٢٢) .

(٢) سنن الترمذي (٥/٣٢٧) ، كتاب التفسير ، باب : ومن سورة المؤمنين ، حديث رقم (٣١٧٥) . وله شواهد .

قلبه ، فأشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقـه ، فازداد مسـارعة في الخيـرات بسبب يقظة القلب الـوجـل ، وهـو أمـر في حـدود طـاقـة الإنسان واستطاعتـه ، وهو عـلامة من عـلامات تيقظ العبـد يرى أنـه مقصـر في جانب الله (لأن الـوجل هـو بذكـر العقاب)[1] فتكثـر منـه الشفقة ، فيكثر من التوبة والاستغفار والتأسف على ما حصل منـه ، وهذه الأفعال ترفعه إلى درجة الإنابة .

---

(١) التفسير الكبير (١٩/ ٤٩) .

المبحث الثامن

القلب المنيب

إنـابة القلب وردت في موضع واحد في قوله تعالىٰ:﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق : آية ٣١ ـ ٣٣] .

والإنـابة رجـوع وتسليم لله تعالىٰ ، ولكنهـا قد تكـون منسوبـة للذات الإنسانية ، والإنابة حال لها كما في مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [الـروم: آية ٣٣] وهذه لا ترفـع العبد عن مرتبته بل ربما أوصلته إلى الضلال ، إنما الإنابـة إذا وقرت في القلب رفعته منزلة أعلىٰ اتصف بها أنبياء الله عليهم السلام .

والإنابة كلمة واحدة تدل على اعتياد مكان ورجوع إليه[١] .

وانتاب الرجـل القوم انتيـاباً إذا قصـدهم وأتاهم مـرة أُخرى ، وأناب فلان إلى الله أقبل وتاب ورجع إلى الطاعة[٢] .

---

(١) مقاييس اللغة (٥/٣٦٧) .

(٢) لسان العرب (١/٧٧٥) ، تاج العروس (١/٤٩٦) .

والإنابة الرجوع إلى الطاعة ، فلا يُقال لمن رجع إلى المعصية أنه أناب ، والمنيب اسم مدح كالمؤمن والمتقي[1] .

والإنابة الدعاء ، وكأن معناها : عليه توكلت وله أدعو[2] .

والملاحظ من المعنى اللغوي أن المادة تدور حول الرجوع ومعنى القصد ، والمعنى الاصطلاحي في القرآن هو الرجوع إلى الله والتوبة إليه . ولعل أبو هلال العسكري منع وصف العائد إلى المعصية بالإنابة لأنها وردت في القرآن مقصورة على الرجوع إلى الله .

وصف الحق بها أبا الأنبياء فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود :آية ٧٥] .

والأوّاه كثير التأسف والتأوه على ما وقع فيه كثير من الناس في الذنوب ، وهي صفة تدل على الشفقة عند من يشاهد الشدائد على الغير ، فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله تعالىٰ في إزالة العذاب عنهم[3] ، فمن كان لا يرضىٰ بوقوع غيره في الشدائد فمن باب أولى أنه لا يرضى بوقوع نفسه فيها ، ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلاَّ بالتوبة ، فوجب فيمن هذا شأنه أن يكون منيباً .

والمنيب : الراجع إلى الله تعالىٰ[4] ، وإبراهيم كان راجعاً

---

(١) الفروق اللغوية ص (٢٥٠) ، تفسير القرطبي (٥/٧٣) .
(٢) فتح القدير (٢/٥١٩) ، محمد بن علي الشوكاني .
(٣) روح المعاني (١٢/١٠٤) .
(٤) فتح القدير (٢/٥١٢) .

إلى الله تعالىٰ في أموره كلها[1] .

وكما ورد على لسان شعيب في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : آية ٨٨] أي (أرجع إلى الله فيما أنا بصدده)[2] .

فإذا توكل العبد على الله واستسلم له ؛ تأكد له معرفة المعاد ، فيعلم علم يقين أن لا مرجع للخلق إلاَّ إلى الله تعالىٰ .

فصاحب هذه الحالة فوّض جميع أُموره إلى ما يختاره الله له من قضائه وقدره وعلم أن إليه الرجوع في الآخرة .

كما أنه امتاز بالتفكر في آيات الله والتذكر أنها دلالة من دلالات الخالق جلت عظمته ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر : آية ١٣] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: آية ٧ ـ ٨] .

وامتاز بالاستغفار وكثرة الصلاة إذا انتابه أمر وظن أنه ابتلي فلم يستطع ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : آية ٢٤] ، ثم يقول تعالىٰ : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ ، فكأن الحق تبارك وتعالىٰ وعد من أذنب واستغفر بقلب منيب ؛ فجزاؤه القربة بعد المغفرة

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٧٣) .

(٢) روح المعاني (١٢/١٢١) .

والوعد بـالجنة ، ووصفهم تبـارك وتعالىٰ بـأنهم أولو الألبـاب ، فهم يسيرون بهدى من الله ، ونور الإيمان بين جوانحهم .

كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : آية ١٧ - ١٨] .

فـالإنابـة إلى الله تعالىٰ هي كثـرة الرجـوع إليه عـزّ وجلّ بعـد الـذنوب ، أو بعـد الغفلة ، فهي من صفات القلوب الحيـة العـامـرة بـالإيمان ، بـل هي درجة عليـا من درجات الإيمـان . وكـأن الحلم والأنـاة وكثرة التـأوه ؛ مظهـر خلقي سلوكي لدافـع قلبي باطني عنـد المؤمن هو الإنابة .

وقد تكون حالة لازمة لكل مؤمن قلبه عامـر بالإيمـان ، فيرتقي بها إلى مكانة عليا في مـراتب الإيمان ، وتـلازمه هـذه الحالـة حتى تكون صفة من صفـات القلب ، فيسكن القلب بها إلى الحق وقـول الحق ، فترفعه إلى مرتبة الاطمئنان .

المبحث التاسع

القلب المطمئن

قال تعالىٰ : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد : آية ٢٧ ـ ٢٨] فبين الإنابة والطمأنينة صلة وثيقة .

قال ابن فارس : الطاء والميم والنون أُصيل بزيادة همزة ، يُقال : اطمأن المكان يطمئن طمأنينة . وطامنت منه : سكّنت[١] .

يُقال : اطمأن إلى كذا اطمئناناً وطمأنينة بالضم : سكن إليه ووثق به ، فهو مطمئن ، والنفس المطمئنة التي اطمأنت بالإيمان[٢] .

والمادة موضوعة للسكون بعد الانزعاج[٣] .

(والفرق بين الطمأنينة والسكينة أن كل منهما تستلزم

(١) مقاييس اللغة (٣/٤٢٢) ، لسان العرب (١٣/٢٦٨) .
(٢) تاج العروس (٩/٢٧٠) ، المغرب في ترتيب المعرب ص (٢٩٤) الإمام ناصر بن عبد السيد المطرزي، ت ٦١٦ هـ .
(٣) بصائر ذوي التمييز (٢/١٦٥) ، المفردات ص (٣٠٧) .

الأخرى ، لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من العكس ، ثم إن الطمأنينة أعم من السكينة وهي على درجات : طمأنينة القلب بذكر الله ، وهي طمأنينة الخائف إلى الرجاء ، والضجر إلى الحكم ، والمبتلى إلى المثوبة .

والطمأنينة سكون أمن فيه استراحة أنس ، والسكينة : صولة تورث خمود الهيبة ، والسكينة تكون حيناً بعد حين ، والطمأنينة لا تفارق صاحبها ، وكأنها نهاية السكينة)[1] .

وقد ورد الاطمئنان في القرآن على ثلاثة أوجه :

الأول : بمعنى السكون والقرار .

قال تعالىٰ :﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : آية ٢٦٠][2] يعني ليسكن قلبي إذا نظرت إليه .

وكقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ [المائدة : آية ١١٣] يعني تسكن قلوبنا إذا رأينا المائدة .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد : آية ٢٨] أي تسكن قلوبهم ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : آية ٢٨] .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ [آل عمران : آية ١٢٦] يعني تسكن ، نظيرها في سورة الأنفال يوم بدر قوله تعالىٰ ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال :

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/٥١٧) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٢/١٦٥) .

آية ١٠][1] .

الثاني : بمعنى الميل والرضا .

كقوله تعالىٰ : ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس : آية ٧] .

وكقوله تعالىٰ :﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:آية١٠٦] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الحج : آية ١١] .

وأيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : آية ٢٧] .

الثالث : بمعنى الإقامة التي هي ضد السفر .

ومن هذا الوجه قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [النساء : آية ١٠٣] أي إذا أقمتم فأتموا الصلاة .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ [الإسراء : آية ٩٥] أي مقيمين[2] .

والقلب المطمئن هو الذي يستكين لكلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : آية ٢٨] .

---

(١) الوجوه والنظائر ص (٢٩٨) .

(٢) نفس المصدرين السابقين .

والاطمئنان أتى بصيغة المضارع لإفادة دوامه وتجدده[1] ، فكلما سمع كلام الله خشع وسكن .

كما أن الطمأنينة ترد على صاحب القلب الحي عند اشتغاله بالطاعات ؛ ليقينه في صدق وعد الله ، وأن محمداً ﷺ صدق في كل ما أخذ عنه ، وهذه صفة الصفوة الطاهرة ، فهي ملكة ينميها العبد حتى لا تفارقه .

يقول الفخر الرازي[2] : إن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرف منها ، لأنه لا سعادة في عالم الأجسام إلاَّ وفوقها مرتبة أخرى في اللذة والغبطة ، أما إذا انتهى القلب والعقل إلى الاستسعاد بالمعارف الإلٰهية والأضواء الصمدية ، بقي واستقر فلم يقدر على الانتقال منه البتة ، لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منها وأكمل ، فلهذا قال تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[3] .

وفي الآية إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب تفقه وأفئدتهم هواء ، حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالىٰ ، ولم يعدّوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها[4] .

وسبب الطمأنينة (نور يفيضه الله تعالى على قلب المؤمن بسبب ذكره ، فيذهب ما فيها من القلق والوحشة)[5] .

---

(١) الألوسي (١٣/١٤٩) ، تفسير أبي السعود (٣/٢٢٢) .

(٢) الفخر الرازي : محمد بن عمر بن الحسن التيمي أبو عبد الله ، الإمام المفسر ، ت ٦٠٦ هـ ، الأعلام (٦/٣١٣) .

(٣) التفسير الكبير (١٩/٥٠) .

(٤) أبو السعود (٣/٢٢٢) ، روح المعاني (١٣/١٤٩) .

(٥) روح المعاني (١٣/١٥٠) .

فذكر الله تعالىٰ أفضل الأعمال الصالحة ، وخير الذكر القـرآن الكـريم ، ثم مـا ورد عن رسـول الله ﷺ بسنـد صحيـح من تسبيـح وتهليل ودعاء وتنفل بأنواع العبادات المشروعة ، يـرتقي بها الإنسـان إلى درجات القلب ومراتبه المتفاوتة .

ومهمـا بلغ العبد من درجـات الكمال فـلا بد لـه من لحـظات يشعر فيها بالتقصير في جانب الحق تبارك وتعالىٰ ، وخاصة من ازداد تعظيم الجلال في قلبه ، ورسول الله ﷺ وهـو الذي بلغ السمـاوات العلى وحاز على أعلى مراتب الـطمأنينـة ، تعتريـه حالـة اختص بها تزيده قرباً بزيادة استغفاره ، وهي حالة الغين .

المبحث العاشر

الغين على القلب

أخرج الإمام مسلم وأبو دواد عن الأغر المزني ، وكانت له صحبة ، أن رسول الله ﷺ قال : «**إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرّة**»[1] .

والغين : قريب من الغيم ، والغيم : كلمة تدل على ستر شيء لشيء . يُقال : غامت السماء ، والغيم : العطش وحرارة الجوف ، لأنه شيء يغشى القلب ، ومثل ذلك الغين فيقال : غين على قلبه ؛ كأن شيئاً غشيه ، غطى عليه وألبس[2] .

وهذه المادة لم ترد في القرآن الكريم ، إنما وردت في السنة مرة واحدة ، حالة تغشى قلب المصطفى ﷺ فيستغفر الله .

وسرد الامام النووي أقوال العلماء فقال :

---

(١) صحيح مسلم كتاب الذكر ، باب استحباب الاستغفار ، عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/٣٧٩) ، كتاب الوتر ، باب في الاستغفار ، حديث رقم (١٥٠١) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/٤٠٦ ، ٤٠٧) ، لسان العرب (١٣/٣١٦) ، النهاية (٣/٤٠٣) .

١ ـ المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه ، فإذا فتر عنه أو غفل عدّ ذلك ذنباً واستغفر منه .

٢ ـ وقيل هو همّه بسبب أُمته ، وما اطلع عليه من أحوالها بعده ؛ فيستغفر لهم .

٣ ـ وقيل سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أُمته وأُمورهم ، ومحاربة العدو ومداراته ، وتأليف المؤلفة ونحو ذلك ، فيشتغل بذلك من عظيم مقامه ، فيراه ذنباً بالنسبة إلى عظيم منزلته .

٤ ـ وقيل : يحتمل أن الغين هو السكينة التي تغشى قلبه ، ويكون استغفاره إظهاراً للعبودية وملازمة الخشوع[1] .

وذكر العظيم أبادي صاحب «عون المعبود» بعض أقوال للعلماء في هذا الشأن لا تخرج عما ذكره الإمام النووي . وهذه حالة ترد على رسول الله ﷺ تدعوه إلى الاستغفار ، وقدره أعلى من أن يخوض فيه مثلي أو يستنبط معناه ، ولو وردت في غيره ﷺ لأدليت بدلوي .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٩/٢٤) .

المبحث الحادي عشر

توضيح مكان القلب المعنوي من الانسان

ومما مرّ ؛ يتضح أن القلب هو أشرف ما في الإنسان وأرفعه ، فليس هو مضخة فقط تضخ الدم ، إنما هناك لطيفة رحمانية هي حقيقة الإنسان ، لها بهذا القلب الحي تعلق وثيق ، ولا نقول هناك قلبان للإنسان ، إنما هو قلب واحد قال تعالىٰ : ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب : آية ٤] ولكن هناك ما هو منظور لنا بالمشاهدة ، وهناك ما هو معلوم لنا بعلم الله تعالىٰ الذي أنزله على رسوله ﷺ .

والدليل على أن القلب المعنوي في باطن القلب الحسي أو هو ، ما ورد في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك «**أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأَمَهُ ثم أعاده في مكانه**»[1] . وكان يُرى أثر المخيط في

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ . انظر شرح النووي (٢/٢١٦) .

صدره ﷺ .

فالإنسان ليس مجرد لحم ودم ودورة دموية . إنما هو مخلوق خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل له هذا القلب الصنوبري سبباً من أسباب الحياة ، ومركزاً للفؤاد واللب . ومن جوامع الكلم قوله ﷺ : «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهي القلب**»[1] .

وصلاح الجسد يراه المادي بالسلامة من الآفات الظاهرة . ويحمله المؤمن على السلامة من الآفات الظاهرة والباطنة : لورود أحاديث كثيرة تحثنا على صلاحه والعناية به ، لأنه وعاء الإيمان والتصديق ، ومنه يشع نور التوحيد وتظهر آثاره في عيون المؤمنين ووجوههم .

بصلاح هذه المضغة غمر الإيمان قلوب صحابة رسول الله ﷺ فكانوا سادة الدنيا ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

عندما كان هذا القلب مليئاً بالإيمان ؛ كانت آثاره تظهر على الجوارح حباً في الله وتفانياً فيه ، يحبون الموت كما يحب غيرهم الحياة ، فوهبهم الله عز الدنيا والآخرة ؛ لأنهم تدرجوا في دائرة الإيمان ، وتحرّروا من عبودية الأرض ، وانتقلوا إلى عبودية الله وحده لا شريك له ، هذا التدرج هو حقيقة القلب الذي به يرتقي الإنسان المؤمن ، أما غير المؤمن فليس له في هذه المراحل نصيب .

فمتى دخل الإيمان القلوب غمرها بنوره وزادها القرآن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب (٣٩) ، والترمذي وغيره .

صقلاً ، فتبدأ المرحلة الأولى بسلامة القلب وخلوّه من براثن الشرك والضلال ، يعتلي بعدها إلى مرتبة الخشوع فتسكن نيران الشهوة ويشرق نور التعظيم في القلب .

تليها الثالثة بالتقوى ، وفيها يصون العبد نفسه عما يؤثم ، فيعمل بطاعة الله رجاء رحمته ، فهي توحيد وعبادة وخشية فيتبتل إلى الله بكلّيته ، فيجد للعبادة راحة ولذة فيلين قلبه في الله ، وفي الحق لا يخشى لومة لائم ، يتبع هدي المصطفىٰ براحة نفس ولين الجانب ، تعقبه مرتبة الإخبات فيكون فيها العبد مستسلماً للطاعة غير معترض على قضاء الله بأدنى شك ، فلا تؤثر فيه نزعات الهوى وميلات الشيطان ، فيشعر قلبه بحلاوة الإيمان ، ويرغب في زيادته ، ويخشى على أعماله من النقصان ، فتثمر عنده حالة الوجل ، فيزداد من الطاعة لشعوره بالتقصير ، فيقدم من الطاعات الكثير تتخلّلها التوبة والاستغفار والتأسف على ما حصل منه ، وكلما رأى ميلاً أو فتنة دأب على التوبة وعاد إلى الطاعة حتى يكون من المنيبين إلى الحق ، وتكون الإنابة صفة من صفات قلبه ، فيكثر من التفكر في آيات الله ويستشعر بنعمه عليه ، فهي صفات القلب العاقل الذي دأبه الخوف والرجاء حتى يتصف بالطمأنينة ، فلا يكون للفجور فيه مدخل وليس للشيطان عليه مسلك ، وقد كان صحابة رسول الله ﷺ في هذه المكانة ، والمصطفى ﷺ في أعلى الكمال .

فهذه المراتب هي من اختيار القلب باختيار العبد ، فهي أفعاله المنسوبة إليه ، قد يقف عند أُوْلاها أو يستمر إلى أعلاها ، ولكن هذه اللطيفة الربانية للحق تبارك وتعالىٰ أفعال فيها .

الفصل الثالث

أفعال اللّه في القلوب

- المبحث الأول : طهارة القلب .
- المبحث الثاني : تزيين الايمان في قلب العبد وكتبه .
- المبحث الثالث : القلب المهتد .
- المبحث الرابع : القلب محل الرأفة والرحمة .
- المبحث الخامس : تأليف اللّه للقلوب .
- المبحث السادس : السكينة .
- المبحث السابع : ربط القلوب .
- المبحث الثامن : امتحان اللّه للقلوب وتمحيصها .

المبحث الأول

طهارة القلب

إذا أراد الله بعبده خيراً طهر قلبه من رجس الكفر وخبث الضلالة ، (والطهر نقيض النجاسة)[1] .

والتطهر (الكف عن الإثم وما لا يجمل)[2] .

وقيل : الطهر : النقاء من الدنس والنجس[3] .

والطهارة في الأصل : الوضاءة والنظافة[4] .

وقد ارتبطت الطهارة بالقلب في موضعين من الذكر الحكيم :

الأول : في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [المائدة : آية ٤١] .

---

(١) لسان العرب (٥٠٦/٤) .

(٢) تاج العروس (٣٦٣/٣) .

(٣) المصباح المنير ص (٣٧٩) .

(٤) نزهة الأعين النواظر ص (٤١٩) .

والثاني : في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب : آية ٥٣] .

والمراد في الآية الثانية الطهارة من الريبة والدنس(١) .

وآية المائدة تدل على أن الله لا يريد أن يطهر قلب الكافر ، وعلى أن الضلال بمشيئة الله عزّ وجلّ(٢) .

ويفهم منها : أن من أراد الله هدايته للإسلام ؛ طهَّر قلبه من دنس الشرك ، فإذا طهر القلب انشرح الصدر للإسلام وتمكن منه ، وارتقى العبد إلى مرتبة الإيمان بتحبيب الله له وتزيينه في قلبه .

---

(١) المفردات ص (٣٠٧) ، بصائر ذوي التمييز (٣/٥٢٨) ، الوجوه والنظائر ص (٣٠٠) .
(٢) تفسير القرطبي (٦/١٨٢) ، روح المعاني (٦/١٣٩) .

المبحث الثاني

تزيين الايمان في قلب العبد وكتبه

قال تعالىٰ : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات : آية ٧] .

قال ابن كثير : أي حببه إلى نفوسكم ، وحسّنه في قلوبكم[١] .

والزين : خلاف الشين ، يُقال : تزيّنت الأرض بالنبات : أي حسنت وبهجت[٢] .

والزينة بالقول المجمل ثلاث : زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة ، وزينة بدنية كالقوة وطول القامة ، وزينة خارجية كالمال والجاه .

وقوله تعالىٰ : ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فهو من الزينة النفسية[٣] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢١٠) .

(٢) لسان العرب (١٣/ ٢٠٢) ، والمصباح المنير ص (٢٦١) .

(٣) المفردات ص (٢١٩) .

(وتزيين الله للأشياء بإبداعها مزينة وإيجادها كذلك ، وتزيين الناس للشيء بتزويقهم أو بقولهم)[1] .

فإذا زين الله الإيمان في قلب العبد ؛ كانت عبدته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم ، فتكون العبادة والتكاليف عنده أكمل ، فالإيمان يزداد في قلبه حسناً .

قال الرازي : (ليس إدراك الإيمان بالاجتهاد ، بل الله بيّن البرهان وزيّن الإيمان حتى حصل اليقين ، وبعد حصول اليقين لا يجوز التوقف)[2] .

لهذا نجد السلف الصالح استمر في ترقي درجات الكمال بزينة الإيمان في القلوب .

كتب الايمان في القلب :

وبعد التزيين تأتي مرحلة التقرير أو التثبيت التي قال الحق تبارك وتعالىٰ عنها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [المجادلة : آية ٢٢] .

والكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد يدل على جمع شيء إلى شيء ، من ذلك الكتاب والكتابة[3] .

والكتاب : الفرض والحكم والقدر[4] .

وقال ابن كثير في تفسير الآية : (أي كتب له السعادة وقررها

---

(١) المفردات ص (٢١٨) .

(٢) التفسير الكبير (٢٨/١٢٣) .

(٣) معجم مقاييس اللغة (٥/١٥٨) .

(٤) لسان العرب (١/٦٩٩) ، تاج العروس (١/٤٤٦) .

في قلبه ، وزيّن الإيمان في بصيرته)[1] .

وقال الطبري : (كتب في قلوبهم الإيمان : أي قضى لقلوبهم الإيمان فـ [في] بمعنى اللام)[2] .

وذكر الألوسي في قوله ﴿**كتب في قلوبهم الإيمان**﴾ : (أي أثبته الله تعالىٰ فيها ، ولما كان الشيء يراد أولاً ثم يُقال ثم يكتب ؛ عبّر عن المبدأ بالمنتهى للتأكيد والمبالغة)[3] .

فمن في قلبه الإيمان ؛ لا يوادّ من حاد الله ورسوله ولو كان أباً أو ابناً أو أخاً أو عشيرة . قال تعالىٰ : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة : آية ٢٢] .

فمتى أحب العبد الإيمان وثبت في قلبه ؛ هدى الله قلبه إلى طريق الحق دوماً وأبداً . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : آية ١١] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٢٩) .

(٢) جامع البيان (٢٨/ ٢٧) .

(٣) روح المعاني (٢٨/ ٣٦) ، التفسير الكبير (٢٩/ ٢٧٧) .

المبحث الثالث

القلب المهتد

والهاء والدال والحرف المعتل أصلان :

أحدهما التقدم للإرشاد ، **والآخر** بِعثة لَطَف ـ واللَّطف ، بالتحريك : التحفة والهدية ، وكلمة بعثة : هي المرة من البعث ـ .

فالأول قولهم : هديته الطريق هداية ، أي تقدمته لأرشده ، وكل متقدم لذلك هاد ، والأصل الآخر الهدية : ما أهديت من لطف إلى ذي مودة[1] .

والهدى : خلاف الضلالة ، وهي الرشاد والدلالة (بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب)[2] .

والهدى : الطاعة والورع[3] .

---

(١) مقاييس اللغة (٦/٤٢) ، والنهاية في غريب الحديث (٥/٢٥٣) ، نزهة الأعين النواظر ص (٦٢٥) .

(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٦٢٥) ، لسان العرب (١٥/٣٥٣) تاج العروس (١٠/٤٠٦) النهاية في غريب الحديث (٥/٢٥٣) .

(٣) لسان العرب (١٥/٣٥٥) .

والهدي : السيرة والهيئة والطريقة[1] .

والفرق بين الهداية والإرشاد : أن الإرشاد إلى الشيء هو الطريق إليه والتبيين له ، والهداية هي التمكن من الوصول إليه[2] .

والهداية : الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب . وقد يقال : هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب[3] .

وهداية الله للإنسان على أربعة أوجه :

الأول : الهداية العامة :

(وهي الهداية التي عم بجنسها كل مكلف : من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله)[4] كما في قوله تعالى : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : آية ٥٠] . أي أعطى كل شيء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه .

وهذه الهداية إما تسخير وإما تعليم ، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[5] [النحل : آية ٦٨] .

الثاني : هداية البيان والدلالة :

ومعناها : التعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة

---

(١) النهاية لابن الأثير (٢٥٣/٥) .

(٢) الفروق اللغوية ص (١٧٢) .

(٣) التعريفات ص (٢٥٦) .

(٤) المفردات في غريب القرآن ص (٥٣٨) .

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤٧٨/٤) .

والهلاك ، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام ، فإنها سبب وشرط لا موجب[1] .

كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : آية ٣] .

الثالث : هداية التوفيق والإلهام :

وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها ، وهي المذكورة في قوله تعالىٰ : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر : آية ٨] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : آية ٥٦][2] .

الرابع : الهداية في الآخرة :

وهي غاية الهدايات الثلاث، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس : آية ٩] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : آية ٢٢ ، ٢٣][3] .

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٣٧) ، ابن قيم الجوزية .

(٢) المصدر السابق (٢/٣٧) .

(٣) المصدر السابق (٢/٣٧) .

وطلب الهداية من أقوال النبوة ؛ ففي حديث عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول حين فرغ من صلاته : **«اللَّهمَّ إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي»** الحديث[1] .

وروى الترمذي من حديث شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة ـ رضي الله عنها ـ : يا أم المؤمنين ما أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، فقلت : يا رسول الله ما أكثر دعاءك بهذا ؟ قال : يا أم سلمة ، إنه ليس آدمي إلاَّ وقلبه بين أصبعين من أصابع الله ، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ»**[2] .

فالقلب صالح لأن يميل إلى الإيمان وصالح لأن يميل إلى الكفر بإرادة الله ، فلذا كان طلب الهداية والتوفيق أمر ضروري ، وقد ذكر الحق تبارك وتعالىٰ هداية القلب في كتابه الكريم بقوله ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : آية ١١] .

والآية وردت في سياق الرزايا التي تسيء العبد في النفس أو

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٤١٥) في الدعوات ، باب رقم (٣٠) ، وإسناده ضعيف ، وقال الترمذي : هذا الحديث غريب لا نعرف مثل هذا لابن أبي ليلى إلاَّ من هذا الوجه ، وذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» (٢١٤/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥١٧) في الدعوات ، باب رقم (٩٥) وقال : هذا حديث حسن . كما أخرجه في القدر ، باب : ما جاء أن القلوب بين أصبعين ، عن أنس بن مالك ، وذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» (٣٤٢/٤) ، (٥٣/٧) .

المال أو الولد أو الأحباب ونحوهم من قول أو فعل .

فهو في الدنيا في مرحلة ابتلاء واختبار هل يصبر على ما أصابه ، وأن كل ما أصابه بقضاء الله وقدره أم لا ؟ .

وقال المفسرون في معنى الهداية :

أولاً : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وهو قول ابن عباس - رضي الله عنهما -[1] .

ثانياً : يهد قلبه للعلم بأنها من عند الله ، فيسلم لأمر الله ويرضى به ، وهو قول علقمة[2][3] .

ثالثاً : يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، وهو قول أهل المعاني[4] .

فإذا هداه فقد رحمه ، فالرحمة اقترنت بالهداية في كثير من الذكر الحكيم كقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [الأنعام : آية ١٥٤] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام : آية ١٥٧] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٥) .

(٢) علقمة بن قيس بن عبد الملك النخعي أبو شبل الكوفي ، من كبار التابعين ت ٦١ هـ ، طبقات الحفاظ ص (٢٠) .

(٣) روح المعاني (٢٨/ ١٢٤) .

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٦) .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ [آل عمران : آية ٨] .

المبحث الرابع

القلب محل الرأفة والرحمة

والرحمة تنمو حين تكون الرأفة ، وكلاهما صفتان جليلتان ، إحداهما أرق من الأخرى ، هبة من الحق تبارك وتعالىٰ لقلوب عباده المؤمنين ، ارتبطت بالقلب في قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد : آية ٢٧] .

فلدينا ثلاث كلمات : «جعل» ، «رأفة» ، «رحمة» ، كل كلمة لها مدلول في كلام الله وفي أقوال العرب .

أولاً : كلمة (جعل) :

لفظ عام في الأفعال كلها ، وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها[١] . وقد ذكر العلماء أوجهاً كثيرة لها[٢] ؛ أوصلها الفيروز أبادي إلى ثلاثة عشر وجهاً ، منها : الإيقاع في القلب

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص (٩٤) .

(٢) المرجع السابق ص (٩٤) ، نزهة الأعين النواظر ص (٢٢٨) ، القاموس المحيط ص (١٢٦٢) ، الوجوه والنظائر ص (١٠٦) ، بصائر ذوي التمييز (٢/٣٨٣) ، وغيرها من مراجع اللغة .

والإلهام ، ومثاله آية (٢٧) الحديد .

وسواء أتت (جعل) في هذه الآية بمعنى خلق أو صيّر أو أنشأ وغيرها ؛ فالذي يهمنا أنها فعل الله ، وفعله جلّت عظمته أعم من أن تحصره اللغة ، وما دامت فعل الله في القلب ؛ فهي هبة إلهية قد يكون للكسب في تنميتها شيء ، وهذا الذي نريده من مادة (جعل) .

ثانياً : الرأفة :

الراء والهمزة والفاء : كلمة واحدة تدل على رقة ورحمة ، وهي الرأفة[1] . والرأفة : الرحمة ، وقيل أشد الرحمة[2] .

والرأفة : مبالغة في رحمة مخصوصة من دفع المكروه وإزالة الضر ، نقلها الزبيدي عن الفخر الرازي[3] . ومن أسماء الله تعالى «الرؤوف» ، ومعناه : ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع خلقه ، والمتعطف عليهم والمحسن إليهم بنعمه[4] . وقد ورد في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة .

وقد وردت «الرأفة» مرتين في كتاب الله . **الأول** : في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: آية ٢٧] . **والثاني** : قوله تعالىٰ في حد الزانية والزاني : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور : آية ٢] .

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٤٧٠) .

(٢) لسان العرب (٩/ ١١٢) ، المفردات في غريب القرآن ص (٢٠٨) .

(٣) تاج العروس (٦/ ١١٣) .

(٤) ولله الأسماء الحسنى (٢١٩) ، جمع : أحمد عبد الجواد .

الثالث : الرحمـة :

الـراء والحاء والميم أصـل واحـد يـدل على الـرقـة والعـطف والـرأفـة ، يُقـال من ذلـك : رحمـه يـرحمـه ؛ إذا رقّ لـه وتعـطف عليه[١] .

والـرحمة : المغفـرة ، وفي بني آدم عنـد العـرب رقـة القلب وعطفه[٢] .

والرحمة : رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم ، وقـد تستعمل تارة في الرقة المجردة ، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقـة نحو : رحم الله فلاناً[٣] .

وقيل : هي إرادة إيصال الخير[٤] .

وقيل : الإنعام على المحتاج إليه[٥] .

الفرق بين الرأفة والرحمة :

الرأفة أبلغ من الرحمة ، ولا تكاد تقع في الكراهة ، والـرحمة قد تقع في الكراهة للمصلحة[٦] .

قال ابن الجوزي : الرحمة في القرآن على ستة عشـر وجهاً ، وأوصلها الفيروز أبـادي إلى عشرين وجهـاً ، بينما اقتصـر الدامغـاني

---

(١) مقاييس اللغة (٢/٤٩٨) .
(٢) لسان العرب (١٢/٢٣٠) .
(٣) المفردات في غريب القرآن ص (١٩١) ، تاج العروس (٨/٣٠٥) .
(٤) التعريفات ص (١١٠) .
(٥) الفروق اللغوية ص (١٦٠) ، نزهة الأعين النواظر ص (٣٧٣) .
(٦) الفروق اللغوية ص (١٦١) ، لسان العرب (٩/١١٢) .

على أربعة عشر وجهاً .

منها الإلفة والموافقة بين أهل الإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد: آية ٢٧] .

وقال ابن الجوزي : (الرقة) ، وقال الدامغاني[١] : المودة[٢] ، وعموم الأوجه التي ذكروها لا تخرج عن الإنعام وإرادة إيصال الخير .

وفي حديث أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ : أنه دفع لرسول الله ﷺ صبيٌّ نفسُهُ تقعقع ، وفيه : «**ففاضت عيناه . فقال له سعد : يا رسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[٣] .

قال ابن حجر : (وأما الرحمة التي جعلها الله في قلوب عباده فهي من صفات الفعل ، وصفها بأنه خلقها في قلوب عباده ، وهي رقة على المرحوم) .

ورسول الله ﷺ تاج الرحماء ـ وصفه الله بصفتين في آية واحدة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : آية ١٢٨] .

---

(١) الدامغاني : حسين بن محمد بن إبراهيم أبو عبد الله الدامغاني ، فقيه حنفي ، ت ٤٧٨ هـ ، الأعلام (٢٥٤/٢) .

(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٣٣١) ، بصائر ذوي التمييز (٥٣/٣) ، الوجوه والنظائر ص (٢٠١) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب (٢) ، حديث (٧٣٧٧) .

وفي حديث شق الصدر ، عن أُبي بن كعب عن أبي هريرة : «**فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى. . . . .**» الحديث[1] .

وكتب التفاسير ذكرت شق الصدر في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾**(وهذا دليل قوي على أن القلب المعنوي مرتبط بالقلب الحسي أو يكاد يكون هو)** .

والرحمة خاصة بالمؤمنين ولا تنزع إلاّ ممن كفر بالله . ففي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : «**سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : لا تنزع الرحمة إلاَّ من شقي**»[2] وقال الترمذي : هذا

---

(١) مسند أحمد (٥/١٣٩) والحديث من زوائد عبد الله ابن الإمام أحمد ورجاله ثقات ، وحديث شق الصدر في كتب السير بالاتفاق فهو في :

أ ـ سيرة ابن هشام : السيرة النبوية (١/١٧٦) أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري ، ت ٢١٨ هـ .

ب ـ طبقات ابن سعد : الطبقات الكبرى (١/١١٢) محمد بن سعد بن منيع البصري ، ت ٢٣٠هـ .

جـ ـ دلائل النبوة ومعرفة أُصول صاحب الشريعة (١/١٣١) أحمد بن الحسين البيهقي ، توثيق ، د. عبد المعطي قلعجي .

د ـ البداية (٢/٢٧٥) أبي الفداء الحافظ ابن كثير ، ت ٧٧٤ هـ ، ط ١٣٩٨ هـ .

هـ ـ الخصائص الكبرى : كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب (١/٥٤) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ت ٩١١ .

(٢) سنن الترمذي (٤/٣٢٣) ، كتاب البر والصلة ، باب (١٦) . وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

حديث حسن .

والشقي : الكافر[1] لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: آية ١٠٥-١٠٧] .

أما ما يتراحم به غير المسلمين فهي رحمة عامة بمثل ما يتراحم البهائم ، ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«جعل الله الرحمة في مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزأً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»**[2] .

أما المؤمن إذا ثبت على إيمانه ، وكان من أهل التقوى ، فإنه له نصيبان من الرحمة : رحمة عامة ورحمة خاصة ، وورد هذا الوعد من الله في سياق آية سورة الحديد المثبتة أن المحبة والرأفة مقرها القلب ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : آية ٢٨] .

بهذه الرحمة المودعة في القلوب الطاهرة ؛ تكوّنت الإلفة

---

(١) نزهة الأعين النواظر ص (٣٧١) .

(٢) صحيح البخاري كتاب الأدب باب (١٩) حديث (٦٠٠٠) . فتح الباري (٤٣/١٠) .

بينهم ، فـاتفقت قلوبهم على المودة والمصـافاة والتـواصل ، فـرقّت جـوانبهم لبعضهم البعض ، فـزادهم الحقّ تبـارك وتعـالىٰ ألفــة في قلوبهم ، وإذا ائتلفت القلوب كانت الأخوة الطاهرة في الله ولله .

المبحث الخامس

تأليف الله للقلوب

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران : آية ١٠٣] .

المكمن العميق في الإنسان ؛ ذلك القلب مقر المشاعر والروابط ، يؤلف الله بينه وبين الآخر ؛ حتى تكون كتلة متآخية ، ذلول بعضها لبعض بعد النفرة والتفكك ، والحق تولى التأليف ، فلا يكون إلّا لمؤمن اعتصم بحبل الله واجتمع على هداه ، وكأن الله يبيّن أن الألفة هبة منه لا دخل للكسب فيها ، وإن كان الكسب سبباً لها .

وذكر الحق سبحانه «الألفة» في كتابه ثمان مرّات ، في خمس آيات ، ارتبط القلب بالألفة في ثلاث منها :

أولاً : قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ آل عمران: آية ١٠٣] .

ثانياً :في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال : آية ٦٢ ـ ٦٣] .

ثالثاً : في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة : آية ٦٠] .

رابعاً : في قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ [النور : آية ٤٣] .

خامساً : في قوله تعالىٰ : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ * إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ [قريش : آية ١ ـ ٢] .

فما هو الائتلاف ، وبم يتم ، ولمن يكون ؟ :

الهمزة واللام والفاء أصل واحد يدل على انضمام الشيء إلى الشيء والأشياء الكثيرة أيضاً[١] .

وألفت الشيء وآلفته بمعنىٰ واحد : لزمته ، وأَلِفْتُ الشيء : إذا أنست به ، وألّفت بينهم تأليفاً : إذا جمعت بينهم بعد تفرق ، وتألّف : تنظم[٢] .

وتألّف فلان فلاناً : إذا داراه وآنسه وقاربه وواصله حتى

---

(١) مقاييس اللغة (١/١٣١) .

(٢) لسان العرب (١١/٩-١٢) .

يستميله إليه[1] . والإلف : اجتماع مع التئام[2] ، والألفة : ضد الوحشة[3] .

وجميع معانيها تدور حول الاجتماع والاتفاق بعد الوحشة والافتراق .

وعرّفها الجرجاني بأنها : اتفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش[4] .

(والألفة تدل على الالتصاق ، ولفظ الجمع لا يدل على ذلك . فقولك : جمعت بين القوم في المجلس ؛ لا يدل على أنك ألصقت أحدهم بصاحبه ، ولا تقول : ألَّفتهم ؛ بهذا المعنى ، وتقول : فلان ، يؤلّف بين الزانيين ؛ لِمَا يكون مِن التزاق أحدهما بالآخر عند النكاح ، ولذلك لا يستعمل التأليف إلَّا في الأجسام ، والألفة في العربية تفيد الموافقة ، والجمع لا يفيد ذلك ولهذا قال تعالىٰ : ﴿**وألّف بين قلوبهم**﴾ لأنها اتفقت على المودة والمصافاة ، ومنه قيل : الألفان والأليفان : لموافقة أحدهما صاحبه على المودة والتواصل والأنسة)[5] .

فالألفة نوع من الرحمة سببها الإيمان ، وهي أول ما يرفع من الناس ، روى ابن جرير الطبري بسنده عن عمير بن إسحاق قال :

---

(١) تاج العروس (٦/٤٣) .
(٢) المفردات في غريب القرآن ص (٢٠) .
(٣) بصائر ذوي التمييز (٢/٤) .
(٤) التعريفات ص (٣٤) .
(٥) الفروق اللغوية ص (١١٨) .

كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس ـ أو قال عن الناس ـ : الألفة[1] .

والتألف الذي تولى الله إيقاعه في قلوب المؤمنين مخالف للتألف الكسبي ، وهو التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد .

فقد روي من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : «**الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف**»[2] .

يقول القرطبي : (تتشاكل أشخاص النوع الواحد وتتناسب ، بسبب ما اجتمعت فيه من المعنى الخاص لذلك النوع للمناسبة ، ولذلك نشاهد أشخاص كل نوع تألف نوعها وتنفر من مخالفها ، ثم إنا نجد بعض أشخاص النوع الواحد يتآلف وبعضها يتنافر ، وذلك بحسب الأمور التي يحصل الاتفاق والانفراد بسببها)[3] .

فهذا أمر تتساوى فيه الأمم ، فكل يعمل على شاكلته فالألفة الأولى لا تكون إلاَّ بعد الثانية ، لهذا إذا وجد الإنسان من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح ؛ فينبغي أن يبحث عن سبب ذلك ليتسنى له إزالته ، حتى يتخلص من الذم .

(والحديث يشير إلى معنى التشاكل في الخير والشر ، وأن الخيّر من الناس يحن إلى شكله ، والشرير يميل إلى نظيره ، والأرواح إنما تتعارف بضرائب طبائعها التي جبلت عليه من الخير

---

(١) جامع البيان (١٠/٣٦) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء باب (٢) ، انظر فتح الباري (٦/٣٦٩) .

(٣) فتح الباري (٦/٣٧) .

والشر ، فإذا اتفقت الأشكال تعارفت وتآلفت ، وإذا اختلفت تنافرت وتناكرت)[1] .

فهذا ميل بالطبع مكتسب ، ففي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : «**المؤمن مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»[2] . وفعلاً لا خير في غير المؤمن . ففي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أيضاً عن النبي ﷺ قال : «**إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المسجد إلَّا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلَّا دبراً مستكبرين ، لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار**»[3] .

وكأني بهذا الحديث يحكي عن الواقع ، فالتآلف بين القلوب شبه مفقود ، إلَّا ما رحم ربك .

وما المعاملات الحسنة الجارية بين المسلمين إلَّا بقايا الألفة التي خلقها الله في قلوبهم تضيء على قدر استعدادهم العقدي ، ورحم الله صاحب الظلال إذ يقول : (إن هذه العقيدة عجيبة فعلاً . إنها حين تخالط القلوب تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب ، التي تلين قاسيها وترقق حواشيها وتندي جفافها وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق ، فإذا نظرة العين ولمسة اليد ونطق الجارحة وخفقة القلب ؛ ترانيم من التعارف والتعاطف والولاء والتناصر والسماحة والهوادة ، لا يعرف سرها إلَّا من ألّف بين هذه

---

(١) عمدة القاري (١٥/٢١٦) نقلاً عن الخطابي .

(٢) مسند أحمد (٢/٤٠٠) . والحديث صحيح . الأحاديث الصحيحة للألباني (٤٢٦) .

(٣) مسند أحمد (٢/٢٩٣) . وفيه عبد الملك بن قدامة ، وثقه يحيى بن معين وغيره ، وضعفه الدارقطني . مجمع الزوائد (١/١١٢) .

القلوب ، ولا تعرف مذاقها إلاَّ هذه القلوب) [1] .

هذه المنح الإلهية لقلوب عامرة بالإيمان ؛ أنتجت صحابة رسول الله ﷺ ومن سار على دربهم ، هذه المنح والعطايا الإلهية كالرأفة والرحمة والتآلف في قلوب أحبابه ؛ لا بد أن تثمر زيادة الإيمان وقوة اليقين ، واجتماع أحبة المصطفى أكثر ما يكون في بيوت الله ، وبيوت الله مظان نزول السكينة ، وترابطهم يشتد في ميادين القتال لإعلاء كلمة الله ؛ لأنهم أحوج ما يكونوا إلى السكينة ، فينزلها الله في قلوبهم .

---

(١) في ظلال القرآن (١٥٤٨/٣) .

المبحث السادس

السكينــة

وقد ذكر الله السكينة في كتابه في ست مواضع :

الأول : قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : آية ٢٤٨] .

الثاني : قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : آية ٢٦] .

الثالث : قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : آية ٤٠] .

الرابع : قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾ [الفتح : آية ٤] .

الخامس : قوله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : آية ١٨] .

السادس : قوله تعالى : ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح : آية ٢٦] .

وفي الآية الرابعة من سورة الفتح ؛ ذكر الحق سبحانه أنه ينزل السكينة في قلوب المؤمنين ، وهذا مدار الباب .

والسين والكاف والنون أصل واحد يدل على خلاف الاضطراب والحركة ، يُقال : سكن الشيء يسكن سكوناً فهو ساكن ؛ ومن الباب : السكينة : وهو الوقار[1] .

والسكينة : الوداعة والوقار والأمن : يُقال : رجل وديع وقور ساكن هادىء .

وقيل : السكينة هي : الطمأنينة ، وقيل : النصر[2] .

وقيل : السكينة والسكن واحد ؛ وهو زوال الرعب . وقيل : العقل[3] .

فالسكينة : السكون الذي ينزله الله تعالى في قلب عبده المؤمن عند اضطرابه من شدة المخاوف ، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ، ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات . ولهذا أخبر

---

(١) مقاييس اللغة (٣/٨٨) .

(٢) لسان العرب (١٣/٢١٤) ، تفسير القرطبي (١٦/٢٦٤) .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص (٢٣٧) .

سبحانه وتعالىٰ عن إنزالها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب ؛ كيوم الغار ويوم حنين[1] .

فعلى هذا تكون السكينة موهبة غير مكتسبة ، لأن الله سبحانه أنزلها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب ؛ فاطمأنت قلوبهم ، ولا تنزل على غير المؤمنين .

فتفسير السكينة بمعنى الطمأنينة والوقار فيه تقريب للمفهوم ، وما الطمأنينة والوقار إلَّا أثراً من آثار السكينة وموجب من موجباتها ، وقد أوضحت الفارق بين الطمأنينة والسكينة في اطمئنان القلب ، فالطمأنينة أعلى من السكينة لأنها دائمة لا تفارق صاحبها ، والسكينة تكون حيناً بعد حين . نوضحها بمثال: من واجهه عدو بيده سلاح يريد هلاكه ؛ فإنه يقلق ويخاف ويضطرب . فإذا أغمد العدو سلاحه وَبَعُدَ عنه ، فإنه يسكن ما به من قلق ، فإذا لقي مكاناً آمناً فيه أُمة تحميه من عدوه اطمأن وأمن ، وكان في ذلك قوة له على عدوه .

أقسام السكينة :

ورد لفظ السكينة في سورة البقرة في سياق قصة بني إسرائيل . قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : آية ٢٤٨] .

نجد اختلاف أهل التفسير في معنى السكينة هل هي عين قائمة بنفسها ؟ أي : شيء حسي أم أمر معنوي ؟ .

فمنهم من جعلها حسية ، ومنهم من جعلها معنوية .

---

(١) مدارج السالكين (٢/٥٠٣) ، تاج العروس (٩/٢٣٩) .

(والنوع الحسي : للأنبياء معجزة ولملوكهم كرامة ، وهي آية النصر تخلع قلوب الأعداء بصوتها رعباً ؛ إذا التقى الصفان للقتال)[1] .

وقد ورد في حديث البراء ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين ، فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر ، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال : **«تلك السكينة تنزلت على القرآن»**[2] .

والرجل هو أسيد بن حضير ـ رضي الله عنه ـ وقد أورد له الإمام البخاري حديثاً في الكتاب نفسه ؛ باب : نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن ؛ ولكن عند قراءته لسورة البقرة ، وقد وقع لثابت بن شماس ـ رضي الله عنه ـ عند قراءته لسورة البقرة أيضاً ، كما ذكر ذلك ابن حجر ـ رحمه الله ـ عند شرحه لحديث أسيد .

ولعل هذه السكينة حسية ؛ إذ تسببت في نفر الفرس ، حتى كادت أن تصيب ابن أسيد ، وقد رآها مثل الظلة فوق رأسه ، فيها أمثال المصابيح ، عرجت إلى السماء حتى ما يراها . سواء كان ذلك ملائكة أو ما ذكره أهل التفسير .

أما المعنوية فسّرها صاحب منازل السائرين[3] فقال : (هي

---

(١) مدارج السالكين (٢/٥٠٥) .

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب فضل الكهف ، انظر فتح الباري (٩/٥٧ ، ٦٣) .

(٣) منازل السائرين لعبد الله بن محمد بن إسماعيل الأنصاري الهروي الحنبلي المتوفى ٤٨١ هـ ، شرحه علماء كثير ، منهم : الإمام ابن قيّم الجوزية ، عن كشف الظنون (٢/١٨٢٨) .

التي نزلت على قلبي النبي ﷺ وقلوب المؤمنين ، وهي شيء يجمع قوة وروحاً ، يسكن إليه الخائف ، ويتسلى به الحزين والضجر ، ويسكن إليه العصي والجريء والأبي)[١] .

فإذا وهب الله عبداً من عباده السكينة ؛ فإن كان خائفاً سكن ، وإن كان حزيناً تسلى ، وإن كان صاحب معصية وجرأة على المخالفة والإباء استكان إليها ، ولا تعارض بين صاحب المعصية والجرأة على المخالفة وبين المؤمن ، فقد يكون المؤمن مرتكباً لبعض الآثام ، فتنزل عليه السكينة فيتوب ويرجع إلى الحق .

وقال أكثر المفسرين في نزول السكينة على قلوب المؤمنين : إنها الأمن والطمأنينة[٢] .

كما ورد في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الذي قال فيه : «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ؛ إلَّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة . .**» الحديث[٣] .

والحديث بيّن أن هناك فرق بين السكينة والرحمة ، لعطف الرحمة على السكينة ، واختار الإمام النووي أنها الطمأنينة والوقار (وكلمة النزول تدل على علو شأن المنزل ، وتدل على أن القلوب منزل ومأوى لها)[٤] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/٥٠٧) .

(٢) زاد المسير (٣/٤١٦) ، روح المعاني (٢٦/ ٩٢) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء باب (١١) وفي شرح النووي (٢١/١٧) .

(٤) روح المعاني (٢٦/٩٢) .

وهناك أمر معنوي أيضاً ، فقد ورد في حديث وهب السوائي قال : (خطبنا علي ـ رضي الله عنه ـ فقال : من خير هذه الأمة بعد نبيها ؟ فقلت : أنت يا أمير المؤمنين . قال : لا ، خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ـ رضي الله عنهما ـ وما نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر ـ رضي الله عنه ـ)[1] .

ويقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : (كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه)[2] .

فهذه السكينة التي تنطق على لسان المحدَّث ؛ ليست كسبية إنما هبة من الله ، يظهر أثرها في إصابة القول والحكمة ، فبعد اطمئنان القلب وسكون الجوارح ؛ يكتسب العبد الوقار ، فيوفقه الله إلى إصابة القول والعمل .

وهذا نوع كسبي ومداره اللغة : وهو الاطمئنان والوقار ، كما ورد في حديث أبي بريدة عن أبيه قال : إن أناساً مروا على رسول الله ﷺ بجنازة يسرعون بها ، فقال رسول الله ﷺ : **«لتكن عليكم السكينة»**[3] .

وكذلك في حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ مثله[4] .

وفي حديث عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ : **«الحياء**

---

(١) مسند أحمد (١/١٠٦) .

(٢) مدارج السالكين (٢/٥٠٦) .

(٣) مسند أحمد (٤/٤٠٣) . في إسناده ليث بن أبي سليم القرشي فيه كلام . الفتح الرباني (٨/٩) .

(٤) مسند أحمد (٤/٤١٢) . في إسناده ليث بن أبي سليم القرشي فيه كلام . الفتح الرباني (٨/٩) .

لا يأتي إلاّ بخير» فقال بشير بن كعب : مكتوب في الحكمة إن من الحياء وقاراً ، وإن من الحياء سكينة . . الحديث[1] ، رواه البخاري .

وقال فيه ابن حجر : إن من الحياء ما يحمله على أن يسكن عن كثير مما يتحرك الناس فيه من الأُمور التي لا تليق بذي المروءة ، والمراد من الحياء : الحياء المكتسب ، هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي .

والمهم في البحث هو الأمر المعنوي للسكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين ، تعطيهم زيادة إيمان وثبات في الأمر ، وينزلها الله وقت الحاجة .

---

(١) صحيح الإمام البخاري كتاب الأدب باب الحياء حديث (٦١١٧) ، وفي فتح الباري (١٠/٥٢١) .

المبحث السابع
ربط القلوب

ومن فعل الله في القلب الربط : ويحصل من الله وقت الاحتياج ، ليعلم العبد أن فوقه قوة هي قوة الله تدبر أمره وتربط على قلبه بما فيه ، فسبحان خالق القلوب العليم بأسرارها . عندما يفقد المرء وعيه وإدراكه وشعوره وإحساسه في لحظة من لحظات الفراغ فإن قدرة الله تنقذه ، تقف بجانبه تربط على قلبه .

وعندما يستمر في طغيانه وكفره لا تفلح معه دعوة الرسل ولا يعي لمنطوق الحق ، خضع للامتحان الإلهي ففشل ، ولا فائدة ترجى ولا أمل ، كان جزاؤه الربط على قلبه بما حوى .

فالربط كما يكون للمؤمن يكون لضده ، وشتان بين جراب مسك وجراب عفن . ولولا الربط على القلب ما تجرأ أصحاب الكهف أمام الطغيان . قال تعالىٰ : ﴿ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف : آية ١٤] ولكنهم صرحوا بها ، وصرح بها من بعدهم أُممٌ أمام طغاة الحياة ، فكان الجهاد كلمة الله هي العليا ، وكان وَتَمَّ ، وما انتصر الحق ولا ثبت قدم مجاهد في معركة إلّا بربط القلوب .

والربط في التنزيل ذكر في خمسة مواضع ، ارتبط بالقلب في ثلاث منها :

الأول : في غزوة بدر الكبرىٰ قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال : آية ١١] .

الثاني : في قصة أصحاب الكهف قال تعالىٰ : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : آية ١٤] .

الثالث : في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : آية ١٠] .

والراء والباء والطاء أصل واحد : يدل على شد وثبات ، من ذلك : ربطت الشيء أربطه ربطاً ، والذي يشد به : رباط .

ومن الباب الرباط : ملازمة ثغر العدو ، كأنهم قد ربطوا هناك فثبتوا به ولازموه . ورجل رابط الجأش أي : شديد القلب والنفس[1] .

وأصل الرباط : الحبس ، كأن المرابط حبس نفسه على هذه

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/٤٧٨) .

الطاعة[1] .

والرباط : المواظبة على الأمر .

وقال ابن الأثير[2] : الرباط في الأصل : الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها[3] .

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط**»[4] .

فالرباط في الحديث : حبس النفس على الطاعة ، فهو بمعنى المواظبة على أعمال مخصوصة ، والربط من الرباط ، ففي مرحلة معينة من مراحل القلب ، يربط الحق تبارك وتعالىٰ على قلب العبد بما حوى ، ليكرمه بأمر أو ليخذله في الدارين .

فعندما أصبح فؤآد أُم موسى فارغاً ـ والفؤآد كما ذكرت : جوهر القلب ولبّه ، فهو مقر العقل ـ دهمها من الخوف والحيرة ما سلب عقلها عندما علمت بوقوعه في يد فرعون ، ربط الله على قلبها بالصبر والثبات لتزداد صدقاً ويقيناً بوعد الله وحفظه .

---

(١) هدي الساري ص (١٢١) ، صحيح مسلم بشرح النووي (٢/١٤١) .

(٢) ابن الأثير : المبارك بن محمد بن محمد أبو السعادات ، محدث لغوي أصولي ، ت ٦٠٦ هـ ، الأعلام (٥/٢٧٢) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (٢/١٨٥) .

(٤) رواه مسلم في كتاب الطهارة ، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره ، وفي شرح مسلم للنووي (٣/١٤١) .

وفي غزوة بدر الكبرى أكرم الله المجاهدين بالربط على قلوبهم .

وقال النيسابوري[1] في «غرائب القرآن» في معنى (على) : إن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علاها وارتفع فوقها[2] .

فغشاهم النعاس وأنزل المطر ، وثبتت أقدام المجاهدين بتلبد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو ، وبربط القلوب ، فكان لها صبر على ملاقاة المشركين حتى تم مراد الله بنصر زمرته المؤمنة الطاهرة .

وكذلك أصحاب الكهف ، بعد إيمانهم زادهم الله هدى وربط على قلوبهم ، قال أبو السعود في معنى الآية : (أي : قويناهم حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان . واجترأوا الصدع بالحق من غير خوف)[3] .

فالحق ربط على قلوبهم ، فألهمها الصبر على مشاق هجر الأحبة ومواجهة الأعداء ، لإظهار شعار الدين من غير مبالاة من دقيانوس الجبار[4] .

فالربط هبة من الحق لمن أحب ، وعقاب منه لمن عصى ، فالكافر قلبه أغلف ، ربط على غلافه . ففي حديث أبي سعيد

---

(١) النيسابوري : الحسن بن محمد القمي النيسابوري نظام الدين ، مفسر توفي بعد (٨٥٠) هـ ، الأعلام (٢/٢١٦) .

(٢) غرائب القرآن (٩/١٣١) .

(٣) تفسير أبي السعود (٣/٥٠٣) .

(٤) دقيانوس ، ويسمى قلديانوس : ملك في بلاد الروم أو نينوى قبل زمن المسيح ، البداية والنهاية (٢/١١٤) .

الخدري - رضي الله عنه - الذي ذكر فيه أن رسول الله ﷺ قسم القلوب إلى أربعة وفيه : «وقلب أغلف مربوط على غلافه» - وفسّره - ﷺ فقال : «**وأما الأغلف فقلب الكافر** . . » الحديث[1] .

فقلب الكافر الحقيقي هو المربوط عليه ، فلا يدخله إيمان جزاء إصراره وعناده ، بعد معرفته للحق وصدق اليقين .

---

(١) مسند أحمد (١٧/٣) . وقال ابن كثير : إسناده جيد حسن (تفسير ابن كثير ٥٦/١) .

المبحث الثامن

امتحان الله للقلوب وتمحيصها

المؤمن يتقلب في نعيم الله ، ويسعد بقلبه ويسعد قلبه به ، ولا بد للقلوب المؤمنة من امتحان ولا بد لها من تمحيص ، أي القلوب يستحق أن يتدرج في هذه المراتب ، وقد امتحنت قلوب الصفوة الطاهرة وكانت أهلاً للنجاح .قال تعالىٰ :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : آية ٣] .

والمحن : الاختبار[1] يُقال محنه : اختبره وجربه ، ومثله : امتحنه .

والمحنة : ما يمتحن به الإنسان[2] .

فقد امتحن الله المؤمنين أن يخفضوا عند رسول الله إذا تكلموا إجلالاً له ، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له ، وامتثلوا للامتحان ؛

(١) معجم مقاييس اللغة (٣٠٢/٥) ، لسان العرب (٤٠١/١٣) .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين (٤٦٠/٨) .

فكان الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ يخاطبه كأخي السرار ، والصحابة مثله ، فأخلص الله قلوبهم للتقوى .

(قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في معنى الآية : أي : طهرهم من كل قبيح)[1] .

ويقول الفخر الرازي : (من يقدم نفسه ويرفع صوته يريد إكرام نفسه واحترام شخصه ، فقال تعالى : ترك هذا الاحترام يحصل به حقيقه الاحترام ، وبالإعراض عن هذا الإكرام يكمل الإكرام لأن به تتبين تقواكم)[2] .

فلا بد للقلوب أن تمتحن بأنواع المحن والتكاليف . قال تعالىٰ : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : آية ٣] .

ومن هذا القبيل : التمحيص لتبين الجودة من الرداءة . قال تعالىٰ : ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : آية ١٥٤] .

والميم والحاء والصاد أصل واحد يدل على تخليص شيء وتنقيته ، ومحص الله العبد من الذنب : طهّره منه ونقاه ، ومحصت الذهب بالنار : خلصته من الشوب[3] وتمحيص الذنوب تطهيرها[4] .

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/٣٠٨) .
(٢) التفسير الكبير (٢٨/١١٥) .
(٣) معجم مقاييس اللغة (٥/٣٠٠) .
(٤) لسان العرب (٧/٩٠) .

والتمحيص : الابتلاء والاختبار[1] .

قال ابن كثير في معنى الآية : (أي يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس : في الأقوال والأفعال)[2] .

والتمحيص عملية تتم في داخل القلب ، عملية كشف لمكنونات شخصية الفرد ، تنقيه من الغش والشر ، تترك القلب نقياً طاهراً مستقراً على الحق لا غشاء ولا ضباب . هذا التمحيص يعرف الفرد بنفسه ليحاول إصلاحها وتطهيرها ، ويعرفه بقلبه ليصلح اعوجاجه ، فيجعله في منهج مستقيم يرتقي مراتب الإيمان خطوة تلو أخرىٰ ، حتى يرتقي إلى الدور المقدر له ، هذا التمحيص فعل في القلب ، وفعل الله في القلوب مجهول الكنه والكيف ، معروف النتائج في القلوب الطاهرة الندية ، ينفي عنها الزيف والرياء فلا يبقى فيها غش ولا دغل ، فالمسار طويل أمامها حتى تصل إلى الكمال .

---

(١) تاج العروس (٤/ ٤٣٥) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤١٨) .

الباب الثالث

القلب المريض

- الفصل الأول : سبب مرض القلب
- الفصل الثاني : أمراض القلوب ودركاتها .

الفصل الأول

أسباب أمراض القلوب

- **المبحث الأول : تعريف المرض .**
- **المبحث الثاني : أسباب ضعف القلب وما يترتب على ذلك .**

المبحث الأول

تعريف المـرض

الميم والـراء والضاد : أصـل صحيح يـدل على ما يخـرج بـه الإنسان عن حد الصحة في أي شيء كــان منه العلة[1] .

أو هو خروج الطبع عن حال الاعتدال[2] وهو نقيض الصحة ، وأصل المرض النقصان[3] .

وعرف أيضاً بأنه صفة توجب وقوع الضرر في الأفعال الصادرة عن موضع تلك الصفة[4] وهو نوعان :

الأول : مـرض جسماني : وهـو تغير في النسيـج أو عضـو أو مجموع يوجب تشوشاً في عمله ، أو يمنع إتمام وظيفة من الوظـائف الجسدية[5] .

ومنـه قولـه تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣١١/٥) ، المفردات ص (٤٦٦) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٤٩٢/٤) .

(٣) لسان العرب (٢٣١/٧) .

(٤) التفسير الكبير (٦٤/٢) .

(٥) دائرة معارف القرن العشرين (٧٣٧/٨) .

[البقرة : آية ١٨٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور : آية ٦١ ، الفتح : آية ١٧] .

والثاني : (مرض نفساني : وهو عبارة عن الظلم والجهل والجبن والبخل والنفاق ، وغيرها من الرذائل الخلقية والسجايا الخبيثة)(١) .

كما قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : آية ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [المدثر : آية ٣١] .

وذكر أهل التفسير أن المرض في القرآن على ثلاثة أوجه(٢) :

أحدها : **مرض البدن** . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ ﴾ [البقرة : آية ١٩٦] .

الثاني : **الشك** . ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : آية ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة :آية ١٢٥] .

الثالث : **الفجور** . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب :آية ٣٢] .

ومنها : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾

---

(١) المفردات ص (٤٦٦) ، بصائر ذوي التمييز (٤/٤٩٢) .
(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٥٤٦) ، إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٣٢) .

[الأحزاب : آية ٦٠] .

والمرض النفساني إذا أطلق فالمراد به عموم الأمراض الباطنة التي تتناول الصدر أو القلب . (فالنفس في كلام الله وصفت بثلاث أوصاف ، وهي نفس واحدة ولها صفات متغايرة . فالسكينة مزيد الإيمان ، وبها تحصل الطمأنينة ، ويرتقي القلب إلى مقام الروح ، وتتوجه النفس إلى مقام القلب ، وفي ذلك طمأنينتها ، فهي إذاً المطمئنة . وإذا انزعجت عن مقار جبلاتها متطلعة إلى مقار الطمأنينة ؛ فهي اللوامة ، فإذا قامت في محلها لا يغشاها نور المعرفة والعلم ؛ فهي الأمّارة بالسوء . فالنفس والروح يتطاردان ، فتارة تملك القلب دواعي الروح، وتارة تملكه دواعي النفس)[1] .

---

(١) إتحاف السادة المتقين (٢٠٧/٧) .

المبحث الثاني

أسباب ضعف القلب وما يترتب على ذلك

والمقصود أن أمراض القلوب تأتي إليها من قبل النفس ، فإذا كانت عامرة بالإيمان فهي في مكمن حصين لا تمرض بذاتها ، مفطورة على التوحيد وليس للشيطان مسلك إلى القلب إنما مسلكه النفس .

(فإن القلوب كالأواني ، ما دامت مملوءة ماء لا يدخلها الهواء ، لاشتغال المكان)[1] .

فما دامت عامرة بما مرّ في حياة القلوب فلا يمكن إغواؤها بحال ،كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[الحجر: آية ٤٢] .

إنما إذا كانت خالية من مراتب الإيمان أي على الفطرة ، فالفطرة تحرف إذا وجدت من يغويها إلى طريق الضلال ، فهي نقطة نور أقرب إلى الحق منها إلى الغواية ، إلاَّ بقوة خارجية تحرفها عن الجادة .

---

(١) إتحاف السادة المتقين (٧/ ٢٢٠) .

فإذا انحرفت الفطرة بفعل النفس الأمارة بالسوء ؛ أثرت على القلب : إما بالشهوات أو الشبهات كما مرّ ، لخلوّه من الإيمان ، فينجرف حيالها بما يملأ فراغه نكتة بعد أخرى ، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة - رضي الله عنه - : «**إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب صقل منها ، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله عزّ وجلّ ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾**»[1] .

(فالذنوب والمعاصي تضر ، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان ، على اختلاف درجاتها في الضرر)[2] .

والذنوب مختلفة المراتب : فمنها صغائر ، ومنها ما توعد باللعنة أو بالحد لفاعله .

فمتى مرض القلب ، وهو الملك ، أثّر على بقية الجوارح ، كما قال النبي ﷺ : «**ألا وإن في الجسد مضغة : إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب**»[3] .

أصبح به علة مع بقاء حياته ، فله مادتان : تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منها فهو قلب مصفح ، كما فسره النبي ﷺ : «**وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق . فمثل الايمان فيه : كمثل البقلة ، يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه : كمثل القرحة ، يمدها القيح والدم . فأي المادتين غلبت على**

---

(١) المستدرك ، كتاب الإيمان (١/٥) ، وقال : حديث صحيح .

(٢) الداء والدواء ص (٦٠) المسمّى بالجواب الكافي ، ابن قيم الجوزية .

(٣) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير ، صحيح البخاري (١/٢٠) كتاب الإيمان .

الأُخرىٰ غلبت عليه»[1] .

ففيـه من محبة الله والإيمـان به مـا هو مـادة حياتـه ، وفيه من محبة الشهوات والشبهات ما هـو مادة لهـلاكه ، وهـو يجيب أدناهمـا إليه جواراً .

فـأمراض القلب هي أمـراض النفس بالـدرجة الأُولىٰ ، ولكن جار السوء لـه سلطان يؤثر على الضعيف ، حتى يصبـح التأثيـر صفة غـالبة عليـه ، فمـا يلقيـه الشيـطان في النفس ؛ يكـون فتنـة للقلب المريض أو الميت ، وقـوة للقلب الحي السليم .

قال حذيفـة بن اليمان ـ رضي الله عنـه ـ : **«سمعت رسول الله ﷺ يقول : تعرض الفتن على القلوب كـالحصير عـوداً عوداً ، فـأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير القلب على قلبين : أبيض مثل الصفا فـلا تضره فتنـة ما دامت السمٰـوات والأرض ، والآخر أسـود مربـاداً كـالكـوز مُجَخِّيـاً ، لا يعـرف معـروفـاً ولا ينكـر منكـراً ؛ إلَّا مـا أشـرب من هواه»**[2] . ومعنى مجخياً : أي مائلاً[3] .

فليست كل الذنوب مؤثّرة على القلب إنمـا ما سكن فيـه وألزم به ، فإذا أشرب القلب حب الفتنة أتته النكتة كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ ﴾ [البقرة : آية ٩٣] .

---

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في مسنـده ، (٣/١٧) ، عن أبي سعيد الخدري ، وقال ابن كثير في تفسيره (١/٥٦) : إسناده جيد حسن .

(٢) صحَيح مسلم (١٤٤) كتاب الإيمـان (١/١٢٨) ، باب بيـان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً .

(٣) القاموس المحيط ص (١٦٣٨) .

فهو دخول تام وإلزام حتى تحل منه محل الشراب ، ثم يتدرج به النكت . والنكت هو النقطة في الشيء بخلاف لونه (وهو شبه الوسخ في المرآة)[1] حتى يحيط بالقلب فيصبح محصوراً ، وهو المشار إليه في الحديث **«كالحصير عوداً عوداً»** .

والمعنى أنها تحيط بالقلوب كالمحصور المحبوس ، يُقال : حصره القوم إذا أحاطوا به وضيّقوا عليه ، واحد تلو الآخر ومرة بعد أخرى ، فبعد أن كان القلب أبيض مثل الصفا لا تلصق فيه الفتن ، لشدته على عقد الإيمان ، وسلامته من الخلل والزلل ؛ أصبح مرباداً لونه بين السواد والغبرة ، فإذا استمر على ما هو عليه : مال ثم انتكس ، فأصبح كالكوز مجخياً ، لا يعلق به خير ولا حكمة ، فهو قلب ميت .

والمجخي : (المائل عن الاستقامة والاعتدال . يُقال : جخي الرجل في جلوسه : إذ جلس مستوفزاً ، وجخي في صلاته : إذا جافى عضديه عن جوفه ، ورفع جوفه عن الأرض وخوى)[2] .

والتشبيه بالكوز المائل ؛ دليل على أن القلب كان مملوءاً بالخير : إما الفطرة أو نور الإسلام ، فلا يزال يميل ، وفي الميل سكب لما فيه ، حتى ينسكب ما حوى من الخير فلا يدخله شيء بعد ذلك ، فما دام عامراً ملآناً بالإيمان لا يؤثر فيه شيء ، فإذا بدأ في مراحل الانتكاس ، وبدأت أعراض الضعف عليه ؛ تسلطت عليه النفس بقوتي الشهوات والشبهات ، فيتحمل من الآثام ما يلقيه إلى مهاوي الموت .

---

(١) القاموس المحيط ص (٢٠٧) .

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول (١٠/٢٢) مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير توفي ٦٠٦ هـ ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط .

الفصل الثاني

أمراض القلوب ودركاتها

- **المبحث الأول : آثام القلب .**
- **المبحث الثاني : صغو القلب .**
- **المبحث الثالث : زيغ القلب .**
- **المبحث الرابع : غل القلب .**
- **المبحث الخامس : القلب الغليظ .**
- **المبحث السادس : غيظ القلوب .**
- **المبحث السابع : إباء القلب .**
- **المبحث الثامن : القلب والكبر .**
- **المبحث التاسع : نفاق القلب .**
- **المبحث العاشر : الكفر والقلب .**
- **المبحث الحادي عشر : أثر الذنوب على القلوب .**

المبحث الأول

آثام القلب

والإثم : الذنب ، وقيل : هو أن يعمل ما لا يحل له[1] .

والآثام : جزاء الإثم أي العقوبة[2] ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان : آية ٦٨] .

وأيضاً : اسم للأفعال المبطئة عن الثواب[3] .

وقد نسب الله تعالىٰ الإثم إلى القلب فقال عزّ وجلّ : ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : آية ٢٨٣] .

ونسب الإثم إلى القلب ؛ دليل على أنه أشرف الأجزاء في الإنسان والمسيطر عليها ، ولبيان أهمية فعله على سائر الجوارح ، فهي تابعة له .

---

(١) القاموس المحيط (١٣٨٨) .

(٢) لسان العرب (٦/١٢) .

(٣) المفردات ص (١٠) .

وقيل : «أسند الإثم إلى القلب ؛ لئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط ، وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه» [1] .

وقال الرازي : (إن كثيراً من المتكلمين قالوا : إن الفاعل والعارف والمأمور والمنهي هو القلب) [2] .

وقد وردت المادة في القرآن على أربعة أوجه :

فوجه منها الإثم : يعني الشرك : ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ [المائدة : آية ٦٣] .

الثاني : الإثم : يعني المعصية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ [المائدة : آية ٣] أي غير متعمد لمعصية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ ﴾ [الأعراف : آية ٣٣] يعني المعاصي، وقيل الخمر .

الثالث : الإثم : الذنب ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : آية ٢٠٣] يعني : فلا ذنب عليه ، أي ذنبه مغفور .

الرابع : الإثم : يعني الخطأ ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ [البقرة : آية ١٨٢] أي خطأ ، وهو

---

(١) روح المعاني (٣/٦٢) .

(٢) التفسير الكبير (٧/١٢٣) ، وسنتطرق لهذا في باب القلب والمعرفة .

قول مقاتل خاصة في العقوبة[1] .

فالإثم اسم جامع لمطلق الذنب الذي يتـدرج فيه القلب ، من عمـوم المعاصي صغـائر وكبـائر ، حتى يهـوي به إلى الشـرك الأكبر فيختم أو يطبع عليه ، وقد أوضحهـا ابن القيم مسلسلة فقال : (أوّل ما يطرق القلب الخـطرة ، فإن دفعهـا استراح ممـا بعدهـا ، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة فكان دفعها أصعب ، فإن بادر ودفعهـا وإلاَّ قـويت وصارت شهـوة ، فإن عـالجها وإلاَّ صـارت إرادة ، فـإن عالجها وإلاَّ صارت عزيمة ، ومتى وصلت إلى هذا الحـال لم يمكن دفعها ، واقترن بها الفعل ولا بد)[2] .

فقبـل أن يندفـع القلب في الإثم لا بدّ لـه من الميل إلى هـذا المسلك ، وهو بدايـة المرض ، فهـو مختار في أن يميـل إلى طريق الخير أو طريق الضلالة ، وقد عبّر الحق عن ميل القلب بالصغو .

---

(١) إصلاح الوجوه والنظائر ص (١٦) .
(٢) التبيان في أقسام القرآن ص (٤٢٠) .

المبحث الثاني

صغو القلب

وقد وردت هذه المادة مرتين في القرآن الكريم ، ارتبطت الأولى بالفؤآد في قوله تعالى ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [الأنعام :آية ١١٣] ، والثانية بالقلب في قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : آية ٤] .

وصغو الفؤآد دليل على صغو القلب ولا بد ، لأنه لبه وخالص ما فيه ، وقد قال ابن عباس في تفسير صغو الفؤآد : (أي : ولتميل إليه قلوبهم وعقولهم وأسماعهم)(١) .

يُقال : صغى إليه يصغى أي : مال ، وكذلك صغي بالكسر . يُقال : صغيت إلى الشيء إذا ملت ، وصغوه معك: أي ميله معك ، وصغا الرجل : إذا مال على أحد شقية(٢) . ويُقال في المستمع إذا مال بحاسته إلى ناحية الصوت أنه يصغى(٣) .

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٦٧) .

(٢) لسان العرب (١٤/٤٦١) ، بصائر ذوي التمييز (٣/٤١٦) ، المفردات ص (٢٨٢) .

(٣) التفسير الكبير (١٣/١٥٦) ، روح المعاني (٨/٦) .

والقلب حاسة قابلة للانحراف ما لم تجد عاصماً يكبحها ، ولا عاصم من وسوسة الإنس والجن إلَّا بالتمسك بما يُحيي القلب وينميه ، إنما المعوقات هي التي تحول بين القلب والحق . فشياطين الإنس والجن يغري بعضهم بعضاً، ويحرض بعضهم بعضاً على التمرد والغواية ، فتصغى إليهم القلوب المريضة ، وفي صغوها زيغان لها والزيغ ميل أيضاً ، إلَّا أن (الزيغ مطلقاً لا يكون إلَّا الميل عن الحق ، يُقال فلان من أهل الزيغ . ويُقال أيضاً زاغ عن الحق . ولا أعرف زاغ عن الباطل ، لأن الزيغ اسم لميل مكروه ، والميل عام في المحبوب والمكروه)[1] .

---

(١) الفروق اللغوية ص (١٧٦) .

المبحث الثالث

زيـغ القلـب

والـزيـغ مـرض من أمـراض القلوب التي بـدأت في طـريق الانحـدار ، وقد ذكـرت المـادة في ثمـان مـواضـع من كتـاب الله ، ارتبطت بالقلب في أربع منها .

الأول : قوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : آية ٨] .

الثانية : قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : آية ٧] .

الثالثة : قوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة : آية ١١٧] .

الرابع : في قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا

يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف : آية ٥] .

والزاي والياء والغين : أصل يدل على ميل ، يُقال : زاغ يزيغ زيغاً.

والتزيغ : التمايل[1] ، والزائغ : الطالب للفتنة[2] .

والزيغ : الميل عن الاستقامة ، والزائغ : المائل ، وزاغت الشمس إذا مالت[3] .

وللمفسرين في معناه قولان :

أحدهما : الشكّ . قاله مجاهد والسدي .

والثاني : أنه الميل . قاله أبو مالك .

وعن ابن عباس كالقولين ، وقيل : هو الميل عن الهدى[4] .

(ولكن الشكّ : استواء طرفي التجويز ، والشاك يجوّز كون ما شكّ فيه على إحدى الصفتين ، لأنه لا دليل هناك ولا أمارة ، فهو اجتماع شيئين في الضمير متناقضين من غير تقوية أحدهما على الآخر)[5] .

(بينما الميل هو : العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين ، ويستعمل في الجور)[6] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٤٠) ، لسان العرب (٨/ ٤٣٢) .

(٢) التفسير الكبير (٧/ ١٧٤) .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص (٢١٧) ، بصائر ذوي التمييز (٣/ ١٥٤) ، روح المعاني (٣/ ٨٢) .

(٤) تفسير الطبري (٣/ ١٧٦) ، زاد المسير (١/ ٣٥٣) .

(٥) الفروق اللغوية ص (٧٩) .

(٦) المفردات في غريب القرآن ص (٤٧٨) .

والحق تبارك وتعالىٰ يصف أهل الزيغ بأنهم يتبعون ما تشابه من القرآن ويتركون الآيات المحكمات ، فهم مالوا إلى الجانب الذي يرغبون ، اتباعاً للفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلاَّ الله .

كما أن المصطفى ﷺ حذّر أُمته من الميل إلى الدنيا وملذاتها . فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه فقال : «**آلفقر تخافون ؟ والذي نفسي بيده لتصبنّ عليكم الدنيا صباً ، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلاهية ، وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء**»[1] .

فالميل إلى طريق الضلال يقرب الإنسان من الهاوية ، وقد نسب الله للإنسان الزيغ عن الهدى في قوله تعالىٰ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف :آية ٥] .

فإذا مال الإنسان إلى طريق الضلال ، ولم تنفع معه البينة الواضحة في فترة اختباره التي وهبها الله للقلب ؛ أزاغ الله قلبه ، لأن القلب محل الميل والإرادة ، صالح إذا مال إلى الإيمان ، وفاسد إن زاغ إلى الضلال .

فمن ذاق حلاوة الإيمان طلب من الله أن يثبت قلبه على الهدى ، فقد كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ : « **يا مقلب القلوب**

---

(١) سنن ابن ماجه (٤/١) ، المقدمة ، باب (١) الحافظ محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي . وقال : هذا الحديث مما انفرد به المصنف .

ثبت قلبي على دينك»[1] .

ويقـول ﷺ لأم سلمة : **«يـا أم سلمة ! مـا من آدمي إلاّ وقلبـه بين أصبعين من أصـابع الله عـزّ وجـلّ ، مـا شـاء أقـام ، ومـا شـاء أزاغ»**[2] .

فكـل من زاغ عن الحق بلبس أو اشتبـاه فقـد سـار في طـريق الضلال ، سواء كان بأقلّه أو أكثره ، فقد وعد الله من بدأ بـالزيـغ أن يزيغ قلبه ، وحرمه من الهداية وسماه فاسقاً ، فهـو لا يقبل الحق ولا يميـل إليه ، فتجـده يؤذي أهـل الحق كمـا قـال تعـالىٰ على لسـان موسىٰ لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف : آية ٥] .

ويحمـل لهم في قلبـه الغش والعـداوة والحسد ؛ حتى يتمكن الغل من قلبه بعد أن عمّ صدره .

---

(١) مسنـد أحمـد من حـديث أم سلمـة (٣٠٢/٦، ٣١٥) ، سنن التـرمـذي (٤٤٩/٤) كتاب القدر باب (٧) وقال : حديث حسن .

(٢) المصدر السابق ـ وروي من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ (٩١/٦) .

المبحث الرابع

غـل القلـب

وردت هذه المادة في القرآن الكريم ، وأثبت الغل للصدر كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ [الأعراف : آية ٤٣] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : آية ١٠] .

الغين واللام أصل صحيح يدل على تخلّل الشيء وثبات شيء ، كالشيء يغرز ، من ذلك قول العرب : غللت الشيء في الشيء إذا أثبته فيه كأنه غَرْزَتُه .

ومن الباب الغل ، وهو الضغن ينغل في الصدر[1] .

وورد الغل بمعنى الغش والعداوة والضغن والحقد والحسد والدغل والنفاق والحقد الكامن والخيانة والشر[2] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٣٧٦) .

(٢) لسان العرب (١١/٤٩٩ ـ ٥٠٥) ، تاج العروس (٨/٤٨) .

وهذه الأمراض مكمنها الصدر يتولى الله نزعها من صدور الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند دخولهم الجنة ، هذه الصفات عندما تكمن في الصدر تتخلل القلب بلطف حتى تتمكن منه وتصبح صفة يوصف بها القلب المريض .

قال الرازي : (الغل : الحقد ، وهو الذي يغل بلطفه إلى صميم القلب ، ومنه : الغلول وهو الوصول بالحيلة إلى الذنوب الدقيقة ، ويُقال : انغل في الشيء إذا دخل فيه بلطافة - كالحب يدخل في صميم الفؤاد)[1] .

والغل يقتضي التشفي والانتقام فإن تشفى بنفسه أو أحب أن يتشفى غيره ممن يرى أنهم أعداؤه ، فكل أموره ومعانيه تلزم البغض والعداوة ، ويفضي ذاك إلى التنازع والتقاتل وربما أهلك المريض نفسه بالمرض الباطني المتعلق بالقلب ، وهذا بغية الشيطان من حظ الإنسان . لهذا حذر رسول الله ﷺ أمته من الغل فقال : **«ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم أبداً : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»**[2] .

ومعنى قوله ﷺ : **«لا يغل عليهن قلب مؤمن»** :

تُرْوَى هذه الكلمة بفتح الياء وكسر الغين ، وهو من الغل : الحقد والضغن ، يقول : لا يدخله شيء من الحقد يزيله عن الحق ، ويروى بضم الياء وكسر الغين من الخيانة ، والإغلال :

---

(١) التفسير الكبير (١٤/ ٨٠) .

(٢) مسند أحمد (٥/١٨٣) ، من حديث زيد بن ثابت وإسناده صحيح ، جامع الأصول (١/٢٦٥) .

الخيانة في كل شيء [1] .

وهذه الخصال تطهر القلب من الدغل والخيانة والشر [2] .

فـإذا غـلّ قلبـه على حقـد لا يخلص ولا ينـاصـح وفـارق الجمـاعة . فهـذه الثلاث الـواردة في الحديث أسـاس وحـدة الأمـة الإسلامية ، وبانهيارها تنهار وحدة الأمة .

ولا بد لهذه الصفة من حالة أخرى تتبعها : وهي الغلظة وعدم الإشفـاق وقلّة الـرحمـة ، حتى تتمكن من القلب فتكـون حـالـة من حالاته ، ثم تصبح صفة ملازمة له .

---

(١) جامع الأصول (١/٢٦٧) .

(٢) النهاية في غريب الحديث (٣/٣٨١) .

المبحث الخامس

القلب الغليظ

والغلظة مرض آخر من أمراض القلوب ، ذكره الله في محكم بيانه ، منزهاً عنه رسوله ﷺ فقال تعالىٰ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران : آية ١٥٩] .

والغلظة ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش ، فهي قسوة وشدة واستطالة ، والغلظ من الأرض الصلب من غير حجارة[١] .

وكأن غلظة القلب درجة أقل من القسوة ، فهو كالأرض الجامدة ، ولم يصل بعد إلى مرتبة التحجر ، وإن كان في بداية المسار نحو التحجر . أو هي قسوة أقل من القسوة المتصف بها .

وقال المفسرون في قوله تعالىٰ : **﴿ولو كنت فظاً غليظ**

---

(١) لسان العرب (٧/٤٤٩) ، تاج العروس (٥/٢٥٥) .

القلب﴾ : (الفظ : سيء الكلام ، والغلظة قسوة القلب)[1] وبه قال الزمخشري[2] .

(وقال الألوسي : **﴿ولو كنت فظاً﴾** أي خشن الجانب ، شرس الأخلاق ، جافياً في المعاشرة قولاً وفعلاً ، **﴿غليظ القلب﴾** أي : قاسيه .

ونقل عن الكلبي : **﴿فظاً﴾** في الأقوال ، **﴿غليظ القلب﴾** في الأفعال .

وذكر بعضهم أن (الفظ) سيء الخلق في الأمور الظاهرة من الأقوال والأفعال ، و **﴿غليظ القلب﴾** السيء الخلق في الأمور الباطنة ، والثاني سبب للأول ، وقدم المسبب لظهوره ؛ إذ هو الذي يطلع عليه)[3] .

وفرّق الرازي بين الفظ وبين غليظ القلب فقال : (الفظ الذي يكون سيء الخلق ، وغليظ القلب هو الذي لا يتأثر قلبه عن شيء ، فقد لا يكون الإنسان سيء الخلق ولا يؤذي أحداً ؛ ولكنه لا يرق لهم ولا يرحمهم)[4] .

والنتيجة : أن القلب إذا اتصف بالغلظة وأصبحت ملكة فيه لا بد أن يتبعها كل صفة ذميمة ، سواء ظهرت حالاً أو مآلاً ، فلا تنزع الرحمة إلاّ من شقي .

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٢٠) .

(٢) الكشاف (١/٢٢٦) .

(٣) تفسير روح المعاني (٤/١٠٦) .

(٤) التفسير الكبير (٩/٦٤) .

أما إذا لم يصل القلب إلى مرحلة الوصف بل كانت حالة تعتريه ثم تزول ، أو كانت غلظة سلوك ونفرة طباع بسبب البيئة والنشأة ، كما ورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : « **أشار رسول الله ﷺ بيده نحو اليمن فقال : الإيمان يمان هاهنا ، ألا إن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين ، عند أصول أذناب الإبل، حيث يطلع قرنا الشيطان ، في ربيعة ومضر**»[1] .

فهذه إذا تداركها الإنسان زالت عنه ، فهي كما قال القرطبي : (عبارة عن تجهم الوجه وقلة الانفعال في الرغائب ، وقلة الإشفاق والرحمة) . ومن ذلك قول الشاعر :

يبكى علينا ولا نبكي على أحد　　لنحن أغلظ أكباداً من الإبل[2]

وإن لم يتداركها انتقلت إلى صفة ملازمة ، كما قال ابن حجر نقلاً عن الخطابي : (إنما ذم هؤلاء لاشتغالهم بمعالجة ما هم فيه عن أمور دينهم ، وذلك يفضي إلى قساوة القلب)[3] .

فقلب تمكن منه الغل والغلظة بجميع معانيها من : عداوة وبغض وحسد وحقد ونفرة طبع ؛ لا بد أن يتمكن منه الغيظ إن لم تستدركه رحمة الله .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب (١٥) فتح الباري (٣٥٠/٦) .
(٢) تفسير القرطبي (٢٤٨/٤) .
(٣) فتح الباري (٣٥٢/٦) .

المبحث السادس

غيـظ القلـوب

والغيظ حـالة من حـالات القلب المريض الـذي توسط هـاوية الهلاك ، ويدل على كرب يلحق الإنسان من غيره[1] .

والغيظ : الغضب ، وقيـل غضب كامن للعـاجز ، وقيـل أشـد الغضب[2] .

وعرّفه الراغب : بأنـه أشد الغضب ، نـاتج عن الحـرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه[3] .

وهنـاك فرق بين الغضب والغيظ ، (فـالإنسان يجـوز أن يغتاظ من نفسه ولا يجوز أن يغضب عليها ، وذلك أن الغضب إرادة الضرر للمغضوب عليه ، ولا يجوز أن يريد الإنسان الضـرر لنفسه ، والغيظ يقرب من باب الغم)[4] .

وقد تولى الله إذهابه من قلوب الصفوة الطاهـرة فقال تعـالىٰ :

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٠٥) .

(٢) لسان العرب (٧/ ٤٥٠) ، القاموس المحيط ص (٩٠٠) .

(٣) المفردات ص ٣٦٨) .

(٤) الفروق اللغوية ص (١٠٦) .

﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: آية ١٤ ، ١٥] .

كما أن كظم الغيظ من صفات وأفعال المتقين ، قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : آية ١٣٣ ، ١٣٤] .

والغيظ صفة من صفات المنافقين ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : آية ١١٩] .

فهو دليل على شدة الغضب الذي يكنّوه في صدورهم حتى تمكن الغيظ من قلوبهم ، وفيه أيضاً أن هذه المرحلة بدايتها الصدر ، بدلالة ذكره في الآية ، وأن الله عليم بالخواطر القائمة في الصدر أو ما يحويه الذات .

وأيضاً بدلالة الآية التي قبلها في قوله تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: آية ١١٨] .

والمعنى : (ظهرت البغضاء في كلامهم ، لأنهم لِمَا خامرهم من شدة البغض والحسد ؛ أظهرت ألسنتهم ما في صدورهم فتركوا التقية وصرحوا بالتكذيب . وفلتات اللسان أقل مما تجنّه الصدور)[1] .

(١) التفسير الكبير (١٩٨/٨) ، فتح القدير (٣٧٦/١) والنص له .

أما الغيظ الذي في قلوب أهل الإيمان ليكون حمية لأجل الدين ، ورغبة في إعلاء دين الإسلام ، وراية لا إله إلَّا الله ؛ فهذا أمر مرغوب يدل على إيمان حقيقي أو كمال في الإيمان ، وليس هذا من باب الحسد والعدواة ، بل هو من باب : ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ ، فالحال الواحدة قد تكون خيراً تارة وأُخرى بضدها حسب نور الإيمان ، فكما أن الحسد مذموم إذا كان لتمني زوال النعمة ؛ فهو مرغوب إذا أريد منه الخير ، كأن يكون له ما لذاك الفرد حتى ينفق في سبيل الله بدون تمني زوالها عنه ، كما صرحت بذكره الأحاديث النبوية ويسمّىٰ : غبطة .

وقد ينسب الغيظ إلى غير الإنسان كما في قوله تعالىٰ في صفة النار : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان : آية ١٢] (فهو تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ)[١] وإن كان حمله على الحقيقة أولى ، فهو أمر غيبي .

والخلاصة : أن حالة الغيظ التي تكون في القلوب المريضة ، تدل على فساد الفطرة وانحرافها ، وفساد القلب وضلاله ، ونفاق في السلوك[٢] .

فصاحب الغيظ لم يبلغ بعد مرتبة النفاق العقدي ، وهو حالة مراحل موت القلب ، إنما هي نوايا سيئة تجيش في الصدر ينخدع بها المسلم ، فإذا استمر العبد في هذا الظلام كره قبول الحق والإذعان لنداء الإيمان ، فيستمر معه الكره حتى يوصله إلى الإباء .

---

(١) تفسير الألوسي (١٨/٢٤٣) .

(٢) سنفرد للنفاق باباً في نفاق القلب .

المبحث السابع

إبـاء القلـب

وإباء القلب عن الإذعان لما أمر الله مرض يؤدي إلى الكفر أو الفسق ، نسبه الله إلى القلب في قوله تعالىٰ عن المشركين : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : آية ٨] .

وأسلوب ذي الوجهين عادة المنافقين أيضاً ، والإباء كما نسب إلى القلب نسب إلى غيره .

فقد نسب الحق تبارك وتعالىٰ الإباء إلى ذاته فقال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة : آية ٣٢] .

كما نسب الإباء إلى مطلق الإنسان ،قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء : آية ٨٩] .

ونسب إلى إبليس ،قال تعالىٰ: ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : آية ٣٤] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : آية ٣١] .

كما نسب إلى السمٰوات والأرض والجبال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب : آية ٧٢] .

قال ابن فارس : الهمزة والباء والياء يدل على الامتناع ، والإباء : أن تعرض على الرجل الشيء فيأبى قبوله ، فتقول : ما هذا الإباء[1] ؟ .

ويأباه إباء وإباءة : كرهه ، ورجل أبيّ : ذو إباء شديد ، إذا كان ممتنعاً .

والإباء : أشد الامتناع[2] .

والإباء عصيان ، وقد حذر رسول الله ﷺ منه فقال : «**كل أمتي يدخلون الجنة إلاَّ من أبى ، قالوا : يا رسول الله ! ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى**»[3] .

وقال ابن حجر في معناه :(إن كان كافراً فهو لا يدخل الجنة

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٥) .

(٢) لسان العرب (١٤/ ٤) ، القاموس المحيط ص (١٦٢٣) .

(٣) صحيح البخاري كتاب الاعتصام من حديث أبي هريرة . فتح الباري (٢٤٨/١٣) .

أصلاً ، وإن كان مسلماً فالمراد منعه من دخولها مع أول داخل ، إلاَّ من شاء الله تعالىٰ)[1] .

وقال المفسرون في قوله تعالىٰ : ﴿**وتأبى قلوبهم**﴾ : (أي تأبى عليهم قلوبهم أن يذعنوا لكم بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم)[2] وهذا المعنى قريب مما ذكره جلّ المفسرين[3] .

ويدل على أن الإباء مرض قوله تعالىٰ في آخر الآية : ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة : آية ٨] .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في معنى الآية : (لا يبعد أن يكون بعض أولئك الكفار قد أسلم وتاب)[4] .

فهذا الجزء من الآية ؛ أخرج من زالت الغشاوة عن قلبه وأسلم وتاب إلى الله ، والإباء والغيظ والغلظة والغل وما حوى من معان ؛ تنم في داخلها عن قلب يغل بالحقد ، ويأبى أن يقيم على العهد ، فباطنه باطن متكبر ، بدأ النفاق ينخر فيه .

---

(١) فتح الباري (١٣/٢٥٤) .
(٢) جامع البيان (١٠/٨٤) .
(٣) القرطبي (٨/٨٠) فتح القدير (٢/٣٤٠) روح المعاني (١٠/٥٦) .
(٤) التفسير الكبير (١٥/٢٣١) .

المبحث الثامن

القلب والكبر

الكبر أوسع أبواب النفاق ، جامع لما مرّ من أنواع الزيغ والضلال ، ومقره الصدر كما قال تعالىٰ : ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ [غافر : آية ٥٦] .

وبالتحديد في النفس التي في الصدر قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : آية ٢١] .

ونسبه رسول الله ﷺ إلى القلب . ففي حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال : «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة . قال : إن الله جميل يحب الجمال . الكبر : بطر الحق ، وغمط الناس**»(١) .

ويمكن أن نقول : إن هذه صفة للقلب كما ثبتت بالسنة أيضاً

---

(١) رواه مسلم (١/ ٩٣) كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر رقم (٩١) ، وأبو داود رقم (٤٠٩١) ، في الأدب باب ما جاء في الكبر ، الترمذي (١٩٩٩) كتاب البر والصلة .

ثبتت بالكتاب ،كما في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر : آية ٣٥] .

(على قراءة أبي عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام (قلب) منوّن على أن «متكبر» نعت للقلب)(١) (وهي أيضاً قراءة ابن عامر(٢) وقتيبة عن الكسائي) .

قال القرطبي(٣) رحمه الله : (كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك (يطبع) أي يختم «على كل قلب متكبر» بإضافة قلب إلى المتكبر ، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد .

وفي الكلام حذف ، والمعنى «كذلك يطبع الله على كل قلب» على كل «متكبر جبار» فحذف «كل» الثانية لتقدم ما يدل عليها . وإذا لم يقدر حذف «كل» لم يستقم المعنى ؛ لأنه يصير معناه : أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه . وإنما المعنى : أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلباً قلباً ، ومما يدل على حذف «كل» : قول أبي دؤاد:

أكلّ امرىء تحسبين امرءاً ... ونار توقد بالليل ناراً

يريد وكل نار . وفي قراءة ابن مسعود «على قلب كل

---

(١) تفسير القرطبي (١٥/٣١٤) التفسير الكبير (٢٧/٦٣) إعراب القرآن (٤/٣٣) .

(٢) ابن عامر : عبد الله بن عامر بن يزيد أبو عمران اليحصبي ، أحد القراء السبعة ، توفي ١١٨ هـ ، الأعلام (٤/٩٥) .

(٣) القرطبي (١٥/٣١٤) .

متكبر» ، فهذه قراءة على التفسير والإضافة . وقرأ أبو عمرو وأبو محيصن[1] وابن ذكوان[2] عن أهل الشام «قلب» منوّن على أن «متكبر» نعت للقلب ، فكنّى بالقلب عن الجملة ، لأن القلب هو الذي يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ، ولهذا قال النبي ﷺ : إن في الجسد مضغة ؛ إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ ألا وهي القلب) .

ونسب التكبر إلى إبليس كما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾ [البقرة : آية ٣٤] .

وأيضاً نسب إلى فرعون وقومه قال تعالىٰ : ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [القصص : آية ٣٩] .

كما نسب إلى قوم صالح عليه السلام، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾[الأعراف :آية ٧٥].

ونسب أيضاً إلى قوم شعيب عليه السلام كما في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ ﴾ [الأعراف : آية ٨٨] .

---

(١) أبو محيصن : محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي أحد القراء ، ت ١٢٣ هـ ، الأعلام (٦/١٨٩) .

(٢) ابن ذكوان : عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان من كبار القراء ، ت ٢٤٢ هـ ، الأعلام (٤/٦٥) .

وكذلك قوم عاد كما في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [فصلت : آية ١٥] .

وقوم نوح كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح : آية ٧] .

ونسب التكبر إلى أُمم كثيرة أفسدت في الأرض بغير الحق ، تمكّن هذا الداء منهم حتى أفضى بهم إلى موت القلب الكلي ، فحرمهم الله نور الإيمان وفهم القرآن ، قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : آية ١٤٦] .

والكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصغر . يُقال : هو كبير وكبار وكبّار . قال تعالىٰ : **﴿ومكروا مكراً كبّاراً﴾** .

والكبر : معظم الأمر ، وقوله عزّ وعلا : **﴿والذي تولى كبره﴾** أي معظم أمره[1] . وقيل : الإثم ، وهو من الكبيرة كالخطْ من الخطيئة[2] .

والاستكبار : الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً .

وعرّفه الراغب بقوله الراغب بقوله : (الكبر : الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره ، وأعظم التكبر : التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١٥٣/٥) ، القاموس المحيط ص (٦٠٢) .

(٢) لسان العرب (١٢٩/٥) ، النهاية في غريب الحديث (١٤٢/٤) .

والاستكبار يُقال على وجهين :

أحدهما : أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً ، وذلك متى كان على ما يجب ، وفي المكان الذي يجب ، وفي الوقت الذي يجب ؛ فمحمود .

والثاني : أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له ، وهذا هو المذموم) .

وقال أيضاً : (التكبر يُقال على وجهين :

أحدهما : أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره ، وعلى هذا وصف الله تعالىٰ بالتكبر ، قال : ﴿العزيز الجبار المتكبر﴾ .

والثاني : أن يكون متكلفاً لذلك متشبعاً ، وذلك في وصف عامة الناس ،نحو قوله : ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: آية ٢٩] وقوله ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[غافر: آية ٣٥] بإضافة القلب إلى المتكبر ، ومن قرأ بالتنوين جعل التكبر صفة للقلب ، والكبرياء الترفع عن الانقياد ، وذلك لا يستحقه غير الله)(١) .

ولما لهذا الداء من أهمية على القلب ؛ لا بد أن ننظر له بأهمية أيضاً ، فقد وعد الله بالطبع على قلب المتكبر إذا صاحبه التجبر ، والطبع نهاية مراحل موت القلب . ووصفه بالإجرام ﴿ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الجاثية : آية ٣١] ، ووعده

---

(١) المفردات ص (٤٢١ ـ ٤٢٢) .

بالخلود في النار إذا أضاف التكذيب بآيات الله ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٣٦] ، وكثير من الآيات تنص على خلود المتكبرين في النار .

ورسول الله ﷺ حرم المتكبر من الجنة ، كما في حديث ابن مسعود الذي ذكرناه آنفاً ، وتوعده الله بالعذاب كما في حديث أبي هريرة وأبي سعيد - رضي الله عنهما - قالا : قال رسول الله ﷺ : **«العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته»**[1] .

فما هو هذا الكبر الذي إن تمكن من القلب وَصَمَهُ هذه الصفات كلها ؟ .

قال الإمام النووي في حديث ابن مسعود : (أما قوله ﷺ : **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»** فقد اختلف في تأويله ، فذكر الخطابي[2] فيه وجهين :

أحدهما : التكبر عن الإيمان ، فصاحبه لا يدخل الجنة أصلاً إذا مات عليه .

والثاني : أن لا يكون في قلبه كبر حال دخوله الجنة ، كما

---

(١) صحيح مسلم (٤/٢٠٢٣) كتاب البر والصلة حديث رقم (١٣٦) رقم التسلسل (٢٦٢٠) .

قال النووي رحمه الله : (هكذا هو في جميع النسخ ، فالضمير في «إزاره ورداؤه» يعود إلى الله تعالىٰ للعلم به ، وفيه محذوف تقديره : قال الله تعالىٰ : ومن ينازعني ذلك أعذبه) (١٦/١٧٣) .

(٢) الخطابي : أحمد بن محمد بن إبراهيم البستي ، فقيه محدث ، ت ٣٨٨ هـ ، الأعلام (٢/٢٧٣) .

قال تعالىٰ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف : آية ٤٣] .

ثم قال : وهذان التأويلان فيهما بعد ، فإن هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف وهو : الارتفاع على الناس واحتقارهم ودفع الحق ، فلا ينبغي أن يحمل على هذين التأويلين المخرجين له عن المطلوب ، بل الظاهر ما اختاره القاضي عياض[1] وغيره من المحققين أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه ، وقيل : هذا جزاؤه لو جازاه وقد يتكرم بأن لا يجازيه ، بل لا بد أن يدخل كل الموحدين الجنة إما أولاً وإما ثانياً بعد تعذيب أهل الكبائر الذين ماتوا مصرين عليها ، وقيل : لا يدخلها مع المتقين أوّل وهلة)[2] .

وقد مال ابن الأثير إلى الوجه الأول من قول الخطابي وهو : التكبر عن الإيمان ، وهو كبر الكفر والشرك[3] ، وقريب منه قول ابن كثير[4] .

وللتوفيق بين الأقوال أقول : التكبر نوعان :

الأول : تكبر في السلوك ، وهو أن يتكبر الإنسان على مخلوق مثله بالقول أو الفعل ، سواء كان بالنفس ، أو تعدى إلى القلب وظهرت آثاره على الجوارح ؛ لأن الأعضاء تبع له . فهذا النوع مرض يرجى برؤه ، فهو مجرد ترفع عن الناس أو احتقار لهم ،

---

(١) القاضي عياض بن موسىٰ بن عياض اليحصبي البستي ، عالم المغرب ، ت ٥٤٤ هـ ، الأعلام (٥/٩٩) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/٩١) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (٤/١٤٣) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/٧٩) .

إذا كان المتصف به مؤمن بالله تعالىٰ ، فالإيمان يزيد وينقص ، فهذا في حكم المشيئة إن شاء عذبه أو غفر له ، أوْ لا يدخل الجنة مع المتقين .

(وقد عرّف ابن الجوزي هذا النوع بقوله : هو تعظيم النفس واحتقار الغير ، وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه ؛ إما في النسب أو المال أو العلم أو العبادة ، أو غير ذلك ، وعلامته الأنفة ممن يتكبر عليه ، والاختيال والفخر ومحبته تعظيم الناس له)(1) .

الثاني : **كبر عقدي** ، وهو المنافي للإيمان ، ومنه الترفع عن لا إله إلاَّ الله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات : آية ٣٤ ـ ٣٦] .

فهذا الذي تمكن الكبر من قلبه فعماه وأماته ، فهو من المجرمين الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه : آية ٧٤] ، وقال أيضاً :
﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف : آية ٧٤] .

وهذا النوع مطبوع على قلبه إن كان من الجبارين ، كما قال تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : آية ٣٥] .

---

(١) الطب الروحاني ص (٣١) .

والجبار كما قال ابن كثير عن قتادة : (آية الجبابرة القتل بغير حق)[1] .

والتجبر أبلغ من التكبر ؛ لأن فخامة اللفظ تدل على فخامة المعنى ، ولا بد لجبّار الأرض من جبار السماء .

وقد سئل ابن تيمية رحمه الله عن معنى قوله ﷺ : «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» هل هذا الحديث مخصوص بالمؤمنين أم الكفار ؟ .

فأجاب : (الكبر المباين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة ، ومن هذا كبر إبليس وفرعون وغيرهما ممن كان كبره منافياً للإيمان ، والكبر كله مباين للإيمان الواجب . فمن في قلبه مثقال ذرة من كبر ؛ لا يفعل ما أوجب الله عليه ، ولا يترك ما حرم الله عليه ، بل كبره يوجب له جحد الحق واحتقار الخلق ، وهذا هو الكبر الذي فسره النبي ﷺ ، فمن كان مضيعاً للحق الواجب ، ظالماً للخلق ؛ لم يكن من أهل الجنة ، ولا مستحقاً لها ، بل يكون من أهل الوعيد .

لكن إن تاب ، أو كانت له حسنات ماحية لذنبه ، أو ابتلاه الله بمصائب كفّر بها خطاياه ، ونحو ذلك ؛ زال ثمرة هذا الكبر المانع له من الجنة ، فيدخلها)[2] .

ومثل تقسيمنا الكبر إلى نوعين نوع سلوك يرجى برؤه ، ونوع تكبر عن لا إله إلاَّ الله كفر بواح ؛ نستطيع أن نقسم النفاق .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٩) .

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٧ ـ ٦٧٨) بتصرف .

المبحث التاسع

نفاق القلب

النفاق أعم أمراض القلب وأكثرها دائرة ، يزيد وينقص ، فإن زاد كان الموت لا محالة ، وإلّا المرض ، وقد سماه الله مرضاً كما في قوله تعالىٰ ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : آية ١٠] .

وقد وردت هذه المادة بأوجه مختلفة في القرآن الكريم ، منها : (النفاق) ، تكرر بمشتقاته أكثر من ثلاثين مرّة .

اعتبره الله مرضاً من أمراض القلوب ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر : آية ٣١] .

وقال المفسرون في قوله تعالىٰ : ﴿**في قلوبهم مرض**﴾ أي من المنافقين[١] .وكقوله تعالىٰ :﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٤٤) ، تفسير القرطبي (١٩/٨٢) .

فِيهِمْ ﴾ [المائدة : آية ٥٢] .

وفي آيات أُخر فرق بين مرض القلب والنفاق ، كمثل قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال : آية ٤٩] .

وكقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب : آية ١٢] ،وفيها ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ [الأحزاب : آية ٦٠] .

فما هو النفاق ومتى يكون مرضاً من أمراض القلوب ؟ :

قال علماء اللغة : النون والفاء يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه ، والآخر : على إخفاء شيء وإغماضه .

فالأول : نفقت الدابة نفوقاً : ماتت ، ونفق الشيء : فني ، وأنفق الرجل : افتقر ، أي ذهب ما عنده ،ومنه قوله تعالىٰ ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ [الإسراء : آية ١٠٠] .

والأصل الآخر النفق : سرب في الأرض له مخلص إلى مكان ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الأنعام: آية ٣٥] .

ومنه اشتقاق النفاق ، لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر ، فكأن الإيمان يخرج منه ، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء ،

وعلى ذلك نبّه بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة : آية ٦٧] أي الخارجون من الشرع[١] .

وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه .

وبالرجوع إلى آيات الذكر الحكيم والسنة المطهرة وكلام السلف ؛ نجد أنه يجتمع في قلب العبد إيمان ونفاق ، كما قال ﷺ في حديث تقسيم القلب : «**وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه**»[٢] .

فمن منطلق الحديث النبوي نقول : إنه لا مانع أن يجتمع في القلب إيمان ونفاق ، وقد قال بذلك علماء السلف .

قال ابن تيمية : (إن الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب النفاق ، وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية ، كما قال الصحابة ابن عباس وغيره : كفر دون كفر وهذا قول عامة السلف وهو الذي نص عليه أحمد وغيره)[٣] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٤٥٤) ، المفردات ص (٥٠٢) ، لسان العرب (١٠/٣٥٩) ، بصائر ذوي التمييز (٥/ ١٠٥) .

(٢) جزء من حديث أبي سعيد الخدري ، رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٧) .

وقال عنه ابن كثير في تفسيره (١/٥٦) : إسناده جيد حسن .

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٣٥٠) .

فعلى هذا ؛ النفاق قسمان :

الأول : نفاق عملي، وهو نفاق سلوك ، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن ؛ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر»**(1) .

الثاني : نفاق كفر ؛ وهو نفاق اعتقادي رسخ في القلب ، فهذا نفاق خالص ، صاحبه ميت القلب ، مطفأ النور تماماً ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ [الحديد : آية ١٣] .

وسنتكلم عن النفاق في دائرة القلب فقط ، باعتبار القسم الأول مرض في قلب مسلم فيه شيء من الكذب في الحديث ؛ أو الخيانة في الأمانة ، أو خلف في الوعد ، أو غدر في المعاهدة ، أو فجور في الخصومة ، مفردة أو مجموعة ، وباعتبار اشتمالها على القول والفعل والنية ؛ ففساد القول بالكذب ، وفساد الفعل بالخيانة ، وفساد النية بالخلف . وباعتبار القسم الآخر موت القلب .

وقد قال الإمام النووي في شرحه لحديث عبد الله بن عمرو ـ السابق ـ : (هذا الحديث مما عدّه جماعة من العلماء مشكلاً ، من

---

(1) صحيح البخاري كتاب الإيمان (٢٤) واللفظ له ، فتح الباري (١/٨٩) صحيح مسلم (١/٧٨) كتاب الإيمان (١٠٦) .

حيث إن هـذه الخصال تـوجد في المسلم المصـدِّق الذي ليس فيـه شك ، وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليـه بكفر ، ولا هـو منافق يخلد في النـار ، فـإن إخوة يـوسف ﷺ جمعـوا هـذه الخصـال ، وكـذا وجـد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله . وهـذا الحديث ليس فيـه بحمد الله إشكال ، ولكن اختلف العلماء في معناه . فالذي قاله المحققون والأكثـرون وهو الصحيـح المختـار ، أن معنـاه : إن هـذا الخصـال خصال نفاق ، وصاحبها شبيـه بالمنـافقين في هذه الخصـال ومتخلق بأخلاقهم ، فإن النفاق هو : إظهار مـا يبطن خـلافه ، وهـذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصـال ، ويكون نفـاقه في حق من حـدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس ، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفـر ، ولم يرد النبي ﷺ بهـذا ؛ أنه منـافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار)[1] .

وهذا المعنى ارتضاه الإمـام القرطبي ، واستـدل له بقـول عمر لحذيفة ـ رضي الله عنهما ـ : هل تعلم فيَّ شيئاً من النفاق ؟ فإنه لم يرد بذلك نفاق الكفر وإنما أراد نفاق العمل ، كما ارتضاه الإمام ابن حجر العسقلاني[2] .

ولـو تتبعنا أمـراض القلب من النكتـة السـوداء وحتى الكبـر ؛ لوجدناها تندرج تحت مرض النفاق ، أو هي دركات يهبط فيها العبد واحـدة بعد أخـرى ؛ حتى يصل إلى وسط الهـاوية ، وإلاَّ تعمق إلى النفاق العقدي ، فيصعب عليه رجوعه إلى الإيمان .

فنفـاق السلوك من أكبر الـذنـوب ؛ لأن قـولـه يخـالف فعله ،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/٤٦ ـ ٤٧) .
(٢) فتح الباري (١/٩١) .

وسرّه يخالف علانيته ، وكما يسمّى نفاقاً يسمى تقية ، ويستعمل هذا الأسلوب لينجو من مخاوف كاذبة يتوقعها ، أو ليشبع ما في باطنه من الكبر الذي أداه إلى احتقار أخيه المسلم .

فهو يرى أنه في مكانة مادية أو اجتماعية تسمح له بأن يفعل ما يريد ، أو لا تسمح له أن ينزل إلى مستوى العبيد ، فالناس في نظره ليسوا سواسية . فالشك رائده في صحة ما يسمع ، والكبر حجته في كل ما يفعل ، فإذا بقلبه يسري فيه الصدأ والسواد ، فيبدأ في مرحلة التبلد لا يستطيع الموازنة بين الخير والشر ، وقد لا يحاول ذلك لتبدل القيم في قلبه الذي بدأ في الانتكاس من خير إلى رجس ، فلا يثق إلاَّ بالمحسوس الذي يوافق هوى نفسه ، وينفعل لما تمليه عليه شهواته ورغباته .

وقد قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية : آية ٢٣] : (المنافق لا يهوى شيئاً إلاَّ ركبه) ، وبذلك قال قتادة[١] ، أورده أبو بكر الفريابي بسنده ، وقد قال الحسن البصري رحمه الله : (لأن أعلم أني بريء من النفاق ؛ أحب إلي من طلاع الأرض ذهباً)[٢] .

وقد أورد الفريابي بسنده عن أبي أيوب الأنصاري قال : (يأتي على الرجل أحايين وما في جلده موضع إبرة من النفاق ، وإنه ليأتي عليه أحايين وما في جلده موضع إبرة من الإيمان)[٣] .

---

(١) صفة النفاق وذم المنافقين ص (٤٦) جعفر بن محمد الفريابي ، ت ٣٠١ هـ ، تحقيق محمد عبد القادر عطا .
(٢) صفة النفاق وذم المنافقين ص (٥٤) رقم (٧٧) .
(٣) صفة النفاق وذم المنافقين ص (٥٧) رقم (٨١ ، ٨٢) .

فعلى قدر مكانة الإيمان في القلب ؛ يبعد الإنسان عن النفاق ، وبقدر زيادة الأعمال السيئة ؛ يضعف الإيمان حتى لا يبقى إلاَّ أثره .

ففي حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ المتفق عليه قال : حدثنا رسول الله ﷺ : **«إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة»** ، وحدثنا عن رفعها قال : **«ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الوَكْت ، ثم ينام النومة فتقبض ، فيبقى فيها أثرها مثل أثر المَجْل ، كجمر دحرجته على رجلك فَنَفِطَ ، فتراه مُنْتَبِراً وليس فيه شيء ، ويصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدّي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويُقال للرجل : ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . .»** الحديث[1] .

فالحديث يوضح حال مسلمين تعلموا القرآن ثم تعلموا السنة ، وهم من أهل القرنِ الأول بدلالة قوله في آخر الحديث ـ : **«ولقد أتى علي زمان ولا أُبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً ردّه علي الإسلام ، وإن كان نصرانياً رده عليّ ساعيه ، وأما اليوم فما كنت أبايع إلاَّ فلاناً وفلاناً»** ـ ثم يتحدث عن حالات وقعت في

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق ، باب (٣٥) ، فتح الباري (١١/٣٣٣) مسلم بشرح النووي (١/ ١٦٧) كتاب الإيمان . وقال ابن حجر في معنى قوله «من إيمان» : قد يفهم منه أن المراد بالأمانة في الحديث الإيمان ، وليس كذلك ، بل ذكر ذلك لكونها لازمة الإيمان .

ومن كلمات الحديث : (الوكت : ومعناه النقطة في الشيء ، المجل : أن يكون بين الجلد واللحم ماء ، والنفط : القرحة ، والنبرة : الورم في الجسد) . المعاني من القاموس .

عصره أو ستقع في القرون التي تليه ؛ إذ تـرفع الأمـانة من القلوب : والأمانة تشمل عموم التكاليف ، وعلى رأسها الإيمـان ، سواء كـانت قولية أو فعلية أو اعتقادية .

فزيادة المعـاصي تعني تحللاً من التكاليف ، فينقص الإيمـان الذي يعم القلب . وبقدر خـروج النور يحـل الظلام ، فيكـون «مثل أثر الوكت» سواد في اللون من أثر العمل ، ثم تزيـد في القلب حتى تصير نفطات فيه «كجمر دحـرجته على رجلك فنفط» منتفخاً لا شيء فيه ، فيسلب الأمانـة شيئاً فشيئـاً ؛ حتى يصير خـائناً ، بعـد أن كان أميناً .

ومن صفات المنافق الخيانة ، وما تقدم من الصفات فهو نفـاق في السلوك ، والقلب لا يـزال حياً ، ولكن بـه مرض مشـابـه تمـامـاً للنفـاق الحقيقي ، أي ميت القلب الـذي لا رجـاء فيـه . كمـا قـال تعالىٰ : ﴿ إِذْ يَـقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال : آية ٤٩] .

فصـاحب القلب المريض والمنـافق ؛ جمع بينهمـا في موقف واحد ومقالـة واحدة وسلوك واحـد ، فدل على أنـه نوعـان كما سبق بيانه ، ولكن هذا القلب المريض الذي لا زالت به حياة ، الأيام بعد ذلك تنهي ، من خلال الابتلاء والتكاليف ؛ إلى مـا يثبت أنه آل إلى النفاق الحقيقي بالموت ، أو إلى الشفاء من النفاق بالإيمان .

وقد حث الحق تبارك وتعالىٰ رسولـه ﷺ أن يعامـل هذه الفئـة معـاملة خـاصـة ، فقـال جـلَّ مِنْ قـائـل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء :آية ٦١ ـ ٦٣] .

فهنا ثلاث طرق قد تحيي هذه القلوب المريضة :

الأول : ﴿**فأعرض عنهم**﴾ أي : لا تعنّفهم على ما في قلوبهم .

الثاني : ﴿**وعظهم**﴾ أي : أفهمهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر .

الثالث : ﴿**وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً**﴾ أي : وانصحهم فيما بينك وبينهم ، بكلام بليغ رادع[1] .

ولو وصلوا إلى النفاق الحقيقي المشرب في القلب ؛ فإنه لا فائدة من هذه الطرق ، ولكن الحق أعلم بما في القلوب .

وبمثل ما قلنا في النفاق نقول في الكفر ، وبما مر فيه من استشهادات نستصحبها .

---

(١) تفسير المعاني مقتبس من : تفسير ابن كثير (١/ ٥١٩) .

المبحث العاشر

الكفـر والقلـب

في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قال : **«بـادروا بالأعمـال فتناً كقـطع الليل المـظلم ، يصبح الـرجل مؤمنـاً ويمسي كـافراً ، ويمسي مؤمنـاً ويصبح كـافراً ، يبيـع دينـه بعـرض الدنيا»**(1) .

فليس المراد بالكفر المخرج عن الملّة، إذ لا مانـع أن يجتمع في قلب العبـد إيمـان وكفـر لا يخـرجـان عن الملة ، (فلعظم الفتن يتقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب) كمـا قال النـووي في شرحه للحديث .

وفي الكفر قاعـدة لغويـة تفرق بين مـا يخرج عن الملة ومـا لا يخرج منه ، فالمقيد والمنكّـر في سياق إثبـات لا يخرج عن الملة ، والمطلق والمعرَّف يخرجان من الملة(2) .

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (١/١٣٣) كتاب الإيمان، باب : الحث على المبادرة بالأعمال .

(2) حد الإسلام وحقيقة الإيمان ص (٥٨٧) .

فالكفر مرتبط بانشراح الصدر له ، كما قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل : آية ١٠٦] .

فمن شرح صدره للكفر واطمأن به ؛ فهذا المستحق لغضب الله ، الذي طبع الله على قلبه أو ختم عليه ، أما من كفر بلسانه ، ووافق المشركين بلفظه مكرهاً ، وقلبه يأبى ذلك ؛ فهذا مستثنى من الكفر الحقيقي ، فالكفر الحقيقي أوضحه الله بقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ و [illegible] كْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُوْلَ [illegible] ـٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَا[illegible]ـبًا مُّهِينًا﴾ [النساء : الآيـ[illegible] ١٥٠ ـ ١٥١][1] .

أما الكفر السلوكي فقد أوضحه الحق في قوله : ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى : آية ٤٨] .

(فهو يجحد ما تقدم من النعم ، ولا يعرف إلاّ الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط)[2] وليس هذا بمخرج عن الملّة . مَثَلُهُ أيضاً في قوله تعالى :

---

(١) سيرد إيضاح الكفر الحقيقي في موتى القلوب .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/١٢١) .

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : آية ٣٤] فالمراد به كفر النعمة ، يجمع ويمنع .

وكقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت**»(١) .

والمراد أنها من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية ، أو أنها تؤدّي إلى الكفر ، أو أنه كفر النعمة والإحسان ، كما قال الإمام النووي .

فالمقصود أن السلوك المريض ، سواء كان مرض نفاق أو مرض كفر ؛ قد يؤدّي إلى موت القلب إن لم يتدارك الله العبد برحمته ، ويتدارك العبد نفسه ؛ باتباع شرع الله والبعد عن المعاصي .

ولقد أثر عن ابن تيمية وصيّته الجامعة لتلميذه ابن القيم ، إذ قال له :

(لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات ، مثل السفنجة ، فيتشربها فلا ينضح إلاَّ بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة ؛ تمرّ الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها ، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته ، وإلاَّ فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمرّ عليك ؛ صار مقراً للشبهات)(٢) .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب ، شرح النووي (٢/٥٧) .

(٢) الداء والدواء ص (٨) .

المبحث الحادي عشر
أثر الذنوب على القلب

وذكر ابن القيم في كتابه «الجواب الكافي» أثر الذنوب على حياة الإنسان وشخصيته ، أذكر منه ما يخص القلب .

وقد استشهد على قوله ببعض من نصوص الوحي .

فقال رحمه الله : (وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة ، المضرة بالقلب والبدن ، في الدنيا والآخرة ؛ ما لا يعلمه إلَّا الله .

فمنها : حرمان العلم . فإن العلم نور يقذفه الله في القلب .

والمعصية تطفىء ذلك النور .

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك ـ رحمهما الله ـ وقرأ عليه ؛ أعجبه ما رأى من وفور فطنته ، وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال : إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية)[1] .

والحق تبارك وتعالىٰ وعد عباده المتقين البعيدين عن المعاصي

---

(١) الداء والدواء ص (٧٤) وسيرد إيضاح لذلك في باب القلب والمعرفة .

بوفرة العلم فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٢٨٢] .

فالمعاصي إذا تراكمت على القلب سلبته العلم والفقه ، فيطبع عليه ، والطبع لا يكون إلاَّ على قلب مسلوب الفقه والعلم ، كما قال تعالىٰ :﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : آية ٥٩][(١)] .

ومنها : (وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله ، لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها ؛ لم تف بتلك الوحشة ، وليس على القلب أمرّ من وحشة الذنب على الذنب)[(٢)] .

وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : آية ١٢٥] .

فالمعاصي تنكت في القلب نكتة بعد أُخرى ، فيصاب القلب بالضيق والوحشة يظهر أثرها على الجوارح . لا تجد من تمادى في غيه ، يرتاح لسماع الحق من أهل الورع والديانة ، إنما يرتاع منهم وينقبض قلبه .

ومنها : (ظلمة يجدها في قلبه حقيقة ، يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادْلَهَمَّ ، فتصير ظلمة لقلبه كالظلمة الحسية

---

(١) أذكر في باب الطبع على القلب أثر الطبع على سلوك الفرد .

(٢) الداء والدواء ص (٧٥) .

لبصره ، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة إزدادت حيرته ، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر)[1] .

وقد أوضح الله في كتابه هذه الظلمة بقوله تعالىٰ ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : آية ٢٠] .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : آية ٣٩] .

أما من طمست بصيرته وعم السواد قلبه وانتكس ، أوضحه الحق بقوله: ﴿ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : آية ٤٠] .

فمن أثر الظلمة تجده في حيرة ، فكلما أضيء في قلبه وبيص من نور الفطرة أو نور الإسلام هدأ وارتاح ، وإذا غطي بالسيئات احتار وتاه ، فهو يتخبط خبط عشواء ، لا زالت فيه نقطة خير ، فإما أن تظهر أو تخبو ، فيختم على القلب بعد أن يعمّه الظلام ويطبق عليه ، فلا يعي من الحق شيئاً .

(١) الداء والدواء ص (٧٦) .

ومنهــا : أن المعـاصي تضعف القلب وتــوهنــه عن مقــابلة الأعداء . وما انتصر المسلمون في الفتـوحات الإسـلامية ؛ إلَّا بقـوة القلوب التي اكتسبـوها من قـوة الإيمـان ، ومـا انهـزم أعـداؤهم إلَّا بضعف القلوب ، مع كثرة عَدَدِهم وعُدَدِهم بالمقارنة إلى عَدَد وعُـدَد المسلمين ، ومــا تقـوقــع المسلمـون في حــاضـرهم ؛ إلَّا بكثــرة المعاصي التي وهنت القلوب .

وفي حديث ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : **« يوشك الأمم أن تـداعى عليكم كما تـداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقـال قائـل : من قلة نحن يومئـذ ؟ قـال : بـل أنتم يـومئـذ كثيـر ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنّ الله من صـدور عدوكم المهـابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الـوهن . قالـوا : وما الـوهن يا رسـول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »**[1] .

فـالمعاصي سبب الـرعب والخوف والجبن والهلع ، فـالطاعـة حصن الله الأعـظم ، بهـا يسمـو الإنسـان إلى مــراتب الاطمئنـان . فالقلوب لا تهدأ إلَّا في كنف الله وحمى شرعه ، ولا تعمى بصيـرتها وينطمس نورها ، وتحجب عن العلم الحق والهداية الأبدية ؛ إلَّا في كنف الشيطان ومهاوي وساوسه وضـلالاته . وشتّـان بين قلب يتقرب إلى الله حتى يكون معه في كل جارحة ، وبين قلب يستذله الشيطان بمعاصيه وذنوبه .

---

(١) رواه أبـو داود رقم (٤٢٩٧) في المـلاحم بـاب : في تـداعي الأمم على الإسـلام ، وفي سنده أبـو عبـد السـلام صـالح بن رستم الهـاشمي وهـو مجهـول ، ولكن رواه أحمد (٥/٢٧٨) ، من طـريق آخر وسنـده قـوي ، جامع الأصول (٩/٢٨) برقم (٧٤٨١) .

الباب الرابع

مراحل موت القلب
والألفاظ المقاربة له

- **الفصل الأول : معنى الموت والألفاظ المقاربة له .**
- **الفصل الثاني : خصائص القلوب الميتة .**

الفصل الأول

معنى الموت والألفاظ المقاربة له

- **المبحث الأول : أثر الذنوب في موت القلب .**
- **المبحث الثاني : تعريف الموت .**

المبحث الأول

أثر الذنوب في موت القلب

في حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**إياكم ومحقرات الذنوب ؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ؛ حتى يجمعوا سواداً ، فأججوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها**»[1] .

هذا الحديث يوضح لنا أن الذنوب والمعاصي تتراكم على العبد حتى تهلكه ، وأصل ذلك أن القلب يتأثر بالمعصية وتغطيه حتى تصير راناً ، ثم يغلب عليه حتى يصير طبعاً وقفلاً ، فيصير القلب في غشاوة ، فيتولاه الشيطان ويسوقه حيث يريد ، فالقلب إذا اتصف بحالة من أمراضه ؛ فكل حالة إن أصبحت ملكة فيه لا بد أن تصحب في باطنها صفات ذميمة . فالصغو الذميم يؤدّي إلى الزيغ ، والزيغ تمرد وغواية يؤدي إلى حرمان الهداية ، ومن ثم إلى الفسق ،

---

(١) مسند أحمد (١/٤٠٢، ٥/٣٣١) ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين . الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (٣٨٩) .

فالسواد على القلب يبدأ مرحلة بعد أخرى ، وكلها مراحل تبلد ؛ تجعل المتصف بها لا يستطيع الموازنة بين الخير والشر . فبقدر خروج النور يحل الظلام حتى يعم ، وبقدر خروج النور يسلب الإيمان ، سواء كان إيمان فطرة أو أعلى من ذلك ، فتصير المعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة ، فلو ترك المجرم المعصية وأقبل على الطاعات لضاقت على نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها ، ولا يزال يألف المعصية ويحبها ويؤثرها ، حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزاً . فإذا بالأمراض تقربه من الهلاك ، وهلاك العبد موت قلبه . ولكن الموت مراحل كما أن سواد القلب مراحل ، حتى يعود كالكوز مجخياً . كذلك مراحل الموت تبدأ باللهو وتتدرج إلى الطبع ، ونعتبر الموت الحقيقي للقلب هو الختم الذي تصاحبه الغفلة ، ولا يكون ذلك إلاّ بتفضيل الدنيا على الآخرة ، وانشراح الصدر للكفر العقدي . وسنتحدث عن مراحل موت القلب بعد التعرف على معاني الموت وشمولها .

المبحث الثاني

تعريف المـوت

الميم والـواو والتاء أصـل صحيح يـدل على ذهـاب القـوة من الشيء .

منـه الموت : خـلاف الحيـاة[1] ، أو هـو حـادث تـزول معـه الحياة[2] . ويطلق على عدة أُمور منها[3] :

الموت : السكون : يُقـال ماتت الـريح أي سكنت ، وكـل ما سكن فقد مات .

وأيضاً الموت : النوم ، يُقال : مـات الرجـل وهمد وهـوم إذا نام .

ويُقال الموت : البِلَى : يُقال مات الثوب ، إذا خَلِقَ وَبَلَى .

ولـكن الـمـوت : خلق مـن خلق الله تـعـالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [الملك : آية ٢] .

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٢٨٣) .

(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٥٦٩) .

(٣) لسان العرب (٢/٩٠) ، القاموس المحيط ص (٢٠٦) ، تاج العروس (١/٥٨٥) .

والموت : نقض البنية الحيوانية ، وهو عرض يضاد الحياة ، ولا يكون إلاَّ من فعل الله(1) .

والموت : نفي الحياة مع سلامة البنية ، والموت يتعدد إلى أنواع بحسب أنواع الحياة(2) :

فالأول : ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الإنسان والحيوان والنبات .

نحو قوله تعالىٰ : ﴿ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم : آية ٥٠] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ [ق : آية ١١] .

الثاني : زوال القوة الحاسة ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ [مريم : آية ٢٣] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ [مريم : آية ٦٦] .

الثالث : زوال القوة العاقلة : وهي الجهالة . قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام : آية ١٢٢] ، وإياه قصد بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [النمل : آية ٨٠] .

الرابع : موت بالتشبيه ، وهو كل أمر جلل يكدر العيش

---

(1) الفروق اللغوية ص (٨٣ ، ٨٤) .

(2) المفردات ص (٤٧٦) ، بصائر ذوي التمييز (٤/٥٣٦) ، تاج العروس (١/٥٨٦) .

وينغص الحياة ، كالحزن . كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم : آية ١٧] .

الخامس : المنام ، كما يُقال : النوم موت خفيف ، والموت نوم ثقيل ، وعلى هذا النحو سمّاهما الله توفّياً ،قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : آية ٤٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ [الأنعام: آية ٦٠] .

ويستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر ، والذل ، والسؤال ، والهرم والمعصية .

ويُقال : فلان ما أموته : أي ما أموت قلبه ، لأن كل فعل لا يتزيد لا يتعجب منه ، فالموت لا يتعجب منه لأن شرط التعجب أن يكون مما يقبل الزيادة والتفاضل ، وما لا يقبل ذلك كالموت والفناء والقتل ؛ لا يجوز التعجب منه[١] .

كما يُقال : رجل موتان الفؤاد : أي بليد غير ذكي ولا فَهِم ، كأن حرارة فهمه بردت فماتت[٢] .

وذكر أهل التفسير أن الموت في القرآن على أوجه[٣] :

أحدها : **الموت نفسه** : ومنه قوله تعالىٰ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : آية ١٨٥]

---

(١) تاج العروس (١/٥٨٧) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥/٢٨٣) ، تاج العروس (١/٥٨٧) .

(٣) نزهة الأعين النواظر ص (٥٦٩) ، إصلاح الوجوه ص (٤٤٥) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : آية ٣٠] .

الثاني : الضلال : ومنه قوله تعالىٰ : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [الأنعام : آية ١٢٢] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ [النمل : آية ٨٠] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر :آية٢٢] .

الثالث : الجدب ، وهو قلّة النبات . ومنه قوله تعالى : ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ [الأعراف : آية ٥٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [فاطر : آية ٩] .

الرابع : الحرب ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ [آل عمران : آية ١٤٣] .

الخامس : الجماد : ومنه قوله تعالىٰ عن الأوثان التي يعبدونها : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ [النحل : آية ٢١] .

السادس : الكفر ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [آل عمران : ٢٧] .

السابع : ذهاب الروح عقوبة من غير استيفاء الأجل والرزق ، ومنه قوله تعالىٰ لبني إسرائيل : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : آية ٥٦] ، وقوله : ﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾[البقرة:آية٢٤٣].

وهذه المادة ذكرت في القرآن الكريم أكثر من مائة وخمسين مرة بعموم تصاريفها . ونسب الموت للنفس في أكثر من موضع ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : آية ١٤٥] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : آية ١٨٥]، ومثله في [آية ٣٥ الأنبياء ، وآية ٥٧ العنكبوت] .

وكما نسب إلى الإنسان كقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء :آية٣٤] وكقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ [البقرة : آية ٢٥٩] .

كما نسب إلى الأرض كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [النحل : آية ٦٥] ،وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم :آية ١٩] .

أما القلب فلم ينسب له الموت صراحة في كتاب الله ، إنما وردت إشارات كثيرة تدل على ذلك ، فعندما استبطأ الله قلوب المؤمنين عاتبهم بقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : آية ١٦] ، أتبعها بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد : آية ١٧] .

(فيه إشارة إلى أن الله يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلّتها ، ويفرج الكروب بعد شدّتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل)[1] .

وأيضاً هناك إشارة في مثل قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام : آية ١٢٢] .

فهذا مَثَل ضربه الله تعالىٰ للعبد الذي كان ميتاً ، أي : في الضلالة هالكاً حائراً ؛ فأحياه الله ، أي : أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ، ووفقه لاتّباع رسله .

كما وهناك دلالة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر : آية ١٩ ـ ٢٢] ، فكما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة ؛ كذلك لا يستوي المؤمنون ـ وهم الأحياء ـ والكافرون ـ وهم الأموات ـ .

ومنها في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٣١١) .

إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۞ وَمَا أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل : آية ٨٠ ، ٨١] .

فالمراد موتى القلوب ، ومن على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم وقر الكفر .

الفصل الثاني

خصائص القلوب الميتة

- **المبحث الأول : متى يموت القلب .**
- **المبحث الثاني : لهو القلب .**
- **المبحث الثالث : القلب المغمور .**
- **المبحث الرابع : القلب المنكر .**
- **المبحث الخامس : اشمئزاز القلب .**
- **المبحث السادس : إكنان القلب .**
- **المبحث السابع : القلب المرتاب .**
- **المبحث الثامن : تقطيع القلب .**
- **المبحث التاسع : أغلفة القلب .**
- **المبحث العاشر : إشراب القلب .**
- **المبحث الحادي عشر : الإسلاك في القلب .**
- **المبحث الثاني عشر : صرف القلب .**
- **المبحث الثالث عشر : إحالة الله بين العبد وقلبه .**
- **المبحث الرابع عشر : تقليب القلوب والأفئدة.**

- المبحث الخامس عشر : القلب الأعمى .
- المبحث السادس عشر : الران على القلب .
- المبحث السابع عشر : القفل على القلب .
- المبحث الثامن عشر : الطبع على القلب .
- المبحث التاسع عشر : الختم على القلب .
- المبحث العشرون : القلب الغافل .

المبحث الأول

متى يموت القلب

لفظ الموت لم ينسب صراحة للقلب في القرآن الكريم لحكمة أرادها الله . منها : أنه مهما بلغت بالقلب مراتب الضعف والمرض قد يشاء الله له بالهداية فيحييه بعد موته .

وأيضاً هناك موت دون موت ، كما في تعدد معانيه : كالسكون والنوم والبلى ، أو تعدد أنواعه كالجهل ، أو زيادة الكدرات من الآثام ، أو موت مؤقت كالنوم ، أو تعدد أوجهه ، كالضلال والجدب ، أو ذهاب الحياة منه لفترة ثم عودتها إليه مرة أخرى .

وأيضاً فكما أن هناك موت دون موت هناك كفر دون كفر[1] ، أي هناك كفر سلوك وكفر عقيدة ، وكفر العقيدة متفاوت أيضاً ، فمن بلغ به الكفر الحقيقي آخر مداه فهذا لا يؤمن ، وقد ختم على قلبه كما صرح بذلك الحق تبارك وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ

(١) سبق شرحه مفصلاً في أمراض القلوب .

سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٦ - ٧] .

وأيضاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : آية ٩٧] .

وكما قال عزّ من قائل : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَۚ ﴾ [البقرة : آية ١٤٥] .

فمن بلغ من الكفر مداه ، وكتب عليه الشقاء ؛ فلا يؤمن بحال من الأحوال . وهذا هو الكفر التام الحقيقي .

فالقلب الموجود فيه نور الفطرة ، وإن غطي بالشبهات والشهوات ، وانحرف عن الجادة وعادى الإسلام بكل ما لديه ، ولم ينطفىء من الفطرة نورها ، فسيعود إلى الإسلام إذا وجد من يهديه إليه ، وهذا نقوله على أكثر صحابة المصطفى ﷺ عندما كانوا في غيابت الشرك والضلال ، فمنهم من حارب الإسلام والمسلمين . فلما أزيحت الغشاوة عن قلبه ظهر نور الفطرة واستجاب للإيمان . وأصبح العون الأول له واليد الكبرى الذي بها يبطش ، فهؤلاء لم تحق عليهم كلمة العذاب ولم يبلغوا الكفر التام ، وهكذا كل من آمن من بعدهم إلى قيام الساعة ، لهذا نجد الفقهاء لا يجيزون لعن الكافر بعينه ؛ إنما أجازوا لعن الكفار مطلقاً ، فالكافر بعينه قد تكون فيه بقية من النور فيؤمن .

أما من اسود قلبه وانكفأ حتى عاد كالكوز مجخياً ، كأبي جهل

وأمثـــالـه ومن حـــذا حـذوهم ؛ فهؤلاء مـــوتى القلوب ، لا يؤمنـون مطلقاً .

وقد ورد في السنة النبـوية تصـريح بمـوت القلب ، ففي سنن ابن ماجه حديثان :

الأول : «**عن أبي أُمــامـة عن النبي ﷺ قــال : من قــام ليلتي العيدين محتسباً لله لم يمت قلبه يوم تموت القلوب**»[1] .

أما الحديث الثاني فقد ورد بسندين مختلفين يجتمعان في أبي هـريرة ـ رضي الله عنـه ـ الأول : قال رسـول الله ﷺ : «**لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب**»[2] .

والثاني : قال رسول الله ﷺ : «**يا أبا هريـرة ! كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قنعاً تكن أشكر النـاس ، وأحب للناس مـا تحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن جـوار من جاورك تكن مسلمـاً ، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب**»[3] .

وهذا الحديث نستدل به على كثـرة الضحك المغـرق ؛ الذي يكـون دليلاً على لهـو القلب عن جادة الحق ، وعن الاستمـاع لقول الحق . وَلَهْوُ القلب مرض شديد ومرحلة من مراحل الموت[4] .

---

(١) سنن ابن ماجه (١/٥٦٧) ، حـديث رقم (١٧٨٢) كتاب بـالصيام ، بـاب (٦٨). والحديث إسناده ضعيف لأن فـي إسنـاده : بقية بـن الوليد ، وهو متهم بالتدليس .

(٢) سنن ابن مـاجه (٢/١٤٠٣) ، حـديث رقم (٤١٩٣) كتـاب الـزهـد بـاب (١٩) وإسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٣) سنن ابن ماجه (٢/١٤١٠) حديث رقم (٤٢١٧) كتاب الزهد بـاب (٢٤) وإسناده حسن .

(٤) معجم مقاييس اللغة (٥/٢١٣) .

المبحث الثاني

لهو القلب

قال ابن فارس : اللهو : وهو كل شيء شغلك عن شيء فقد ألهاك[1] .

أو هو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، يُقال : لهوت بكذا ولهيت عن كذا ، ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو[2] .

ويُقال : اللهو : هو الشيء الذي يتلذذ به الإنسان فيلهيه ثم ينقضي[3] .

أو هو : لعب لا يعقب نفعاً ، لأن اللعب قد يكون للتأديب ولا يُقال له لهو[4] .

واللهو : ذهول وغفلة عن الحق[5] .

---

(١) المفردات ص (٤٥٥) .

(٢) التعريفات ص (١٩٤) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٢١٠) .

(٤) التفسير الكبير (١٤١/٢٢) .

(٥) نزهة الأعين النواظر ص (٥٣٥) ، إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٢٣) .

وذكرت المادة في القرآن الكريم ست عشرة مرة ، وارتبطت بالقلب في قوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ [الأنبياء : آية ١ - ٣] .

وذكر بعض المفسرين أن اللهو في القرآن على ستة أوجه :

أحدها : الاستهزاء والسخرية . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ [الأنعام : آية ٧٠] .

الثاني : الولد .ومنه قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ [الأنبياء : آية ١٧] .

وقال الحسن وقتادة : أراد به المرأة .

الثالث : ضرب الطبل : ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة : آية ١١] .

الرابع : السرور الفاني :ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الحديد : آية ٢٠] .

الخامس :الغناء :ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [لقمان : آية ٦] .

وهو قول ابن مسعود وابن عمر .

السادس :الشغل والمنع :ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ

يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ [الحجر : آية ٣] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون : آية ٩] .

وإذا نظرنا إلى الأوجه التي وردت بها معاني اللهو قد تكون مرضاً من أمراض القلوب ، ولكن إذا بلغت موضع التأمل والتدبر والتفكر وهو القلب ، ووجدته فارغاً لا يعرف الجد تمكنت منه ، فبدلاً من أن يكون حالة من حالاته مؤقتة ، إذا بها صفة لازمة له ، تجعله يلهو في أخطر المواقف ويهزل في مواطن الجد .

وقال المفسرون في قوله تعالىٰ ﴿**لاهية قلوبهم**﴾ : (أي ساهية قلوبهم معرضة عن ذكر الله متشاغلة عن التأمل والتفهم)[1] ، (غافلة معرضة بمطالبها الدنيوية وأبدانهم لاعبة ، قد اشتغلوا بتبادل الشهوات والعمل الباطل والأقوال الردية)[2] .

(لأن الانتفاع بما يسمع لا يكون إلَّا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر ، وإذا كانوا عن استماعه لاعبين ؛ حصلوا على مجرد الاستماع الذي قد تشارك البهيمة فيه الإنسان)[3] .

(فهم في غفلة تامة وجهالة عامة ، من توحيده تعالىٰ والإيمان بكتبه ورسله عليهم السلام ، ووقوع الحساب ووجود الثواب والعقاب ، وسائر ما جاء به النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم ،

---

(١) تفسير القرطبي (١١/٢٦٨) .
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٠٨) .
(٣) التفسير الكبير (٢٢/١٤١) .

ومن غفل عن مجازاة الله تعالىٰ له المراد من الحساب ، صدر منه كل ضلالة ، وركب متن كل جهالة)[1] .

فاللهو لا بد أن يسوق الإنسان إلى كثير من المكاره ، فيغتر بظواهر الأمور وهذا فعل الجهال والصبيان ، وعواقبه غير محمودة ، فإن كثرته تدل على كثرة الجهل والعماية والحيرة ، وكل شيء كثر غمر صاحبه وغطاه وعلا عليه ، ويُقال للشيء إذا كثر : هذا كثير غمير ، فاستمرار الإصرار على المعاصي والانهماك في اللهو والجهل لا بد أن يكسب القلب حالة أعلى من اللهو ، لا بد أن يغتمر القلب بها فتغطيه ، ومن الغطاء ما طمس فينتقل من حالة قد تزول إلى صفة ملازمة ، فيسمى القلب المغمور .

---

(١) روح المعاني (٦/١٧) .

المبحث الثالث

القلب المغمور

ومادة (غمر) تكررت في القرآن الكريم أربع مرّات منها قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات : الآيتان ١٠ ـ ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون : آية ٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنعام : آية ٩٣] .

وارتبطت بالقلب : في قوله تعالى ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾[المؤمنون : آية ٦٣].

وأصل الغمر : إزالة أثر الشيء ، ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله : غمر وغامر .

والغمرة : معظم الماء الساترة لمقرها .

والغمر : الحقد المكنون ، وجمعه غمور[1] .

كما يُقال : الغمرة : منهمك الباطل ، وغمرة الموت : شدة همومه .

ويُقال : اغتمر في الشيء : أي اغتمس . والاغتمار : الاغتماس .

والانغمار : الانغماس في الماء[2] .

والغمرة : الماء الذي يغمر القامة ، فكأن ما هم فيه من الجهل والحيرة صار غامراً ساتراً لعقولهم[3] .

(والغمرة : غطاء يغطي القلب عن فهم ما أودع الله كتابه من المواعظ والعبر والحجج ، وبهذا قال الطبري ومجاهد)[4] .

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون : آية ٥٤] : أي اتركهم في جهلهم فليسوا بأهل للهداية ، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم[5] .

وقال الزمخشري : في غمرتهم : أي في جهل يغمرهم[6] .

فاللهو في الشهوات ناتج من ضعف البصيرة وقلّة العلم واتباع الهوى ، فيغمر القلب بالمعاصي ، وزيّن له الشيطان تلك

---

(١) المفردات ص (٣٦٥) .
(٢) لسان العرب (٣٠/٥) .
(٣) التفسير الكبير (١٠٥/٢٣) .
(٤) تفسير الطبري (٣٥/١٨) .
(٥) فتح القدير (٤٨٦/٣) .
(٦) الكشاف (٢٧/٤) .

الغوايات ، فيرى ما فيه هو الحق وما عداه ضلال ، فإذا العبد في درك أشد مما قبله ؛ فبجهله بمصالح نفسه وظلمه لها ، يسعى فيما يضرها ويؤلمها وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها ، والإنسان ظلوم جهول ، وإذا بلغ هذا المبلغ ظهر على القلب نكران كل ما يرد عليه مما لا يتصوره ، فليس للقلب تعقل صحيح يفرق بين الحسن والقبيح إلاَّ بما تمليه الأهواء والرغبات الناتجة عن جهل ، فإذا بالقلب يتّسم بصفة النكران ، فيسمّى القلب المنكر .

المبحث الرابع

القلب المنكر

وقد وصفه الحق تبارك وتعالىٰ بقوله : ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : آية ٢٢] .

وقد نسب النكران لعموم الإنسان كما في قوله تعالىٰ : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [النحل : آية ٨٣] ، وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر : آية ٨١] .

قال ابن فارس : النون والكاف والراء أصل صحيح ، يدل على خلاف المعرفة التي يسكن إليها القلب ، ونكر الشيء وأنكره : لم يقبله قلبه ، ولم يعترف به لسانه[١] .

وربما ينكر اللسان الشيء وصورته في القلب حاصلة ويكون

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٤٧٦) .

في ذلك كاذباً ، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل : آية ٨٣][1] .

والنكر والنكراء : الدهاء والفطنة .

وأيضاً : الإنكار : الجحود ، والمنكر : خلاف المعروف[2] .

فيتلخص لدينا من هذا التعريف أن الإنكار نوعان :

الأول : إنكارُ جهلٍ ناتج عن قلة العلم ، بسبب الانغماس في ملاهي الحياة وهو ما لم يقبله قلبه ، ولم يعترف به لسانه . فهذا النوع مرض من الأمراض قد يزول إذا وجد النور طريقه إلى نور الفطرة الكامن في القلب . وهذا ينطبق على الجاهلية الأولى في أكثر الحالات ، إذ كانوا في شغل الملذات أكثر من اشتغالهم بمعرفة الحقائق التي أتى بها رسول الله ﷺ .

النوع الثاني : إنكار كبر وجحود : وهذا ناتج عن كفر بعد معرفة تامة ، فالحسد الدفين في النفس ملأ الصدر وما حوى ، فاللسان مصر على الإنكار ،كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [المؤمنون : آية ٦٩ - ٧٠] .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل : آية ٨٣] .

---

(١) المفردات ص (٥٠٥) ، بصائر ذوي التمييز (٥/١٢٠) .

(٢) لسان العرب (٥/٢٣٢) .

وقال المفسرون في القلوب المنكرة : إنها التي لا تقبل الوعظ ، ولا ينجع فيها الذكر[1] ، فهم مستكبرون عن عبادة الله ، مع إنكار قلوبهم لتوحيده[2] .

وقال الزمخشري : قلوبهم منكرة للوحدانية ، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها[3] .

وقال الرازي : (إن الذين يؤمنون بالآخرة ويرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العقاب الدائم ؛ إذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعون ، فلا جرم ينتفعون بسماع الدلائل ويرجعون من الباطل إلى الحق ، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها فإنهم لا يرغبون في حصول الثواب ، ولا يرهبون من الوقوع في العقاب ، فيبقون منكرين لكل كلام يخالف قولهم ، ويستكبرون عن الرجوع إلى قول غيرهم ، فلا جرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال)[4] .

والمقصود أن القلب يتصف بالإنكار الناتج عن الكبر والحسد ، لا لأجل شبهة أو إشكال ، بل هي النفرة عن الرجوع إلى الحق ! لهذا قال الله في الآية التي تليها :﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ [النحل :آية ٢٣] فمن بلغ

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/٩٥) ، فتح القدير (٣/١٥٦) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٥٦٦) ، زاد المسير (٤/ ٤٣٨) .

(٣) الكشاف (٢/٣٢٦) ، تيسير الكريم المنان (٤/١٩٣) ، روح المعاني (١٤/١٢١) .

(٤) التفسير الكبير (٢٠/١٧) .

هذا المبلغ تجده يسخر ممن يأتيه بالحق . قال تعالى على لسانهم :
﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : آية ٢٧]
فهذا نهاية في الكفر ، سواء كان كفران نعمة أو كفر عقيدة ، لأن من عرف الحق وجب عليه أن لا ينكره ، فإن كان في أهون الشرّين وتداركه الله بلطفه قد يسلم ، كما قال تعالى : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[النحل :آية ٨٣].يفهم من الآية أن كفر النعمة كثيراً ما يؤدّي إلى كفر الجحود والعناد ، أما إن كان جهلاً فربما طرق سمعه الحق فاستيقظ القلب وكشطت الغشاوة ، ولكن بشرط أن تكون في القلب قابلية المعرفة والتعقل ، أما إذا كان القلب يشمئز من ذكر الله ؛ فالخطر أشد والدرك أعمق .

المبحث الخامس

اشمئزاز القلب

وقد نسب الاشمئزاز إلى القلب في كتاب الله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : آية ٤٥] .

ولم تتكرر هذه المادة في القرآن مطلقاً .

والشمز : التقبض ، اشمأز اشمئزازاً : انقبض واجتمع بعضه إلى بعض[١] ، وهو نفور النفس من الشيء تكرهه .

والمشمئز : النافر الكاره للشيء ، واشمأز الشيء : كرهه ، بغير حرف جر .

والمشمئز : المذعور[٢] .

وذكر الطبري بسنده عن قتادة والسدي : إنها بمعنى نفرت

---

(١) لسان العرب (٥/٣٦٢) ، النهاية في غريب الحديث (٢/٥٠٠) ، معترك الأقران (٢/٣٩) .

(٢) المرجع السابق نفسه .

قلوبهم واستكبرت وكفرت .

وعن مجاهد أنها : انقبضت[1] ، وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ .

وقال المؤرج : أنكرت .

وأصل الاشمئزاز : النفور والازورار[2] .

والنفر : الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء . يقال : نفر عن الشيء[3] .

والزور : الانقباض . يُقال : تزاور عنه ، وازورّ عنه[4] .

وكلا المعاني متقاربة تمثل حالة القلب ، وإن كانت الآية تمثل واقعة حال على عهد النبي ﷺ إلاَّ أنها تتحدث عن فعل من أفعال القلوب سواء القلوب الحية أو الميتة .

وقد صوّر الزمخشري حالة الاشمئزاز بقوله : (أن يمتلىء غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه)[5] .

وقال الرازي : (أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب ، فيبقى في أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية)[6] .

وهذا الوصف ينطبق على القلوب الميتة التي تمسكت بهوى

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/١٠) ، تفسير ابن كثير (٤/٥٦) .
(٢) تفسير القرطبي (١٥/٢٦٤) .
(٣) المفردات ص (٥٠١) .
(٤) المفردات ص (٢١٧) .
(٥) الكشاف (٣/٣٤٩) .
(٦) التفسير الكبير (٢٦/٢٨٦) .

النفس ولا تميل إلى الحق ، فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم ؛ كلما دُعوا إلى الله وحده إلهاً وخالقاً ، وإلى شريعته نظاماً ، لا يميلون إلى الحق ، وترتاح نفوسهم لضده ، ضالون مضلون ، مسخت قلوبهم ، فلا فائدة ترجى منهم .

وآخرون تشمئز قلوبهم عندما يروا هؤلاء يسيرون في الضلال لا يرتدعون ، فيحاولون ردهم إلى طريق الهدى .

فالاشمئزاز : حالة تمر على القلب فيمتلىء غيظاً وغماً يظهر أثره على الجوارح ، كما يشاهد في وجه العابس المحزون .

فالاشمئزاز قد يكون من المؤمن منصباً على الباطل ، وقد يكون من الكافر لنفرة قلبه عن الإيمان والمؤمنين . أخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**تكون أمراء تلين لهم الجلود وتطمئن إليهم القلوب ، ويكون عليكم أمراء تشمئز منهم القلوب وتقشعر منهم الجلود . قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما أقاموا الصلاة**»[1] .

فهنا اشمئزاز القلوب المؤمنة من أفعال المنحرفين عن جادة الطريق المستقيم ، أما من سار في مراحل الموت فإذا سمع من يقول لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ؛ ظهرت آثار النفرة على وجهه ، من أثر النفرة الكامنة في قلبه ، ويفرح ويستبشر بما يخالف ذلك ، ويميل لرغباته من ذكر الشهوات المادية أو المعنوية . وهذا رأس الجهالة والحمق .

وربك يعلم ما تكنّ صدورهم ، فأعقبهم أكنة على قلوبهم .

---

(١) مسند أحمد (٢٨/٣ ، ٢٩) .

غطاء من الحق تبارك وتعالىٰ ، تولاه الله ، وفعله حُكْم عدل ، جزاء لشركهم وكذبهم ونفرتهم من سماع القرآن وإعراضهم عنه ، واتهامهم الرسل بما لا يليق . كما سنفصله ونبين ما يترتب عليه .

المبحث السادس

إكنـان القلـب

وكنـان القلوب ، أو سمِّها : القلوب المكننـة ، من قـولـك : كننت العلم في النفس أي أخفيتــه . نسـب إلى الـقلب فـي أربـــع مـواضع من الـذكر الحكيم ، كمـا في قولـه تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ ﴾ [الأنعام : آيـة ٢٥] ومثلها في [الإسراء : آية ٤٦] ، وأيضـاً في قولـه تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ ﴾ [الكهف : آيـة ٥٧] ، وأخيراً في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : آية٥] .

وأيضـاً نسب إلى الصدر كمـا في قولـه تعـالىٰ : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [النمـل : آية ٧٤] ، وقـولـه تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[القصص: آية ٦٩] .

كما نسب إلى النفس في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة : آية ٢٣٥] .

وقال أهل اللغة(١) :

الكِنّ والكنة ، والكنان : وقاء كل شيء وستره ، والكِنّ : البيت أيضاً لأنه يرد البرد والحر .

والكِنّ : كل شيء وقى شيئاً فهو كنة وكنانة ، والجمع أكنان وأكنة .

وأكننته في نفسي : أي أسررته ، والأكنة : الأغطية ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ [الأنعام : آية ٢٥] .

وتقول : كننت العلم في النفس : أي أخفيته .

ومنه : اكتنت المرأة : إذا غطّت وجهها وسترته حياء من الناس .

والكنانة : جعبة السهام .

فالمادة تدور حول الستر والغطاء .

وذكر أهل التفسير أنها في القرآن على ثلاثة أوجه(٢) :

الأول : بمعنى الغطاء ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ [الأنعام : آية ٢٥] .

---

(١) لسان العرب (١٣/٣٦٠) ، تاج العروس (٩/٣٢٣) ، المفردات ص (٤٤٢) .

(٢) إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٠٩) ، بصائر ذوي التمييز (٢/١٦١) .

الثاني :الكهوف والأسراب ،ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل : آية ٨١] .

الثالث : بمعنى تُضْمِر ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص : آية ٦٩] .

(وللعرب في أكننت الشيء : أي سترته ؛ لغتان : كننته وأكننته ، في الكنّ وفي النفس بمعنى ،ومنه قوله تعالىٰ : ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ [القصص :آية ٦٩] وقوله تعالىٰ : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات : آية ٤٩] .

وفرّق قوم بينهما فقالوا : كننت الشيء إذا صنته حتى لا تصبه آفة وإن لم يكن مستوراً ، يُقال : در مكنون ، وجارية مكنونة ، وبيض مكنون : مضمون عن التدحرج .

وأما أكننت ، فمعناه : أضمرت ، ويستعمل ذلك في الشيء الذي يخفيه الإنسان ويستره عن غيره ، وهو ضد أعلنت وأظهرت[1] .

وقال المفسرون في قوله تعالىٰ : **﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾** أي جعلنا على قلوبهم أغطية وغشاوة مجازاة على كفرهم ، ومنعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم[2] .

فإنهم كانوا يسمعون من غير تدبر ، وهذا يعرب عن كمال

---

(١) التفسير الكبير (١٣١/٦) .

(٢) تفسير القرطبي (٤٠٤/٦ ، ٧/١١) تفسير القرآن العظيم (٤٣/٣ ، ٩١) روح المعاني (٣٠٣/١٥) .

جهلهم بما جاء به رسول الله ﷺ ، أو يدل على تكبرهم النابع من حسد أنفسهم ، فإن كانت الأخرى فقد حرموا الهداية كما قال تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : آية ٥٦ ـ ٥٧] .

ولو تتبعنا أفعال أصحاب القلوب التي استحقت أن جعل الله عليهم الأكنة ؛ نرى ، أنها تدور :

أولاً : على الجحود ، مع علمهم التام أن قلوبهم تنكر جحودهم ، فقد امتازوا بالكذب واصروا على عدم الإيمان إضافة إلى الاستهزاء بالقرآن وبعدهم عنه وإبعاد الناس عن الاستماع إليه . وقد أوضح الحق ذلك في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ

﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : آية ٢٠ - ٢٦] .

وكذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : آية ٤٥ - ٥١] .

ثانياً : الإصرار على عدم الإيمان ، رغم ما يشاهدوه من الدلائل الواضحة ، وما منعهم من اتباع ذلك إلاَّ طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً ، إضافة إلى المجادلة بالباطل ليطفؤوا نور الله بأفواههم ، واستهزائهم بالحجج والبراهين وخوارق العادات التي أتت بها الرسل وما أنذروهم من العذاب ، ونسيانهم أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ، وهذه أوضحها الحق تبارك وتعالىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ

عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : آية ٥٥ ـ ٥٧] .

ومع هذا نستشف من قول الله تعالىٰ تلو آيات الكهف : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ ﴾ [الكهف : آية ٥٨] أن الإكنان لا يمنع من الإيمان ، فليس بموت تام ، إنما هو مرحلة من مراحل المرض الشديد المؤدّي إلى الموت لما مر ذلك في أول الباب . (فربّما هدى الله بعضهم من الغي إلى الرشاد) ، كما قال الحافظ ابن كثير . فرحمة الله تفيض على عباده جميعاً وتسعهم جميعاً ، وبها يقوم وجودهم وتقوم حياتهم ، وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود ، ولا يملك الفرد تتبعها في حياة البشر على الإطلاق ، وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد ؛ فترفعه من الدرك إلى عليين ، أما من لا زال الركام على فطرته لم يهتز بعد، ومغاليق التفقه مقفلة ، وأبواب السمع موصدة ، وغلاف الإدراك لا ينفذ إليه شيء ﴿**وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها**﴾ فهو مرتاب غمر الشك قلبه ، وعمّت الحسرة بصيرته ، ولا يزال من ريب إلى آخر يهوي به إلى درك أدنى ، حتى تكون صفة ملازمة للقلب ـ والعياذ بالله ـ فيطلق عليه القلب المرتاب ، فهو نفاق مستفحل أو كفر دفين .

المبحث السابع

القلب المرتاب

وقد نسب الريب إلى القلب في مثل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة : آية ٤٥] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : آية ١١٠] .

والريب مرحلة متقدمة نحو الموت ، فهو أعلى من حالة المرض ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [النور : آية ٤٨ - ٥٠][1] .

(فلا يخرج حال هؤلاء المنافقين عن أن يكون في القلوب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٩١) .

مرض لازم لها أو عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم وأياً ما كان فهو كفر محض)[1] .

ولا يبلغ مرتبة الصدق من كان فيه ريب .قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : آية ١٥] .

فالمؤمن من نفى عن نفسه الريب وقد يكون سلوكٌ فيمن هو دونه ، ولكن في غير التشريع ، فقد يرتاب في سلوك فرد ويشك فيه ، وليست هذه من تلك في شيء .

والراء والياء والباء : أصل صحيح يدل على شك ، أو شك وخوف ، فالريب الشك ، قال جل ثناؤه : **﴿آلم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾** أي لا شك .

والريب : ما رابك من أمر . تقول : رابني هذا الأمر : إذا أدخل عليك شكاً وخوفاً[2] .

وقال ابن الأثير ، والريب : هو الشك مع التهمة[3] .

والريبة : اسم من الريب . قال تعالى : ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٩٨) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٢/٤٦٣) ، لسان العرب (١/٤٤٢) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (٢/٢٨٦) ، معترك الأقران في إعجاز القرآن (٢/٩٨ ، ١٨٥) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، (ت ٩١١) هـ. تصحيح أحمد شمس الدين .

﴿ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : آية ١١٠] أي يدل على دغل وقلة يقين منهم[1] .

والريب في القرآن على ثلاثة أوجه :

فوجه منه الريب : الشك . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿**آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ أي لا شك فيه .

والثاني : حوادث الدهر ،ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [الطور : آية ٣٠] .

والثالث : الريبة : الحسرة ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾]التوبة : آية ١١٠] يعني حسرة في قلوبهم[2] .

والريبة : هي الخصلة من المكروه تظن بالإنسان فيشك معها في صلاحه ، فالريبة ظن فقط وليست من الحقيقة في شيء ، بخلاف التهمة : قد تكون ظناً وقد تكون حقيقة .

أما الشك فهو استواء طرفي التجويز ، فالشاك يجوّز كون ما شك فيه على إحدى الصفتين لأنه لا دليل هناك ولا أمارة ، فالشك اجتماع شيئين في الضمير بلا مرجح[3] .

---

(١) بصائر ذوي التمييز (١١٤/٣) ، المفردات في غريب القرآن ص (٢٠٥) .

(٢) إصلاح الوجوه والنظائر ص (٢١٤) ، نزهة الأعين النواظر ص (٣١٢ - ٣١٣) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٧٩ ، ٨٠) .

فريب القلب وجود شيء واحد فقط وهو جانب الكره ، تمكّن من القلب واستولى عليه ، لهذا نفاه الله عن المؤمنين قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : آية ١٥] .

(أي آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لمن صدقوه ، واعترفوا بأن الحق معه)[1] .

فكان جزاء المرتاب أن يضلّه الله خاصة إذا تمكنت هذه الصفة من القلب لأنه لا فائدة ترجى منه .قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر : آية ٣٤] .

أي مثل هذا الضلال يضلّ الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه ، فهي حقيقة ثابتة بيّنها الله جل وعلا في حق هذا المبدأ الذي طمست فيه أنوار المعرفة به سبحانه وتعالىٰ .

وتدور أسباب ريب القلب في دائرة النفاق ودائرة الحسد الذي ملأ حشاشة النفس والصدر ، فأساسه عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، والشك فيما جاء به رسول الله ﷺ والقول باللسان مخالفاً الاعتقاد ، والإعراض والاستكبار عن الاتباع ، إضافة إلى المشي

---

(١) تفسير روح البيان (٩/٩٥) الشيخ إسماعيل حقي البرسوي (ت ١١٣٧) هـ .

بالنميمة والبغضاء والفتنة . كل هذه الأسس موضحة في تسلسل الآيات التي وسمتهم بهذه الصفة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : آية ١٠٧ - ١١٠] .

والريبة تأكل القلب كما تأكل النار الحطب ، وتميته تقطيعاً أو لا تزايله حتى تميته . وهذه المرحلة من المراحل السريعة الانحدار فتهوي بصاحبها ، إلاَّ من رحم ربك .

المبحث الثامن

تقطيع القلب

قال تعالىٰ : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : آية ١١٠] .

والقطع إبانة بعض أجزاء الجرم من بعض فصلاً ، وتقطع : شدد للكثرة ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون : آية ٥٣] أي تقسموا وتفرقوا في أمرهم[١] .

وقال الراغب : القطع قد يكون مدركاً بالبصر كقطع اللحم ونحوه ، وقد يكون مدركاً بالبصيرة كالأشياء المعقولة ، كقطع السبيل ؛ فيراد به السير والسلوك ، أو يُراد به الغصب من المارة والسالكين[٢] .

ومن المجاز قطع النهر : عبره أو شقه ، وقطع خصمه بالحجة : غلبه وبكته ، وقطع لسانه : أسكته بإحسانه إليه[٣] .

---

(١) لسان العرب (٨/٢٧٦) .

(٢) المفردات ص (٤٠٨) .

(٣) تاج العروس ص (٥/٤٧١) .

وذكر بعض المفسرين أن القطع في القرآن على أحد عشر وجهاً ، وأوصلها الفيروز أبادي إلى اثني عشر وجهاً ، منها : زوال الرجاء والأمل ،كما في قوله تعالىٰ : ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي يئسوا مما رجوا[1] .

واختلف القراء في قراءة قوله تعالىٰ : ﴿**إلا أن تقطع قلوبهم**﴾[2] فقرأ بعض قراء الحجاز والمدينة والبصرة والكوفة بضم التاء وتشديد الطاء على ما لم يسم فاعله ، وبمعنى : إلَّا أن يقطع الله قلوبهم .

وقرأ بعض قراء المدينة والكوفة بفتح التاء والطاء مشددة ، من : تقطّع ، على أن الفعل للقلوب ، بمعنى : إلَّا أن تقطع قلوبهم .

وعن ابن كثير : بفتح الطاء وتسكين القاف . (قلوبهم) بالنصب أي : تفعل أنت بقلوبهم .

وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرؤونها (ريبة في قلوبهم ولو تقطعت قلوبهم) . فنخرج من هذه القراءات أن تقطيع القلوب على حالتين :

الأول : أن يكون ذلك فعل الله في القلوب . وهذه نأخذها من قراءة ابن كثير وأهل الحجاز بضم التاء وتشديد الطاء ، فيكون

---

(١) نزهة الأعين ص (٥٠٢) بصائر ذوي التمييز (٢٨٤/٤) إصلاح الوجوه ص (٣٨٥) .

(٢) تفسير الطبري (٣٤/١١) ، تفسير ابن كثير (٣٩١/٢) ، التفسير الكبير (١٩٨/١٦) ، تفسير القرطبي (٢٦٦/٨) .

فعل الله بهم أن يجعل قلوبهم قطعاً وتفرق أجزاء ، إما بالسيف وإما بالحزن والبكاء ، وهذه باقية أبداً ويموتون على هذا النفاق .

الثاني : أن يكون ذلك فعل من أفعال القلوب الميتة : وهذا من قراءة من قرأ بفتح التاء والطاء المشددة ، وهي القراءة المعروفة المشهورة في المصاحف التي بين أيدينا ، فيكون معناها : حتى تنشق قلوبهم غماً وحسرة ، أو أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم . ويؤيد ذلك ختام الآية لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بأحوالهم ،حكيم في الأحكام التي يحكم بها في مجازاتهم عن أعمالهم من خير وشر ، وقد يفتح الله على العبد باباً من أبواب رحمته فينقله إلى نعيم الدارين ، ويهديه لخير طريق النجدين .

ولكن التقطيع ذو مراحل : فهو موت أجزاء من القلب ، فبحسب تفاوت المعصية يتفاوت الغطاء الذي يغشى القلب ، حتى لا يعي شيئاً ، ويسمى غلافاً ، ويوصم به القلب ، فيقال : قلب أغلف .

المبحث التاسع

أغلفة القلب

الغلاف لا بُدّ وأن يكون سميكاً ، لأنا لا نقول رجل مغلف : إلّا لمن عليه غلاف من أدم أي من جلد ونحوه ، فهو إمعان في الغشاوة . وقد وردت هذه المادة مرتين في القرآن الكريم : :

الأول : في قوله تعالىٰ عن بني إسرائيل : ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : آية ٨٨] .

الثانية : في قوله تعالىٰ ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : آية ١٥٥] .

وقد ورد في حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد : فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف : فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس : فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح :**

فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم ، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»[1] .

وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - في صفة رسول الله ﷺ في التوراة وفيه : **«ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلاّ الله ويفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً»**[2] .

الغلاف : الصوان وما اشتمل على الشيء : كقميص القلب وكمام الزهر ، والجمع غلف ، وغلّف القارورة وغيرها : أدخلها في الغلاف ، أو جعل لها غلافاً ، وقلب أغلف بيّن الغلفة : كأنه غشي بغلاف فلا يعي شيئاً .

ويُقال : غلام أغلف إذا لم تقطع غرلته ، ورجل مغلف : عليه غلاف من الأدم ونحوها ، وغلف جبته بالطيب والحناء وغلفها : لطخها[3] .

(وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - في معنى قوله تعالى : ﴿**وقالوا قلوبنا غلف**﴾ : أي في أكنة ، وفي رواية : أي لا تفقه ،

---

(١) مسند أحمد (١٧/٣) وذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى : ﴿**أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق**﴾ [البقرة : آية ١٩] وقال : إسناده جيد حسن (٥٦/١) .

(٢) صحيح البخاري كتاب البيوع باب (٥٠) حديث (٢١٢٥) ، فتح الباري (٣٤٣/٤) (٥٨٥/٨) ، كتاب التفسير ؛ تفسير سورة الفتح ، باب (٣) حديث رقم (٤٨٣٨) .

(٣) لسان العرب (١٧١/٩) ، المفردات ص (٣٦٤) .

وفي أُخرى : أي المطبوع عليها .

وقال مجاهد : عليها غشاوة .

وقال عكرمة : عليها طابع .

وقال السدي : عليها غطاء)[1] .

(وقرأ الجمهور قوله تعالىٰ : ﴿**وقالوا قلوبنا غلف**﴾ بإسكان اللام ، وقرأ آخرون بضمها . فمن قرأ (غلف) بتسكين اللام فمعناه : ذوات غلف ، فكأنهم قالوا : قلوبنا في أوعية .

ومن قرأ (غلف) بضم اللام فهو جمع غلاف فكأنهم قالوا : قلوبنا أوعية للعلم .

فعلى الأول يقصدون إعراضه عنهم ، كأنهم يقولون : ما تفهم شيئاً .

وعلى الثاني يقولون : لو كان قولك حقاً لقبلته قلوبنا)[2] .

ونستخلص أن الغلف فيه ثلاثة احتمالات :

أحدها : أنه جمع غلاف : أي قلوبنا مغطاة بأغطية لا تسمع دعوة رسول الله موسى عليه السلام .

الثاني : أنها مملوءة بالعلم والحكمة ، لا حاجة لها إلى شرع رسول جديد .

والثالث : أنها هي غلاف فارغ ، لا شيء فيه من العلوم التي بها يستدل على صحة رسالتك .

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٢٣) ، البحر المحيط (١/٣٠١) .

(٢) زاد المسير (١/١١٣) .

وعلى ذلك فيكون غلف القلب :

إما غطاء يغطيه من أثر الذنوب لا يصل إليه شيء جديد من نور الإيمان ، وهذه الذنوب غطت القلب بما حوى . سواء كان فيه شيء من نور الفطرة فهو بصيص لا يظهر ، ونشبهه بالشعلة المغلفة بزجاجة عتمت من الوساخة فطمست النور ولم يظهر . وهذا يتمشى مع أقوال المفسرين رحمهم الله .

وإما أن تكون قلوبهم فارغة من أي شيء ، وأصبحت كالغلاف الخالي الذي ليس بداخله ما يملؤه ، كجراب السيف ، ويكون المعنى : قلوب لم يصلها نور بعد إفراغها من نور الفطرة .

وكلا المعنيين يتمشى مع الحديث الصحيح في صفة رسول الله ﷺ في التوراة الذي فيه : **«ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلّا الله ويفتح بها أعينا عمياً . وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً»** .

فسواء كان القلب مغطى بركام الذنوب ؛ فإن لا إله إلّا الله تكشط هذا الغطاء ، أو كان خالياً كالجراب ؛ فإن لا إله إلّا الله تملؤه بنور الإيمان .

الفرق بين الاكنان والغلاف :

قلنا في الإكنان أنه يدور حول الستر والغطاء ، والغلاف مثله لغة . إلّا أن الغلاف توعّد المتصف به باللعنة وبالطبع نتيجة الكفر . والإكنان بسبب عدم التفقه وسلب الهداية ، فيستخلص أنه وإن كان كلاهما غطاء إلّا أنه هنا أشد من سابقه ، هذا إذا أردنا التوفيق بين اللفظين .

أما إذا حملنا الغلاف على أنه كالجراب الخالي ، أي ليس

فيـه نور الهـداية ، فيكـون بينهما فـارق واضح ، فيصبـح كل منهمـا مغاير للآخر .

ومن ناحية ثانية : نجد أن بني إسرائيـل وَصَمُوا أنفسهم بهـذه الصفة فهم الذين قالوا : قلوبنا غلف . ومن عادة الإنسان أنه لا يذم نفسه بقصد الذم ؛ إنما يجري على لسانه ما تكّن سريرتـه ، فيفضح نفسه ، فهم أرادوا أن قلوبهم مملؤة علماً . فهي جراب مملؤة مقفلة على ما حوت ، فكـذّبهم الله وأخبر أنـه طبع عليهـا بسبب كفرهم ، فلا يؤمنون إلَّا قليلاً .

والملاحظ أن آية سورة البقرة ختمت بقوله تعالىٰ : ﴿**فقليلاً ما يؤمنون**﴾ ، وآية سورة النساء ختمت بقوله تعالىٰ : ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (أي فقليل منهم من يؤمن)، وهو قول ابن عباس وقتادة وأبـو مسلم ومال إليه أبـو حيان[1] . ونـأخذ من هـذا : أن القلب الأغلف من الممكن أن تعـود إليه الحيـاة ، فقد يكـون فيه شيء من النـور ، سواء نور الفطرة أو نور رسالة سابقة ، فرحمة الله لا تحد وهو قـريب من عباده ويفرح بتوبة عبده ، أما إذا استمر العبد على التكبر والتجبر والحسد والكفر بما أنزل الله ، وسار على عناده ولم يحـاول أن يفتح قلبــه حتى أصبح ذلــك عـادة عنـده ؛ فــإن القلب يشــرب حب المعصية ، بعد أن تكون دخلت فيه وقبلها وسكن إليها .

---

(١) البحـر المحيط (١/٣٠٢) ، زاد المسيـر (١/١١٣) والتفسيـر الكبيـر (٣/١٧٨) تفسير ابن كثير (١/١٢٤) في ظلال القرآن (١/٩٠) .
وأبو حيان هو : محمد بن يوسف بن علي ابن حيان الغـرناطي من كبـار علماء اللغة والتفسير ، توفي في عام ٧٤٥ هـ ، الأعلام (٧/١٥٢) .

المبحث العاشر

إشـراب القلـب

وقد وصف القلب بالإشراب في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقـرة : آية ٩٣] .

وأوضحت السنة ذلك من حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأي قلب أشربها ؛ نكت فيه نكتة سوداء . .**» الحديث[1] .

والإشراب مخالطة المائع الجامد ، ثم توسع فيه فصار في اللونين[2] . يُقال أشرب الأبيض حمرة : أي علاه ذلك ، وكذلك

(١) صحيح مسلم (١/١٢٨) كتاب الإيمان باب (٦٥) حديث (١٤٤) .
(٢) البحر المحيط (١/٣٠٨) ، روح المعاني (١/٣٢٦) .

إن خالطه ذلك ، كأن أحد اللونين سقى اللون الآخر . فيقال : بياض مشرب حمرة .

ومما يُقال : أشرب فلان حب فلانة : أي خالط قلبه .

وأشرب قلبه محبة هذا : أي حل محل الشراب[1] .

وفي حديث الإفك : قالت عائشة لأبويها - رضي الله عنهم - : (- والله يشهد إني لصادقة - ما ذاك بنافعي عندكم ، لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم . .)[2] .

قال ابن حجر : أي حل فيها محل الشرب وقبلوه . يقال : ثوب شرب : أي مصبوغ[3] .

(وعبر بالشرب دون الأكل : لأن الشرب يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها ، ولهذا قال بعضهم :

(جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فأصبح لي عن كل شغل بها شغل)[4]

وأيضاً كما أن الشرب مادة الحياة لما تخرجه الأرض ، فكذلك تلك المحبة كانت مادة للقبائح الصادرة عنهم .

وشرب : من المتضادات ، يُقال : شرب الرجل إذا روي ،

---

(١) لسان العرب (١/٤٨٩) ، المفردات ص (٢٥٧) ، القاموس المحيط ص (١٢٨) .

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب (١١) حديث رقم (٤٧٥٧) فتح الباري (٨/٤٨٨) .

(٣) هدي الساري ص (١٣٧) مقدمة فتح الباري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تخريج وتصحيح محب الدين الخطيب .

(٤) البحر المحيط (١/٣٠٩) .

وشرب إذا عطش[1] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿وأشربوا﴾ دلالة على فاعل فعل بهم ذلك ، ومعلوم أنه لا يقدر عليه سوى الله ، فالحق تولى إشراب هذه المعاصي في قلوب العصاة ، جزاء ارتكابهم المساوىء .

وذكر المفسرون في معنى الإشراب أقوال أربعة :

الأول : أنه داخلهم حب العجل ، ورسخ في قلوبهم صورته ، لفرط شغفهم به ، كما داخل الصبغ الثوب . ورجّحه الطبري وبه قال الدامغاني ، وقال بعضهم :

إذا ما القلب أشرب حب شيء فلا تأمل له عنه انصرافا

الثاني : من أشربت البعير : إذا شددت في عنقه حبلاً ، كأن العجل شد في قلوبهم لشغفهم به .

الثالث : من الشراب : ومن عادتهم أنهم إذا عبروا من مخامرة حب أو بغض ؛ استعاروا له اسم الشراب ، إذ هو أبلغ منساغ في البدن .

ولذا قال الأطباء : الماء مطية الأغذية والأدوية ، ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن ، ورجحه أبو السعود[2] .

وذكر ابن حيان : أن الذين تبيّن لهم حب العجل أصابهم من

---

(١) الأضداد للصاغاني ص (٢٣٣) .

(٢) جامع البيان (١/٤٢٢) ، تفسير الألوسي (١/٣٢٦) ، التفسير الكبير (٣/١٨٦) ، تفسير أبي السعود (١/ ٢١٦) ، إصلاح الوجوه ص (٢٦٢) .

ذلك الماء الجبن ، وقال القرطبي عن القشيري[1] : ما شربه أحد إلاَّ جنّ .

والخلاصة : أن المعاصي يتعوّدها الإنسان ويميل إليها ، فلا يزال يتفكر ويشتهيها حتى تصبح همه الشاغل وفعله ليل نهار ، ويعتادها فتتمكن من القلب فيعشقها ، ولات حين مناص عنها ، وذلك دليل قلة التوفيق وفساد الرأي والقلب ، مما يسبب وحشة بين العبد وربه ، فيستحق بموجبها اللعن أو العذاب أو حرمان الثواب . لأنه اشتغل عن الله بنفسه وغلبت شهوته تعقله .

والملاحظ أن إشراب القلب للمعاصي اتصف به بنو إسرائيل فهم عرفوا الحق وجحدوه حسداً وبغياً ، فهم قالوا بأفواههم سمعنا ، وقالوا بأعمالهم عصينا ، فخالف واقعهم العملي قولهم الشفوي ، فلا قيمة لقول بلا عمل ، ولم ينفعهم التخويف بأكبر المخوفات : وهو رفع الجبل فوقهم ، بل قالوا سمعنا وعصينا وعادوا إلى كفرهم في أسرع وقت ، من عبادة العجل ، حتى أشربته قلوبهم .

هذا السياق بهذه الصفات ينساق على من أحب المعاصي ، وقال : أسلمت ، ولم يرتدع مما أنزل الحق على لسان رسوله ، لا بد أن يتشرب قلبه حب المعاصي ، ما دام الكبر حليفه والحسد رائده .

تنوع إشراب القلب :

والإشراب صفة من صفات القلب ، وليس بمعنى واحد من

---

(1) القشيري : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري ، شيخ خراسان في عصره توفي ٤٦٥ هـ ، الأعلام (٤/٥٧) .

خصوصيات القلب الميت فقط ؛ وإنما هي صفة لازمة لمن أحب شيئاً حتى تمكن من حشاشة قلبه ، فقد يشرب القلب قولاً من الأقوال وهو في أعلى مراتب الإيمان ، كقول عائشة لأبويها ـ رضي الله عنهم ـ ، كما نستطيع أن نصفهم ونصف الصفوة الصالحة بأن قلوبهم أشربت بحب الله وحب رسوله ، فدافع الفرد منهم عن دينه ومعتقده ، فلا نقول بأن إشراب القلب يعني موته ، إنما موته في إشراب قلبه للمعاصي والكفر والحسد وما شاكلهم ، فإذا أحب شيئاً وهام فيه وعشقه ؛ شرب قلبه تلك الفكرة وناصر ذلك المبدأ ، فلا ينصرف عنه مهما كلفه الثمن .

وما دام الإشراب مخامرة ، فأيضاً من الممكن أن نقول إن المؤمن التقي أشرب قلبه حب الإيمان ، أو أشرب قلبه كره المعاصي . وتقول عن العصاة : أشرب قلبهم حب المعصية ، أو أشرب قلبهم كراهية الطاعة ، وهذا كله من باب توسع استعمال الكلمة في اللغة ، وإن اقتصرت في التنزيل على حب المعاصي . فالله الذي أشرب قلوبهم ذلك ، وهو الذي أدخلها جزاء كفرهم وعنادهم وإصرارهم على الضلال ، وكل شيء بقضاء الله وقدرته ، فهو هاد عباده المؤمنين إلى جنته ومسيّر الكافرين إلى جحيمه ، من أطاعه هداه ، ومن عصاه : سلك التكذيب والضلال في قلبه ، جزاء عناده وقفله على نفسه طوق الهداية .

المبحث الحادي عشر

الإسلاك في القلب

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر : آية ٩ ـ ١٣] .

السلك : مصدر سلكت الشيء في الشيء فانسلك ؛ أي أدخلته فيه فدخل ، يُقال سلكت الخيط في المخيط أي أدخلته فيه ، وسلك يده في الجيب والسقاء ونحوهما يسلكها وأسلكها : أدخلها فيهما . والسلك : إدخال شيء تسلكه فيه ، كما تطعن الطاعن ، فتسلك الرمح فيه تلقاء وجهه على سجيته[١] .

والسلك : السلوك والنفاذ في الطريق ، يُقال سلكت الطريق وسلكت كذا في طريقه ، قال تعالىٰ : ﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾

---

(١) لسان العرب (١٠/٤٤٢) ، تاج العروس (٩/١٤٤) .

[نوح : آية ٢٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [النحل : آية ٦٩] .

ومن الثاني قوله تعالىٰ : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر : آية ٤٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الشعراء : آية ٢٠٠][1] .

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم اثنا عشرة مرة ، ارتبطت بالقلب في موضعين : الأول في سورة الحجر ، والثاني في وصف القرآن . قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء : آية ١٩٨ ـ ٢٠١] .

وذكر بعض المفسرين أن السلوك في القرآن على أربعة أوجه[2] :

أحدها : الدخول ، منه قوله تعالىٰ : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر : آية ٤٢] .

الثاني : الجعل . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن : آية ٢٧] .

والثالث : التكليف . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : آية ١٧] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص (٢٣٩) .

(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٣٥٢) ، إصلاح الوجوه والنظائر ص (٢٤٤) .

الرابع : الترك ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر : آية ١٢] .

والأصل في الإسلاك الدخول والنفاذ ، والحق تولى دخول شيء في قلوب المجرمين . روي عن أنس والحسن البصري في قوله ﴿**كذلك نسلكه**﴾ قالا : الشرك نسلكه في قلوبهم .

وروي عن قتادة أنه قال : إذا كذبوا ؛ سلك الله في قلوبهم أن لا يؤمنوا به .

وروي عن أبي زيد أنه قال : هم كما قال الله : هو أضلّهم ومنعهم الإيمان(١) .

وقال ابن كثير : إنه تعالىٰ سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى(٢) ، وبه قال ابن قتيبة(٣) .

وسواء كان الشرك أو التكذيب أو الضلال ؛ فهي سنة الله مع من تمادى في الغي ، واتصف بصفة الإجرام ، التي هي اكتساب كل محرم ، حتى أصبح قلبه لا يحسن أن يتلقى كلام الحق على بصيرة بل على عناد ومكابرة ، سلك الله في قلبه التكذيب به فيؤدي ذاك إلى الشرك ، والشرك هو الضلال المبين .

وقال الإمام الرازي : (إن الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ﷺ ونَبْوَة عظيمه عنه ، حتى إنه كلما رآه تغير

---

(١) الدر المنثور (٥/٦٧ ـ ٦٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٥٤٧) .

(٣) تفسير غريب القرآن ص (٣٢١) أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، المتوفى عام ٢٧٦ هـ ، تحقيق السيد أحمد صقر .

لونه واصفر وجهه وربما ارتعدت أعضاؤه ، ولا يقدر على الالتفات إليه والإصغاء لقوله ، فحصول هذه الأحوال في قلبه أمر اضطراري لا يمكنه دفعها عن نفسه ، ولا إزالة هذه الدواعي عن القلب ، لأن الفاعل لها هو الله تعالىٰ)[1] فهو مقلب القلوب .

---

(١) التفسير الكبير (١٩/١٦٥) .

المبحث الثاني عشر

صــرف القلــب

ما دام العبد لا يرعى حقوق الله ولا يرتدع عن غيّه ؛ سيصرف الله قلبه عن الإيمان وعن طريق الهداية جزاء سلوكه ، فما منعه من الخضوع إلاّ التكبر الكامن في الصدر . فلا يؤمن بالآيات وإنما يميل مع شهواته ورغباته ، وغفل عما ينفعه في الدنيا والآخرة ، وهذا الصنف أوضحه الحق في محكم بيانه فقال تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : آية ١٤٦] .

وقال تعالىٰ عن صرف القلوب : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : آية ١٢٧] .

والصرف : رد الشيء عن وجهه ، وصارف نفسه عن الشيء :

صرفها عنه[1] .

والصرف : رد الشيء من حالة إلى حالة ، أو إبداله بغيره[2] .

فقلوب الخلق بيد الله تعالى ، فهو صارف القلوب ومصرفها . وكان أكثر ما يدعو به رسول الله ﷺ :**«يا مصرف القلوب»**[3] .

قال ابن عباس : صرف الله قلوبهم عن كل رشد وخير وهدى .

وقال الحسن : طبع عليهم بكفرهم[4] .

وقال سفيان بن عيينة : (سأمنعهم عن فهم كتابي) ، وقاله قتادة[5] .

وقال الطبري : (صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوب هؤلاء المنافقين ، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه ، استكباراً ونفاقاً)[6] . وهذا المعنى متقارب في عموم التفاسير[7] .

ذهب الزمخشري : إلى أنها دعاء عليهم بالخذلان وبصرف

---

(١) لسان العرب (٩/١٨٩) ، القاموس المحيط ص (١٠٦٨) .
(٢) المفردات ص (٢٧٩) ، بصائر ذوي التمييز (٣/٤٠٩ ، ٤١٠) .
(٣) مسند أحمد (٢/١٧٣) من حديث عمرو بن العاص .
(٤) البحر المحيط (٥/١١٧) .
(٥) تفسير القرطبي (٧/٢٨٣) .
(٦) تفسير الطبري (١١/٧٥) .
(٧) تفسير ابن كثير (٢/٤٠٣) ، تفسير القرطبي (٨/٣٠٠) التفسير الكبير (١٦/٢٣٤) .

قلوبهم عن قلوب أهل الإيمان من الانشراح[1] .

والآية كما تحتمل الدعاء تحتمل الإخبار بأن الله منع قلوبهم من تلقي الحق ، ونحن مع الجمهور في أن صارف القلوب ومقلّبها هو الله تعالىٰ .

والخلاصة : أن من ظهرت له الحجة والبرهان ولكن أصر على تكبره وعناده واستهزائه بآيات الله الدالة على عظمته ، سلك الحق في قلبه النفاق أو الكفر وصرفه عن الحق فمنعه من الإيمان لأنه ليس أهلاً للتشريف ، فقد اضمحل نور الفطرة من قلبه فلم يعد يفهم عن الله خطابه ، ولا يتصدى لفهمه ، ولا يريده ، بل هو في شغل ونفور ، فصار إلى ما صار إليه في درك الموت جزاء تكبره على الناس بغير الحق ، وتكبره عن الطاعة لله تبارك وتعالىٰ ، فلا بد لهذه القلوب أن تذل بالجهل . والصرف والزيغ والتقليب ، وإن كانت متقاربة ؛ ولكنها متفاوتة المعنى في مدلولها وصفاتها على القلوب .

---

(١) الكشاف (٢/ ١٧٩) .

المبحث الثالث عشر

إحالة الله بين العبد وقلبه

ومن ذلك الإحالة : فالله هو المتصرف في جميع الأشياء ، والقادر على الحيلولة بين الإنسان وبين قلبه ،قال تعالىٰ :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال : آية ٢٤] .

قال ابن فارس : الحاء والواو واللام أصل واحد . وهو تحرك في دور ، فالحول العام وذلك أنه يحول ، أي يدور[١] .

وقال الراغب : أصل الحول : تغير الشيء وانفصاله عن غيره ، وباعتبار التغير قيل : حال الشيء يحول حولاً واستحال : تهيأ لأن يحول ، وباعتبار الانفصال قيل : حال بيني وبينك كذا .

وقوله تعالىٰ:﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ إشارة

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/ ١٢١) .

إلى ما قيل في وصفه يقلّب القلوب : وهو أن يلقي في قلب الإنسان ما يصرفه عن مراده لحكمة تقتضي ذلك[1] ، وبمثله قال الزبيدي في تاج العروس[2] . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم ، ومجاهد وغيرهم في معنى الآية : إن الله يحول بين الكافر والإيمان وبين المؤمن والكفر[3] .

وروي عن مجاهد أيضاً : أنه يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل شيئاً ، فيحول بين قلب الكافر وعمل الخير .

وقال السدي : يحول بين الإنسان وقلبه ، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلاَّ بإذنه[4] .

فالسعيد من أسعده الله ، والشقي من أضله الله ، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، فالكافر جزاء ما اقترف من معاصي وعدم امتثال ، وتفان في الكبر والحسد ، منعه الله من الإيمان . فالله أملك لقلوب عباده ، ويحول بينهم وبينها إذا شاء ، حتى لا يقدر العبد أن يملك شيئاً من إيمان أو كفر ، ولا يعي بقلبه شيئاً ولا يفهم إلاَّ بإذن الله ومشيئته .

فإذا حجز الله بين العبد وقلبه عن شيء فمحال أن يدركه ، فلا يستطيع العبد أن يدرك ما منع الله قلبه إدراكه .

وجميع الأقوال السابقة داخلة في هذا المعنى ، فإذا أحال بين

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص (١٣٧) .

(٢) تاج العروس (٧/٢٩٥) .

(٣) تفسير الطبري (٩/٢١٥) ، تفسير ابن كثير (٢/٢٩٨) ، البحر المحيط (٤/٤٨١) ، التفسير الكبير (١٥/١٤٧) .

(٤) تفسير الطبري (٩/٢١٦ ، ٢١٧) .

العبد وقلبه فلا يمكن أن يفهم بقلبه أو يعقل شيئاً ، واللفظ للعموم ، فكما يحيل بين الكافر والإيمـان كذلـك يحيل بين المؤمن والكفـر ، فللمحسن ثبات الإيمان ، وللمسيء ثبات الكفر ؛ جـزاء ما اقتـرفت يداه .

وبما أننا نتكلم عن موت القلب فهنا الإحـالة بين الكـافر بـالله تعالىٰ . أو إن لـم يكن كذلك فهي الإحالة بين المتمادي في مهـاوي مرض القلب ودركات موته إلى هـذا الحد فلم يـعِ من الحق شيئاً ، وبين التعقل بما ينجيـه ، وليس على الله بعزيـز أن يهديـه بسبب من الأسباب ، فهو مقلّب القلوب والأفئدة .

المبحث الرابع عشر

تقليب القلوب والأفئدة

ونسب التقليب للأفئدة في قوله تعالىٰ : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام : آية ١١٠] ، كما نسب التقليب للقلب في قوله تعالىٰ : ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور : آية ٣٧] .

وفي حديث أُم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول : «**اللَّهمَّ مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . قالت : قلت يا رسول الله أَوَ إن القلوب لتتقلب ؟ قال : نعم . ما من خلق الله من بني آدم من بشر إلاَّ وإن قلبه بين إصبعين من أصابع الله ، فإن شاء الله عزّ وجلّ أقامه وإن شاء أزاغه** . . » الحديث[1] .

---

(١) مسند أحمد (٣٠٢/٦ ، ٣١٥) ، تفسير الطبري (١٨٧/٣) عند تفسير قوله تعالىٰ ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**﴾ [آل عمران : آية ٨] وأورد عدة أحاديث في هذا المعنى .

وأخرجه الترمذي برقم (٣٥١٧) في الدعوات باب رقم (٩٥) وقال : حديث حسن . وأيضاً له طرق أُخرى عن أنس بن مالك ، جامع الأُصول (٣٤٢/٤ ، ٥٣/٧) .

وأيضاً في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ، ثم قال رسول الله ﷺ : اللَّهمَّ مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك»**[1] .

فالحق تبارك وتعالىٰ متصرف في قلوب العباد كيف شاء ، فجميع الأمور بيده ، والكل ملك لله تعالى يفعل ما يشاء لا علة لأفعاله ، وإن كانت لا تخرج عن حكمة علمنا بها أم لم نعلم . فهي سر من أسرار الله تعالىٰ التي ضربت من دونها الأستار .

والتقليب في اللغة : تحويل الشيء عن وجهه ، وقلبه : حوّله ظهراً لبطن ، وتقلب الشيء ظهراً لبطن : كالحية تتقلب على الرمضاء[2] .

والانقلاب : الانصراف ؛ وتقليب الشيء : تغيّره من حال إلى حال .

وتقليب الأمور : تدبيرها والنظر فيها .

وتقليب الله القلوب والبصائر : صرفها من رأي إلى رأي[3] .

(وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى : **﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾** : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء، وردّت عن كل أمر) .

---

(١) صحيح مسلم (٤/٢٠٤٥) حديث رقم (٢٦٥٤) كتاب القدر ، باب (٣) .

(٢) لسان العرب (١/٦٨٥) .

(٣) المفردات ص (٤١٠) .

وقال مجاهد : (نحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون)[1] .

وقال الرازي : (إن الكفر والإيمان بقضاء الله وقدره ، والتقلب ، والقلب واحد : وهو تحويل الشيء عن وجهه ، ومعنى تقليب الأفئدة والأبصار : هو أنه إذا جاءتهم الآيات القاهرة التي اقترحوها ، وعرفوا كيفية دلالتها على صدق الرسول إلَّا أنه تعالىٰ إذا قلب قلوبهم وأبصارهم عن ذلك الوجه الصحيح ، بقوا على الكفر ولم ينتفعوا بتلك الآيات)[2] .

وسواء قلبها عن الهدى أو قلبها في مهاوي الردى من سيء إلى أسوأ ، فالمقصود أن من تمادى في دركات الموت وكان حليفه الكبر والحسد ، ورائده الشهوات أو الشبهات ؛ لا بد أن يصاب القلب بالعمى ، فالشر يؤدي إلى مثله ، فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها .

---

(١) تفسير الطبري (٣١٤/٧) .

(٢) التفسير الكبير (١٤٦/١٣) .

المبحث الخامس عشر

القلب الأعمى

وكما يفقد البصر قوته الباصرة ، يفقد قدرة البصيرة ، وشتان بين الاثنين ، فالذنوب إذا توالت على العبد طمست من القلب تعقله ، وحجبت عنه نور الإيمان الذي هو حياة القلوب .

قال تعالىٰ في المكذبين بالرسل : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

العين والميم والحرف المعتل أصل واحد يدل على ستر وتغطية .

من ذلك العمى : ذهاب البصر من العينين كلتيهما[١] .

والعرب إذا قالوا : فلان أعمى من فلان : أرادوا به عمى القلب ، لأنه لا يُقال للأعمَيَيْن : هذا أعمى من ذا ، ولا لِمَيْتَيْنِ :

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١٣٣/٤) .

هذا أموت من ذا[1] .

والعمى : ذهاب نظر القلب . وكلما ذكر الله عزّ وجلّ العمى في كتابه فذمّه ؛ يريد عمى القلب[2] .

والعمى : افتقاد البصر والبصيرة ، ويُقال للأول أعمى ، وفي الثاني : أعمى وعمٍ[3] .

والبصر : اسم للإدراك التام الحاصل بالعين التي في الرأس .

والبصيرة : اسم للإدراك التام الحاصل في القلب[4] .

والعماية والعمية : الغواية واللجاج في الباطل .

والعمية بالكسر والضم مشددتي الميم والياء : الكبر والضلال .

والأعماء : الجهال : جمع أعمى[5] .

(والعرب إذا قالوا هو أفعل منك : قالوه في كل فاعل وفعيل وما لا يزاد في فعله شيء على ثلاثة أحرف ، وإنما جاز في العمى : لأنه لم يرد به عمى العينين إنما أريد عمى القلب ، فيقال : فلان أعمى في القلب ، ولا يُقال هو أعمى منه في العين)[6] . ومن ذلك قوله تعالىٰ ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا

---

(1) لسان العرب (١٥/٩٦) تاج العروس (١٠/٢٥٥) .
(2) المرجع السابق نفسه .
(3) المفردات في غريب القرآن ص (٣٤٨) .
(4) التفسير الكبير (١٣/١٣٣) .
(5) القاموس المحيط ص (١٦٩٥) ، تاج العروس (١٠/٢٥٥) .
(6) لسان العرب (١٥/٩٥) .

﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦].

نلاحظ :

أولاً : أن القلب مكان التعقل والتدبر ؛ فقد نسب الحق التعقل إلى القلب ، كقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق : آية ٣٧] .

فهو مقر المعرفة وآلة التعقل ، وليس الدماغ ، وإن كان بينهما ترابط وثيق .

ثانياً : الرؤيا بالبصر لها حظ عظيم في الاعتبار ، وكذلك استماع الأخبار ، ولكن لا يكتمل هذان إلَّا بتدبر القلب ، لأن مجرد المشاهدة والاستماع وحدهما لا ينتفع بها العبد .

ثالثاً : مكان القلب المعنوي هو الصدر : فالآية حددت ذلك والحسي لا يصاب بالعمى المتعارف .

رابعاً : عمى العين مع إبصار القلب لا يضر بخلاف العكس ، فإن أعمى العين يتذكر فتنفعه الذكرى ببصيرة قلبه . قال تعالىٰ : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس : آية ١ ـ ٤][1] .

وعمى القلب : موت ناتج عن مرض مسبق ، كإفساد في الأرض واستهزاء ومخادعة للمؤمنين ، أدى بهم إلى النفاق التام ، فزادهم الله مرضاً لرغبتهم في الضلال ، فآل بهم إلى العمى ،

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٦٢) وسنتطرق بتوسع لهذا في باب القلب والمعرفة .

وأعمى القلب لا يعقل لأن العقل نور القلب ، وقد سلبهم الله ذلك النور فأصبحوا كافرين . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : آية ١٧١] .

فإذا بلغ العبد هذا الدرك لا يتدبر آيات الله الكونية ليستدرك بها على وحدانية الله ، فهو إن فكر فإنه يفكر ما تمليه غريزته الحيوانية ، مكذباً بكل ما وراء العقل ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾ [يونس : آية ٣٩] فاستحق بذلك لعنة الله قال تعالىٰ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[محمد: آية٢٣].

وقال البغوي : العمى الضار هو عمى القلب ، فأما عمى البصر فليس بضار في أمر الدين .

قال قتادة : (البصر الظاهر بلغة ومتعة ، وبصر القلب هو البصر النافع)(١) .

وقال ابن القيم : من عقوبة المعاصي (أنها تعمي بصيرة القلب ، وتطمس نوره وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية) .

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل : إني أرى الله تعالىٰ قد ألقى عليك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية .

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل ، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم ، فكم من مهلك يسقط فيه

---

(١) معالم التنزيل في التفسير والتأويل (١٢٣/٤) الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت ٥١٠) هـ .

ولا يبصره ، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب ، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب ، ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب إلى الجوارح ، فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها) (١) .

والخلاصة : أن العمى كما يكون طمس للإدراك التام الحاصل في القلب ، فهو أيضاً بمعنى الغواية واللجاج في الباطل ، وأيضاً بمعنى الكبر والضلال والجهل ، فعلى مقدار الجهل والغواية وكثرة المعاصي يزداد ظلام القلب وطمس الإدراك ، فإذا بلغ الحد إلى التكذيب بيوم الدين والاستهزاء بما أنزل على المرسلين ، فهو المعتد الأثيم من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : آية ١٠ ـ ١٥] .

---

(١) الداء والدواء ص (١٠٧) .

المبحث السادس عشر

الـران علـى القلـب

فالذنب على الذنب مع الإصرار وسوء الأدب لا بد أن يكسب الإنسـان حالـة أكبـر من أن تنجلي عن قلبـه ، بعكس الحسنـة على مثلهـا تكسبه حـالة الـطمأنينـة التي تغمر قلبـه ، وكلا الحـالتين غمر وغـطاء ، ولكن شتـان بين الحسنـة والمعصيـة . ففي حـديث أبي هـريرة ـ رضي الله عنـه ـ قال : قـال رسول الله ﷺ : **«إن العبـد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها ، حتى تعلو قلبـه ، وهو الـران الذي ذكـره الله»**[1] .

والنكت : الأثر في الشيء[2] .

---

(١) أخـرجه التـرمـذي رقم (٣٣٣١) في التفسيـر ، بـاب : ومن سـورة ويـل للمطففين ، وأخرجه ابن ماجه رقم (٤٢٤٤) في الزهد باب ذكر الذنوب ، وأخـرجه أحمـد في المسند (٢/٢٩٧) ، وقـال الترمـذي : حـديث حسن صحيح .

(٢) جامع الأصول (٢/٤٢٥) .

فالرين كسبي ، من أثر الذنوب على القلب يحيط به ، فهو كالصدأ يطبق على القلب حتى يقفل ثم يختم ، فإن كان بعد إسلام انتكس العبد حتى تلحقه رحمة الله أو تغلب عليه شقوته . وإن كان مع كفر وجحود فهي ظلمات بعضها فوق بعض .قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : آية ٨١] .فقبل أن يكون الران ، هي مجرد ذنوب تتراكم على القلب حتى تميته .

وقد ذكر الحق تبارك وتعالىٰ (الرين) في كتابه مرة واحدة في سورة المطففين ؛ حالة من حالات مراحل القلب الميت ، الذي استهزأ بآي الذكر الحكيم وكذب بيوم الدين ، ففجر عن الحق واعتدى على الخلق .

قال تعالىٰ : ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : آية ١٤] .

والرين : الطبع والدنس ، والرين : الصدأ الذي يعلو السيف والمرآة .

وكل ما غطى شيئاً فقد ران عليه .

ورانت عليه الخمر : غلبته وغشيته ، كذلك النعاس والهم ، وكل غلبة : رين[1] .

وفي حديث أسيفع جهينة قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: (فإن الأسيفع رضي من دينه وأمانته بأن يُقال سبق الحاج ،

---

(١) لسان العرب (١٩٢/١٣) ، تاج العروس (٢٢٣/٩) .

ألا وإنه قد دان معرضاً فأصبح قد رين به ، فمن كان له عليه دين فليأتنا بالغداة . . الحديث)[1] .

فيقال : رين به : إذا وقع الرجل فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به[2] .

وقوله قد دان معرضاً : أي استدان معرضاً عن الأداء ، أو استدان معترضاً لكل من يقرضه[3] .

وذكر أهل التفسير للرين معان لا تخرج عن المدلول اللغوي من الغلبة والتغطية .

قال الحسن البصري رحمه الله في تفسير الرين : هو الذنب على الذنب ؛ حتى يموت القلب .

وعنه : هو الذنب على الذنب ؛ حتى يعمى القلب فيموت .

وعن مجاهد قال في تفسير الآية : العبد يعمل بالذنوب فتحيط بالقلب ، ثم ترتفع حتى تغشى القلب .

وقال : كانوا يرون القلب في مثل هذا ـ يعني الكف ـ فإذا أذنب العبد ذنباً ضم منه ـ وقال بإصبعه الخنصر هكذا ـ فإذا أذنب ضم أصبعاً أخرىٰ ، فإذا أذنب ضم أصبعاً أخرى ، حتى ضم أصابعه كلها ، ثم يطبع عليه بطابع .

---

(١) الموطأ (٢/٧٧٠) كتاب الوصية ، باب (٨) جامع القضاء وكراهيته ، مالك بن أنس بن مالك الأصبحي ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .
ومعنى (قد ران معرضاً : أي اشترى بدين ولم يهتم بقضائه) .

(٢) النهاية في غريب الحديث (٢/٢٩١) .

(٣) لسان العرب (١٣/١٩٣) .

قال مجاهد : وكانوا يرون ذلك : الرين .

وعنه قال : انبثت على قلبه الخطايا حتى غمرته .

وقال قتادة : أعمال السوء ، أي - والله - ذنب على ذنب ، وذنب على ذنب حتى مات قلبه واسودّ(١) .

وقال القاسمي في معنى قوله ﴿كلا بل ران على قلوبهم﴾ أي غطى على مداركهم ما اكتسبوه من الآثام ، حتى كدر جوهرها وصار صدأ عليها بالرسوخ فيها(٢) .

والمهم أن الذنوب كالوسخ والصدأ على القلوب ، فهي ترسخ في نفس الإنسان بكثرة التكرار وعلى حسب درجاتها حتى تكون ملكة راسخة ، لا تقبل الزوال ، ثم تصبح صفة من صفات القلب فيرسخ حبها فيه ولا يزول ، كالصدأ لا يزول بسهولة ، ولكن مهما علا الصدأ إذا صادف أيدٍ خبيرة زال عن الشيء ، وكذلك الذنوب مهما تراكمت على القلب وغطّته فإنما تغطي الفطرة على أدنى مراتب الخير ، وقد تقوى الفطرة على هذا الركام إذا شاء الله لها فيزول الغطاء ، والأمر مشاهد في كثير من الناس ، ولكن إذا أصرّ الإنسان في غيه وتمادى في ضلاله ؛ فلا بدّ لهذا الرين أن يحيط بالقلب ويقفله ، فتتعطل قوة الإدراك عند أشخاص تهالكوا في درك الموت ، وزاد بهم المرض حتى أدى بهم إلى العطب .

قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، فأصمّهم ؛ فلم يعد لهذه

---

(١) جامع البيان (٣٠/٩٧ ، ٩٨) تفسير القرطبي (١٩/٢٥٩) تفسير ابن كثير (٤/٤٨٥) .

(٢) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل (١٧/٩٢) محمد جمال الدين القاسمي م : ١٣٣٢ هـ .

الحاسة وظيفة سماع الحق ، وأعمى أبصارهم ؛ لأنهم لم يعتبروا بمن مضى من أمم ذكرت في محكم البيان ، ولم يتدبروا القرآن ليزيل غشاوتهم ويفتح قلوبهم ، ويسكب فيها من نوره ، بل استمروا على غي وضلال ، فأقفل الله قلوبهم .

المبحث السابع عشر

القفـل علـى القلب

قال تعالىٰ في وصف هذه الفئة من الناس : ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : آية ٢٠ ـ ٢٤] .

و (أم) في قوله ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾ منقطعة ، بمعنى (بل)[١] والقفل على القلب ورد في القرآن مرة واحدة .

والقاف والفاء واللام : أصل صحيح يدل على صلابة وشدة

---

(١) البحر المحيط (٨٣/٨) معالم التنزيل (١٦٠/٥) ، تفسير القرطبي (٢٤٦/١٦) .

في شيء ، فالقفيل هو الخشب اليابس ، ومنه القفل : لأن فيه شداً وشدة[1] .

وقال المفسرون في معنى القفل : أي على قلوب أقفال ، أقفلها الله عزّ وجلّ عليهم ، فهم لا يعقلون لأنهم لم يتفهموا القرآن ، فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام[2] .

أخرج ابن جرير بسنده عن هشام بن عروة[3] عن أبيه قال : (تلا رسول الله ﷺ يوماً **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾** فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى يكون الله عزّ وجلّ يفتحها أو يفرجها)[4] .

وتدبر القرآن واتباع منهجه والتمسك بالسنة من أسباب فتح أقفال القلوب . وفي أضواء البيان عند تفسير هذه الآية قال : إن أسباب انحطاط المسلمين في بعض العصور ، وتأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم ؛ راجع إلى عدم تدبر القرآن ، فتنغلق القلوب ويخلو منها الإيمان ، وإن كانت الآية في المنافقين إلَّا أن سنة الله قائمة ، فمن أفسد في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام وسفك الدماء الحرام ؛ عاجله أو آجله بعقاب من عنده ، وإن أطاع فتح الله قفل قلبه للإيمان[5] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١٢/٥) .

(٢) أضواء البيان (٤٢٨/٧) ، القرطبي (٢٤٦/١٦) ، روح المعاني (٧٤/٢٦) ، ابن كثير (١٨٠/٤) ، الكشاف (٤٥٨/٣) .

(٣) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام ـ تابعي محدث ، توفي ١٤٦ هـ ، الأعلام (٨٧/٨) .

(٤) جامع البيان (٥٨/٢٦) ، معالم التنزيل (١٦٠/٥) .

(٥) أضواء البيان (٤٢٨/٧) .

أخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير[1] عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ : . . وفيه : **فجاء بفرقان فرق فيه بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقرّ عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار** . . الحديث[2] .

وقفل القلب حقيقة . فالله أضاف الأقفال إلى القلوب ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها ، مناسبة لها ، غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة[3] .

والخلاصة : أن السبب الأول في قفل القلوب البعد عن كتاب الله ، وعدم التذكر بمواعظه يؤدّي بالإنسان إلى ارتكاب كثير من الآثام ، وأهمها : الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم ، فيستحق اللعنة التي وعد الله بها ، والابتلاء بالصمم عن سماع الموعظة ، وعمى البصيرة عن طريق الهداية ، ولا هداية بغير نور القرآن الذي أنزله الله ليستضاء به ، فيعلم في ضوئه الحق من الباطل ، والحسن من القبيح ، والنافع من الضار ، والرشد من الغي ، ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور تخبط في الظلام ، فمن غطت الذنوب جميع قلبه ولم يستيقظ حتى أتاه القفل ، فما بعد القفل إلَّا الطبع .

---

(١) عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي ، ثقة ، توفي ١١٨ هـ ، تهذيب التهذيب ، (٦/١٥٤) .

(٢) مسند الإمام أحمد (٦/٣) .

(٣) روح المعاني (٢٦/٧٤) ، التفسير الكبير (٢٨/٦٦) محاسن التأويل (١٥/٥٥) .

المبحث الثامن عشر

الطبع على القلب

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾ [غافر : آية ٣٥] .

وهـذه الآية ذكـرها الحق سبحـانه وتعـالىٰ ، ضمن آيات أُخـر قبلهـا جرت على لسـان رجل من آل فـرعون وقـع الحق في قلبـه ، وكتم إيمانه ، دافع عن موسى عليه السلام أمام طاغية..

قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ

ٱلرَّشَادِ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : آية ٢٨ - ٣٥] .

أوضح لهم أن ما جاء به موسى قد يكون حقاً ، و رفض الحق يعرض المرء للانتقام .

أوضح لهم أن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ، وأن الله لا يريد ظلم العباد .

وأوضح لهم أن من يضلل الله فما له من هاد ، وكذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب في عقيدته .

وأخيراً يخبرهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان ، إنما هو التجبر والتكبر ، فعاقبته الطبع على قلبه ، الطبع على موضع الهدى ومنفذ الإدراك ، والطبع أينما بحثت عنه في كتاب الله تجده ارتبط بالقلب .

فما هو الطبع ولمن يكون .

ذكرت هذه المادة في كتاب الله إحدى عشرة مرة ، حالة من حالات القلب ، ترتبط به في وقت معين ، تسلبه خصائص يتميز بها .

فمن طبع على قلبه ، قد يحرم من الإيمان ؛ حسب درجته من الإصرار والعناد والبعد عن منهج الصواب . قال تعالىٰ عن بني إسرائيل : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : آية ١٥٥ ـ ١٥٦] .

ويطبع على قلوب الكافرين الذين كذبوا رسل الحق قال تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : آية ١٠١] .

والطبع على القلب : يقفل باب العلم وباب الفقه ، فلا يسمع ولا يبصر عن الحق شيئاً .

قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : آية ١٠٠] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[التوبة : آية ٩٣] .

وكما في قوله تعالىٰ : ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : آية ٨٧] . وغيرها آيات أُخر .

فالمطبوع على قلبه لا يعي ما جاء عن الحق مجملاً ولا يفقهه مفصلاً ، لأن تأمله محصور في شهواته وغيِّه .

وقد يطبع على قلب المسلم العاصي تارك الجمعة ، فقد أخرج أبو داود والنسائي وغيرهم من حديث أبي الجعد الضمري ، أن رسول الله ﷺ قال : **«من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه»**[١] ، وقال الترمذي : حديث حسن .

والطاء والباء والعين : أصل صحيح ، وهو مثل على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها . يُقال : طبعت على الشيء طابعاً ، ثم يُقال : على هذا طبع الإنسان وسجيّته[٢] .

وطبعه الله على الأمر ، يطبعه طبعاً : فطره[٣] .

والطبع : ابتداء صنعة الشيء ، تقول : طبعت اللبن طبعاً ، وطبع الدرهم والسيف وغيرهما يطبعه طبعاً : صاغه .

وأصل الطبع : الصدأ يكثر على السيف وغيره[٤] .

---

(١) سنن أبي داود كتاب الصلاة (٢٠٤) ، عون المعبود (٣/٣٧٧) ، سنن الترمذي كتاب الجمعة (٧) .
(٢) معجم مقاييس اللغة (٣/٤٣٨) .
(٣) لسان العرب (٨/٢٣٣) ، تاج العروس (٥/٤٣٨) .
(٤) لسان العرب (٨/٢٣٣) .

وقيل : الطبع : أن يصوّر الشيء بصورة ما ، كطبع السكة وطبع الدراهم ، وهو أعم من الختم وأخص من النقش[1] .

والفرق بين الختم والطبع : أن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه ، فهو يفيد معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم ، ولهذا قيل : طبع الدرهم طبعاً ، وهو الأثر الذي يؤثره فيه فلا يزول عنه ، كذلك قيل : طبع الإنسان لأنه ثابت غير زائل ، وقيل : طبع فلان على هذا الخلق : إذا كان لا يزول عنه .

وقال بعضهم : الطبع علامة تدل على كنه الشيء[2] .

كما وأن الطبع يكون على القلب والسمع والبصر ، قال تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ ﴾ [النحل : آية ١٠٨] بخلاف الختم فإنه على القلب والسمع فقط .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسير قول الحق تبارك وتعالىٰ : ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [يونس : آية ٧٤] .

(فهؤلاء الرسل جاءوا قومهم بالبينات . والنص يقول : إنهم ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، وهذا يحتمل أنهم بعد مجيء

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/٤٩٤) .
(٢) الفروق اللغوية ص (٥٦) .

الآيات ظلّوا يكذبون كما كانوا قبلها يكذبون ، فلم تحوّلهم الآيات عن عنادهم . كما يحتمل أن المكذبين جماعة واحدة على اختلاف أجيالهم ، لأنهم ذو طبيعة واحدة ، فهؤلاء ما كان يمكن أن يؤمنوا بما كذب به أسلاف لهم ، أو بما كذبوا هم به في أشخاص هؤلاء الأسلاف ، فهم منهم ، طبيعتهم واحدة ، وموقفهم تجاه البيّنات واحد ، لا يفتحون لها قلوبهم ، ولا يتدبرونها بعقولهم ، وهم معتدون متجاوزون حد الاعتدال والاستقامة على طريق الهدى ، ذلك أنهم يعطلون مداركهم التي أعطاها الله لهم ، ليتدبروا بها ويتبينوا ، وبمثل هذا التعطيل تغلق قلوبهم وتوصد منافذها قال تعالىٰ : ﴿**كذلك نطبع على قلوب المعتدين**﴾ .

وحسب سنة الله القديمة في أن القلب الذي يغلقه صاحبه ينطبع على هذا ويجمد ويتحجر فلا يعود صالحاً للتلقي والاستقبال ، لا أن الله يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الاهتداء ، فإنما هي السنة تتحقق مقتضياتها في جميع الأحوال)[1] .

والطبع منه مخرج وإن كان قليلاً ، إلاَّ إذا انتقل إلى النهاية ، ونهاية مراحل الموت الختم على القلب .

---

(١) في ظلال القرآن (١٨١٢/٣) .

المبحث التاسع عشر

الختم على القلب

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٦ ، ٧] .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده قال : حدثني الحسن بن علي الحلواني ، حدثنا أبو توبة ، حدثنا معاوية ـ وهو ابن سلام ـ عن زيد ـ يعني أخاه ـ أنه سمع أبا سلام قال : حدثني الحكم بن مينا ، أن عبد الله بن عمر وأبا هريرة حدثاه أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول ـ على أعواد منبره ـ : «**لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونُنَّ من الغافلين**»[1] .

فالذنوب والمعاصي لا بدّ أن يؤثر ضررها في القلب كضرر

---

(١) صحيح مسلم (٥٩١/٢) حديث رقم (٨٦٥) ، كتاب الجمعة ، باب (١٢) .

السموم في الأبدان ، على اختلاف درجاتها في الضرر . فالمعاصي بريد الكفر ، فلا يأمن عاقبة المعاصي إلاّ مغرور . فلا تزال به حتى ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير له عادة ، فيكون الطبع أو الختم فالغفلة .

وذكر الختم في كتاب الله تعالىٰ مرتبطاً بالقلب في أربعة مواضع :

الأول : في قوله تعالىٰ : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٧] .

الثاني : في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام : آية ٤٦] .

الثالث : في قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الشورىٰ : آية ٢٤] .

الرابع : في قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : آية ٢٣] .

الخاء والتاء والميم أصل واحد ، وهو بلوغ آخر الشيء ، يُقال : ختمت العمل ، وختم القارىء السورة . فأما الختم : وهو

الطبع على الشيء ؛ فذلك من الباب أيضاً ، لأن الطبع على الشيء لا يكون إلّا بعد بلوغ آخره في الإحراز[1] .

وختمه بمعنى : طبعه ؛ فهو مختوم ، والختم المنع[2] .

والختم : إخفاء خبر الشيء بجمع أطرافه عليه ، على وجه يحتفظ به .

قال الزجاج : معنى ختم وطبع واحد في اللغة ، وهو : التغطية على الشيء ، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء[3] .

والختم ينبىء عن إتمام الشيء وقطع فعله وعمله . تقول : ختمت القرآن أي أتممت حفظه وقرأته ، وختمت الكنز : لأنه آخر ما يفعل به لحفظه[4] .

والختم : الطبع بالخاتم ، والمراد منه إحراز ما وراءه لئلا يخرج منه شيء ، أو يصل إليه شيء من الخارج[5] .

والختم في القرآن على أربعة أوجه :

أحدها : الطبع . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة : آية ٧] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الجاثية : آية ٢٣] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/٢٤٥) .
(٢) لسان العرب (١٢/١٦٣) .
(٣) تاج العروس (٨/٢٦٦) .
(٤) الفروق اللغوية ص (٥٦) .
(٥) نزهة الأعين النواظر (ص) (٢٧٢) .

والثاني : الحفظ والربط ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ ﴾ [الشورى : آية ٢٤] أي يحفظه ويربطه .

والثالث : المنع . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ [يس : آية ٦٥] أي نمنعها الكلام .

والرابع : الآخر ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ [الأحزاب : آية ٤٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ ﴾ [المطففين : آية ٢٦][1] .

والحق تبارك وتعالىٰ وصف القلب الميت بأوصاف عدة ، كالاشمئزاز والطبع والإسلاك والختم والرين والريب والغفلة والغلفة والقفل ، وغيرها من الصفات ، وكل صفة لا بدّ أن تكون لمرتبة معينة يصل إليها العبد ، حسب استعداد نفسه لقبول المعاصي والتدرج في إنكار المعرفة ، ولا يمكن أن تكون هذه الأوصاف مجرد أسماء فالختم لا بد أن يكون غير الطبع وغير الإقفال ، وكلها معان حقيقية .

فإذا عدم الوعي عن مفهوم مخاطبة الحق سبحانه والتفكر في آياته ختم على القلب ، وإذا السمع انصرف عن سماع الحق كما قال الله تعالىٰ على لسان نوح عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾ [نوح : آية ٧] ختم عليه ، والفاعل لذلك هو الحق

---

(١) نزهة الأعين النواظر ص (٢٧٣) ، إصلاح الوجوه والنظائر ص (١٥٣) .

تبارك وتعالىٰ مجازاة لكفرهم وفعله عدل . قال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [الحجرات : آية ١٧]فهو المالك المطلق .

وقال القرطبي - رحمه الله - في الختم والطبع هو : معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به ، دليله قوله تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [الشعراء : آية ٢٠٠][1] .

(فالختم : هو الشد على القلب ؛ حتى لا يشعر ولا يفهم ، فهو مانع يمنع العلم والتقصد)[2] .

فإذا منع العلم بعد الختم وبلد التفكر امتنع التعقل ، لأن القلب محل الفهم والإدراك ، فهو العضو الذي يفقه في الإنسان ، لذلك يتنزل القرآن على قلب رسول الله ﷺ . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [البقرة : آية ٩٧] .

فإذا ختم على القلب وليس قبله إيمان ؛ كان منعاً من قبول وارد إيماني آخر ، فتكون حالة الفرد كما وصفها الحق تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : آية ١٧١] .

---

(١) تفسير القرطبي (١/١٨٧) .
(٢) التبيان في أقسام القرآن ص (١٩٠) .

صفـة الختـم :

طالما الأمر معنوي ؛ تولى الله ذلك ولم يأت إلينا من الشـارع ما يدل على الكيفية ، والعقل قاصر عن الإدراك المـادي ، فلو تبحر فيما وراء المادة لكان عجزه أشد وأدهى . ولكن العلماء رحمهم الله تكلمـوا في ذلـك حسب مـا ورد من نصـوص يستشف منهـا العـالِم تقارب المعنى ، ولكن لم يفرقوا بين الختم والطبع والران مثلاً ، إلاّ أن البعض أعلى من الآخر ، والمرجع تراكم الـذنوب على القلب . كما في الحديث الذي رواه أبو هـريرة ـ رضي الله عنـه ـ قال : قـال رسـول الله ﷺ : «**إذا أذنب العبد نكت في قلبـه نكتة سـوداء ، فـإن تاب صقل منها ، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبـه ؛ فذلـك الران الذي ذكره الله عزّ وجلّ : ﴿كلا بل ران على قلوبهم﴾**»[1] .

أخرج الطبري بسنده عن مجاهد قال : نبئت أن الذنـوب على القلب تحف به من نواحيه حتى تلتقي عليه . فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم .

وقال الطبري : إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتهـا ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبـل الله عزّ وجـلّ والطـبـع ، فلا يكـون للإيمـان إليها مسلك ، ولا للكفـر منها مخلص ، فـذلك هـو الـطبـع والـختـم الـذي ذكـره الله تـعـالـى فـي قوله : **﴿ختم اللَّـه عـلى قـلوبـهم وعلى سمعهم﴾** نـظير الـطبـع والختم على مـا تدركه الأبصـار من الأوعية والـظروف التي لا يوصـل إلى ما فيهـا إلاّ

---

(١) المستدرك : كتاب الإيمان (١/٥) وقال : حديث صحيـح ، وأخرجـه ابن جـرير الـطبري بسنـده ، في تفسير قـوله تعـالىٰ : **﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ..﴾** الآية ، (١/ ١١٢) .

بفض ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم ؛ إلاّ بعد فضه خاتمه وحلّه رباطه عنه[1] .

الختم على قلوب المؤمنين :

ورد الختم على القلب في حق المصطفى ﷺ قال تعالىٰ :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الشورى : آية ٢٤] .

وهنا ذكر العلماء أقوالاً في معنى هذه الآية :

١ ـ قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن ، فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ﷺ ما أخبرهم به في هذه الآية[2] . ومثله قال ابن كثير .

٢ ـ قال مجاهد ومقاتل : إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم[3] .

٣ ـ أي : حتى لا يشق عليك قولهم : إنه مفتر كذاب .

وبالتتبع نجد أن الختم وغيره على القلوب لا يكون إلاّ بعد تمادٍ في الكفر أو العصيان ، فيكون ذلك عقاب من الله لهم على مبادرتهم للكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم ، كما بيّنه تعالىٰ

---

(١) جامع البيان (١/١١٢ ـ ١١٣) .

(٢) تفسير القرطبي (١٦/٢٥) ، تفسير ابن كثير (٤/١١٤) ، تفسير الطبري (٢٥/٢٧) ، التفسير الكبير (٢٧/١٦٧) .

(٣) المرجع السابق نفسه .

بقوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : آية ١٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [المنافقون : آية ٣] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : آية ٥] .

ورسول الله ﷺ أعرف الناس بربه فلا تصدر منه المعاصي .
ثم إن الختم : إغلاق على القلب بما حوى ، فلا يخرج منه ولا يدخل إليه شيء ، وقلب المصطفى ﷺ ملىء إيماناً ، فالختم على قلبه الشريف يكون بعدم المبالاة بتكذيبهم إيـاه ، والاطمئنان أن لا فائدة ترجى منهم ، وأن الله يفعل ما يريد ، ولا يكون بنزع الإيمان منه ﷺ .

المبحث العشرون

القلب الغافل

فالقلب إذا ختم عليه بعد أن غطّته الذنوب وعمّه الصمم ، وعمى البصيرة ، لا بدّ أن يكون من الغافلين ، فهو قلب غافل . وقد حذر الحق تبارك وتعالىٰ رسوله من اتباع أصحاب القلوب الغافلة ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: آية ٢٨] .

فمن أغفل قلبه واتجه إلى ملذاته الدنيوية ، ولم يعد في قلبه متسع للهداية ، وجعل الدنيا غايته ؛ غفل عن ذكر الله ، فاستحق أن يغفل الله قلبه .

والغين والفاء واللام أصل صحيح ، يدل على ترك الشيء سهواً وربما كان عن عمد . من ذلك : غفلت عن الشيء غفلة : إذا تركته ساهياً ، وأغفلته : إذا تركته على ذكر منك له[1] .

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٣٨٦) ، لسان العرب (١١/٢٩٨) .

والغفل : سهو يعتري الإنسان من قلّة التحفظ والتيقظ ، يُقال : غفل فهو غافل . من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ [ق : آية ٢٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [القصص : آية ١٥](١) .

وقوله تعالىٰ : ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا**﴾ أي تركناه غير مكتوب فيه الإيمان ، وقيل : من جعلناه غافلاً عن الحقائق(٢) .

ولكن هناك فروق بين النسيان والسهو والغفلة يجب التنبيه إليها .

فالنسيان إنما يكون عما كان ، والسهو يكون عما لم يكن . تقول : نسيت ما عرفته ، ولا يُقال : سهوت عما عرفته ، وإنما تقول : سهوت عن السجود في الصلاة ، فتجعل السهو بدلاً عن السجود الذي لم يكن ، والسهو والمسهو عنه يتعاقبان .

وفرق آخر : إن الإنسان إنما ينسى ما كان ذاكراً له ، والسهو يكون عن ذكر وعن غير ذكر ، لأنه خفاء المعنى بما يمتنع به إدراكه .

وفرق آخر وهو أن الشيء الواحد محال أن يسهى عنه في وقت ولا يسهى عنه في وقت آخر ، وإنما يسهى في وقت آخر عن مثله . ويجوز أن ينسى الشيء الواحد في وقت ويذكره في وقت آخر .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص (٣٦٢) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٤/١٤٠) ، المفردات مادة «غفل» ص (٣٦٢) .

أما الغفلة فإنما تكون عما يكون ، والسهو يكون عما لا يكون ، تقول : غفلت عن هذا الشيء حتى كان ، ولا تقول : سهوت عنه حتى كان ، لأنك إذا سهوت عنه لم يكن ، ويجوز أن تغفل عنه ويكون. وفرق آخر : أن الغفلة تكون عن فعل الغير ، تقول : كنت غافلاً عما كان من فلان ، ولا يجوز أن يسهى عن فعل الخير[1] .

فإذا عرضت الآيات الدالة على وحدانية الله ؛ على قلب غافل ، معرض عن الهدى ؛ قابلها باللهو والاستهتار بلا وقار ولا تقديس ، فتصبح الحياة عاطلة هينة رخيصة .

فأعمال العبد مرتبطة بالنية ، والنية دليل اليقظة . ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه**»[2] .

واليقظة تتجلى في مواظبة العبد على فضائل الأعمال ، ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «**من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين**»[3] .

وبين الختم والغفل ترابط ، فإذا ختم على القلب غفل العبد عن أسباب الخير . ففي حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة أنهما

---

(١) الفروق اللغوية ص (٧٨) .

(٢) المستدرك (١/٤٩٣) كتاب الدعاء ، وقال الذهبي : في إسناده صالح المروي ، وهو متروك الحديث . وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (٥/٥١٧) وقال : حديث غريب . وأخرجه أحمد في مسنده (٢/١٧٧) .

(٣) المستدرك (١/٥٥٥) كتاب فضائل القرآن ، صحيح على شرط مسلم وأيده الذهبي .

سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره : «**ليتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونُنَّ من الغافلين**»(١) . والودع : الترك .

فإذا تمادى العبد في المعاصي فهو سائر في طريق الغفلة ، يطبع على قلبه أو يختم على قلبه وسمعه وبصره ، فأصبح من الغافلين ، يفضِّل الدنيا على الآخرة ، يرتاح صدره وينشرح للكفر ، فاستحق بذلك غضب الله . قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [النحل : آية ١٠٧ ـ ١٠٨] .

والحق تبارك وتعالىٰ شبه الغافلين بالأنعام بل أضل منها ؛ لأن باب المعرفة أغلق ، فالقلب لا يفقه ، والعين لا تبصر ، والأذن لا تسمع ، فلا يؤمن إلاَّ بالمادة التي يحس بها ويلمسها، أما كلمة الحق فلا .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : آية ١٧٩] .

فالغفلة ليست سهواً ولا نسياناً إنما هي تماد في البطلان

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجمعة (١٥٢/٣) ، مسند أحمد (٨٤/٢) عن ابن عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ .

والتكبر والتجبر . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : آية ٧ ـ ٨] .

الباب الخامس

القلب والمشاعر والإرادة

- **الفصل الأول : المشاعر الداخلية في الانسان .**
- **الفصل الثاني : الكسب وأثره في القلب .**

الفصل الأول

المشاعر الداخلية في الانسان

- **المبحث الأول : رعب القلب .**
- **المبحث الثاني : القسوة .**
- **المبحث الثالث : القلب الواجف .**
- **المبحث الرابع : القلب مقر الحمية .**
- **المبحث الخامس : القلوب وتشتيتها .**
- **المبحث السادس : قذف الوهن في القلب .**

المبحث الأول

رعب القلب

إن للقلوب أحوالاً وأعراضاً تصاحبها ، قد تكون أحوال مدح أو ذم ، ولا يعني بالضرورة أن يمتاز بها قلب بعينه أو تجتمع في قلب واحد أو حالة واحدة ، وكما أنها للقلب المعنوي فهي أيضاً تصاحب القلب الحسي ، وتظهر أعراضاً يشعر بها الإنسان ويشعر بها ذوي الاختصاص في مجال الطب كالرعب والفزع ، وقد يمتاز بها المعنوي ؛ كالقسوة والحمية والتشتيت والوهن .

فالرعب حالة من حالات القلب أياً كان نوعه وحاله ، والرعب والفزع من درجات الخوف .

والخوف : انفعال في النفس يحدث لتوقع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب[1] . وعرّفه الراغب بقوله : (توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، وهو ضد الأمن)[2] ، ويستعمل في الأمور الدنيوية والأخروية .

---

(١) دائرة معارف البستاني (٧/٥٠١) .

(٢) المفردات ص (١٦١) .

ففي الأمور الدنيوية كقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ [النساء : آية ٣] .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [النساء : آية ٣٥] .

وفي الأمور الأخروية كقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم : آية ١٤] .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة : آية ١٦] .

(والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب ، كاستشعار الخوف من الأسد ، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي واختيار الطاعات ، ولذلك قيل : لا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً)[1] .

أما الرعب فهو حالة من حالات القلب :

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ

(١) المفردات ص (١٦٢) .

ﭐلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: آية ١٤٩ - ١٥١] .

ففي الآية وعد من الله تبارك وتعالىٰ بنهاية معركة الكفر والإيمان الحقيقي ، لا بدّ أن ينصر الإيمان وأهله بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين ﴿سنلقي﴾ ، (بنون العظمة على طريقة الالتفات ، جرياً على سنن الكبرياء لتقوية المهابة)[١] . وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا كفيل بحسم نتيجة المعركة .

والراء والعين والباء أُصول ثلاثة : أحدها : الخوف ، والثاني : الملء ، والآخر : القطع[٢] .

فالأول : الرعب : بسكون العين وضمها : الخوف والفزع[٣] . وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر** . . » الحديث[٤] .

والثاني : الرعَب : بفتح العين : الامتلاء ، يُقال : رعب السيل الوادي إذا ملأه .

الثالث : الرعب : بفتح الراء وتشديد العين : القطع ، يُقال : سنام مرعب أي مقطع[٥] .

والرعب : الانقطاع من امتلاء الخوف[٦] .

---

(١) تفسير أبي السعود (١/٥٧٦) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٢/٤٠٩) .

(٣) لسان العرب (١/٤٢٠) ، تاج العروس (١/٢٧١) ، النهاية في غريب الحديث (٢/٢٣٣) .

(٤) صحيح البخاري كتاب التيمم ، انظر فتح الباري (١/٤٣٦) .

(٥) لسان العرب (١/٤٢١) .

(٦) المفردات ص (١٩٧) .

وقيل : هو الخوف الذي يملأ الصدر والقلب .

وقيل : الرعب أشد الخوف[١] .

والخوف هو : توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، وهو عكس الأمن[٢] .

أو هو : توقع حلول مكروه أو فوات محبوب[٣] .

وقال ابن حجر : الرعب : الفزع[٤] .

وقال الراغب : الفزع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف ، وهو من جنس الجزع[٥] . والجزع أبلغ من الحزن ، فهو حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده .

ولكن الخوف ارتبط بالنفس قال تعالىٰ : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه : آية ٦٧] ثم هو طبيعة في الإنسان فطر عليها ، وهو ضد الأمن ، فالمؤمن يخاف الله ، ولا يُقال يرتعب من الله . ولم يرد الخوف حالة من حالات القلب .

فالرعب : شيء مغاير للخوف ، أو هو شدته ، وضعه الله في القلوب أيّاً كان نوعها ، ولكنه جلَّت قدرته ينصر بهذا الرعب عباده المؤمنين ، فيلقيه أو يقذفه في القلوب المريضة أو الميتة لتضعف أمام القلوب الطاهرة .

---

(١) تاج العروس (١/٢٧١) .

(٢) المفردات ص (١٦١) .

(٣) التعريفات ص (١٠١) .

(٤) فتح الباري (١/٢٨) .

(٥) المفردات ص (٣٧٩) .

وهذا النوع من الرعب ذكره الله في كتابه في أربعة مواضع ، مرّتان بكلمة (ألقى) ومرتان بكلمة (قذف) .

١ ـ قال تعالىٰ : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ . . . ﴾ الآية [آل عمران : آية ١٥١] .

٢ ـ وقال تعالىٰ : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ . . ﴾ الآية [الأنفال : آية ١٢] .

والإلقاء : الطرح ، يُقال : ألقى الشيء : طرحه . وفي الحديث : «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً**» أي ما يحضر قلبه لما يقوله منها[1] .

٣ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب : آية ٢٦] .

٤ ـ قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ ﴾ [الحشر : آية ٢] .

والقذف : الرمي بقوة[2] .

وذكر الرعب مرة خامسة في القرآن الكريم ولكن لم يصرح فيه بذكر القلب ، قال تعالىٰ عن أصحاب الكهف : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ

---

(١) لسان العرب (١٥/٢٥٦) .

(٢) لسان العرب (٩/٢٧٧) .

مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف : آية ١٨] .

فالرعب دائر في حالات القلب لا ينفك عنه ، وفي كلمة (ملئت) دليل على أن القلب كالوعاء يملأ ، والرعب هنا ليس الخوف وإنما مكانة أعلى من الفزع ، لأن الفزع : انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف[1] ، فإذا نظر إليهم الإنسان من مكان قريب بدلالة قوله تعالىٰ : **﴿لو اطلعت﴾** فهو في أول توقع حلول مكروه وهذا هو الخوف ، فإذا شاهد الشيء المخيف اعتراه الفزع ، خاصة إذا كان أكبر مما يتوقع ، فإن كان مهولاً كان الرعب ، وهو أمر فطري في الإنسان (لأن الله عزّ وجلّ ألبسهم من الهيبة والهيئة ، وقد قال المفسرون : كانت أعينهم مفتوحة ، كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم)[2] .

ومنه ما ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : «**بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري ، فإذا الملك الذي جاءني ، جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت : زمّلوني . .**» الحديث[3] .

والخلاصة : يمكن لنا أن نقسم الرعب إلى نوعين :

الأول : نوع فطري جبل الإنسان عليه ، يعتريه من الشيء المخيف أو المهول ، وهو ما يسمى لغة : الخوف أو الفزع ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ

---

(١) المفردات ص (٣٧٩) .

(٢) تفسير أبي السعود (٣/٥٠٨) .

(٣) فتح الباري (١/٢٧) كتاب الوحي باب (٣) حديث (٤) .

رُعْبًا ﴾ [الكهف : آية ١٨] .

والثـاني : أمر حـادث يقذفـه الله في قلوب أعدائـه ، فتضعف قـدرتهم أمـام المسلمين ، ومنـه قـولــه تعالىٰ : ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفـال : آية ١٢] .

المبحث الثاني

القسـوة

وأيضاً من أعراض القلوب القسوة :

أخـرج الإمام مسلم بسنـده قال : «**بعث أبـو موسى الأشعـري إلى قراء أهل البصرة ، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القـرآن . فقال : أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم . فاتلوه . ولا يطولنّ عليكم الأمـد فَتَقْسُـوَ قلوبـكم كـمـا قست قلوب مـن كـان قبـلكم. . » الحديث**[1] .

فهذا تحذير أهل المعرفة ، مـدرسة النبـوّة ؛ من عاقبـة التباطؤ والتقاعس ، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ ، ومـا تؤول إليه من القسـوة بعـد اللين ؛ حين تغفـل عن ذكـر الله ، فتحـرم الخشـوع ، وبيان الداء والدواء ، حتى يعيش العبد قريباً من الله .

والخشوع : من مراتب عُلْيا في حياة القلوب ، كما أن القسوة درك أسفل .

---

(١) صحيـح مسلم (١٠٥٠) في الزكـاة (١١٩) باب لـو كان لابن آدم واديـان (٧٢٦/٢) .

القاف والسين والحرف المعتل : يدل على شدة وصلابة ، من ذلك الحجر القاسي .

والقسوة غلظ القلب . وهي من قسوة الحجر[1] . فتأويل القسوة في القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه[2] .

والقسوة وإن دلت على شدة وصلابة إلَّا أنها تعبير أقوى في المعنى ، (فالقسوة تستعمل فيما لا يقبل العلاج ، ولهذا يوصف بها القلب وإن لم يكن صلباً)[3] .

وقد كررت هذه المادة في التنزيل سبع مرات مرتبطة بالقلب .

مرتان : في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : آية ٧٤] .

وقد وردت ذماً لقوم موسى عندما اختبروا في مدى الطاعة والاستجابة والتسليم ، أمام اختبار أتى من عند الله ؛ فما ازدادوا إلَّا لجاجة ، فقست قلوبهم .

ثالثاً : في قوله تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة : آية١٣] .

وهذه القسوة خلقها الله أو صيّرها في قلوب بني إسرائيل ، بعد أن نقضوا ميثاق الله ، وتهاونوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والإيمان بالرسل ونصرتهم .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٨٧/٥) ، المفردات في غريب القرآن ص (٤٠٤) .

(٢) لسان العرب (١٥/ ١٨٠) ، تاج العروس (١٠/٢٩٣) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٨٨) .

وهذه القسوة التي يخلقها الله غير القسوة اللغوية ، فهي معنى فوق أن يوصف . عقاباً لأنهم حرّفوا كلام الله ونسوا أوامر دينهم ، ولا زالت الخيانة طابعهم ودأبهم فعلاً وقولاً .

رابعاً : في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : الآيتان ٤٢ - ٤٣] .

فالقلب الذي لا تردّه الشدة إلى الله قلب تحجر ومات ، فلا تثير فيه الشدة إحساساً ، كقوم فرعون وقوم موسى . فالشدة ابتلاء تجدد للقلب الحي حياته ، وتحجر القلب القاسي .

خامساً : في قوله تعالىٰ : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الحج : آية ٥٣] .

وهذه فرّقت بين مرض القلب وقسوته ، فالقسوة موت لا شك ، من ابتلي بها يحب الجدل والشقاق ؛ لإتمام الفرقة ونقض عرى الإسلام .

سادساً : في قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر : آية ٢٢] .

هناك فرق كبير بين قلب استضاء بنور الإسلام وبين قاسي القلب ، وشتان بين هؤلاء وهؤلاء .

سابعاً : قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : آية ١٦] .

وختام الآيات أوضح الدواء ، وشرحه أبو موسى الأشعري في حديثه مع القراء ، وقد روى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال : **«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»**[1] .

فمن مال إلى الدنيا وزخرفها وأعرض عن مواعظ الله ، وأكثر الكلام فيما لا طائل تحته قرب من الغفلة . ولا يزال حاله حتى تزول صفات الحياة من قلبه ، فيتدرج في المرض ، ثم في مراتب الموت ، حتى يصل إلى القسوة .

والقلب القاسي تعود له الحياة بدلالة قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : آية ١٦] . فدلالة المفهوم أن منهم من قسى قلبه ولم يصل إلى الفسق ، والفسق نفاق أو كفر . قال تعالى في المنافقين : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة : آية ٦٧] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٦٠٨) برقم (٢٤١١) في الزهد باب رقم (٦١) وإسناده حسن غريب ، جامع الأصول (١١/٣٧) ، وأخرجه مالك في الموطأ مرسلاً (٢/٩٨٦) كتاب الكلام ، باب (٣) .

وقال عن الكفار : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : آية ٥٥] .

وقال عن قوم نوح وقوم فرعون : ﴿**إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾[١] .

فمنهم من أنقذه الله من النفاق أو الكفر ، وعاد إلى قدسية الإيمان ، وشعّ فيه نور القرآن ، فإن من تلك القلوب القاسية ما يقبل الإيمان يوماً ما ، فينتقل من القسوة إلى اللين من خشية الله ، فقد تلين القلوب القاسية بلطف الله تعالىٰ ، ويخشى العاصي . وقد أخبر الله أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : آية ١٩٩] وكما أخبر أن من الأعراب من يؤمن بالله ؛ من بعد أن أخبر أن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة : آية ٩٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة : آية ٩٧] .

---

(١) الآيات : النمل : آية ١٢ ، القصص : آية ٣٢ ، الذاريات : آية ٤٦ .

المبحث الثالث

القلب الواجف

وأيضاً من خصائص القلوب : الوجوف ، وهو : شدة الاضطراب ، ويشمل جميع أحوال القلب الحسي والمعنوي ، وقد وردت مرتبطة بالقلب في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات : آية ٦ ـ ٨] .

وفي السنة : في قوله ﷺ في وصف جبريل وفيه : «**فرفعت رأسي ، فإذا هو على العرش في الهواء ، فأخذتني وجفة شديدة . .**» الحديث[1] .

يُقال : وجف الشيء إذا اضطرب ، وأيضاً : الوجف والوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [الحشر : آية ٦] أي ما أعملتم .

(١) مسند الإمام أحمد (٣٠٦/٣) .

وقال الأزهري[1] : استوجف الحب فؤاده : إذا ذهب به[2] .

ووجف الشيء : إذا اضطرب ، ووجف وجيفاً : خفق .

وقلب واجف ـ قال الزجاج ـ : شديد الاضطراب[3] .

وقال البغوي في قوله تعالىٰ : ﴿**قلوب يومئذ واجفة**﴾ خائفة قلقة مضطربة .

وقال مجاهد : أي وجلة ، وقال السدي : زائلة عن أماكنها[4] .

وبمثل قول البغوي قال أكثر المفسرين .

---

(١) محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي ، إمام في اللغة والأدب ، ت : ٣٧٠ هـ ، الأعلام (٥/٣١١) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٥/١٦٨) .

(٣) لسان العرب (٩/٣٥٢) .

(٤) معالم التنزيل (٥/٥١٧) ، تفسير القاسمي (١٧/٤٢) ، البحر المحيط (٨/٤٢٠) .

المبحث الرابع

القلب مقر الحمية

ومن خصائص القلوب: الحمية .

والحمية : هي القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت[1] .

ونسبت إلى القلب في قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : آية ٢٦] .

ورسول الله ﷺ كانت تأخذه الحمية . ففي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قصة تطليق أبي ركانة زوجته ، وفيه : **«فجاءت ـ أي أم ركانة ـ النبيَّ ﷺ فقالت : ما يغني عني إلَّا كما تغني هذه الشعرة ، ففرّق بيني وبينه ، فأخذت النبي ﷺ حميّة ، فدعا بركانة وإخوته . .»** الحديث[2] .

والحمية هنا المراد منها : الأنفة والغيرة[3] .

---

(١) المفردات ص (١٣٢) .

(٢) سنن أبي داود (٢/٢٥٩) كتاب الطلاق حديث رقم (٢١٩٦) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (١/٤٤٧) ، لسان العرب (١٤/١٩٩) .

فتكون الحمية نوعان : محمود ومذموم .

فالمحمود : ما كان أنفة وغيرة أن تنتهك محارم الله .

والمذموم : ما أضيف إلى الجهل ، كحمية الجاهلية التي لا يراعى فيها حقوق الله .

فالقلوب لها أحوال بحسب متعلقها بالخير أو ضده ، فالقلوب السليمة وإن اكتسبت صفة اشتركت مع غيرها ؛ فنجد في اللغة أن هذه الصفة اكتسبتها مدحاً لا ذماً .

المبحث الخامس
القلـوب وتشتيتها

ومن خصائص القلوب المريضـة أو الميتة التشتيت والتفـرقة ، بعكس القلوب السليمة التي اكتسبت بفعل الله الألفة والمودة ، وقـد نسب التشتيت للقلب في قوله تعالىٰ : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر : آية ١٤] .

والتشتيت : تفريق الشعب ، يُقال : جـاؤوا أشتاتـاً أي متفرقي النظام[١] .

قال البغوي في تفسيـر الآية : (قلوبهم متفـرقة مختلفـة ، قال قتادة : أهل الباطل مختلفـة أهواؤهم ، مختلفـة شهادتهم ، مختلفـة أعمـالهم ، وهم مجتمعون في عـداوة أهل الحق ، وقـال مجاهـد : أراد أن دين المنافقين يخالف دين اليهود)[٢] .

وقـال ابن كثيـر : (تـراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف)[٣] .

---

(١) المفردات ص (٢٥٥) .

(٢) معالم التنزيل (٥/ ٣٥٠) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٠) .

وقال الزمخشري وغيره : (قلوبهم متفرقة لا إلفة بينها ، يعني أن بينهم إحناً وعداوات ، فلا يتعاضدون حق التعاضد ، ولا يرمون عن قوس واحدة ، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم)[1] .

ولكن بشرط حب الآخرة والتفاني في إعلاء كلمة الله ، والتهيؤ بالشجاعة والقدرة ، وإلاَّ قذف الله في قلوبهم الوهن .

---

(١) الكشاف (٤/٨٣) ، التفسير الكبير (٢٩/٢٩٠) ، البحر المحيط (٨/٢٤٩) .

المبحث السادس

قذف الوَهَنْ في القلب

أخـرج أبو داود في سننـه من حديث ثـوبان ـ رضي الله عنـه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :«**يوشك الأُمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قـائل : ومن قلّة نحن يـومئذ ؟ قـال : بل أنتم يـومئـذ كثيـر ، ولكنكم غثـاء كغثـاء السيـل ، ولينـزعنّ الله من صـدور عدوّكم المهـابـة منكم ، وليقـذفن الله في قلوبكم الـوهن . فقال قائل : يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال : حب الـدنيا وكـراهية الموت**»[1] .

والوهن : الضعف[2] .

(وحب الـدنيا وكـراهيـة المـوت متـلازمـان ، فكـأنهمـا شيء واحد ؛ يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين)[3] .

---

(١) سنن أبي داود (٤/١١١) كتـاب الـمـلاحم ، حـديث رقم (٤٢٩٧) ، وأخرجه أحمد بسنده في مسنده من حديث أبي هريرة (٢/٣٥٩) .

(٢) النهاية في غريب الحديث (٥/٢٣٤) .

(٣) عون المعبود (١١/٤٠٥) .

الفصل الثاني

الكسب وأثره في القلب

المبحث الأول

أنواع الكسب

أسباب نعيم الدنيا والآخرة أو العكس ، عائد إلى ما اكتسبه الإنسان من خير أو شر ، فإن اكتسب خيراً اكتسب القلب مثله ! وتدرج في مدارج القلب ، وإن اكتسب العبد شراً ؛ اكتسب القلب حب المعصية وأشربها .

ونسب الكسب للقلب في قوله تعالىٰ : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٢٢٥] .

ونسب الكسب للنفس كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : آية ٢٥] .

ونسب أيضاً للجارحة كقوله تعالىٰ : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم : آية ٤١] .

كما نسب إلى مطلق الأمة في قوله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ ﴾ [البقرة : آية ١٣٤] .

(وأصل الكسب طلب الرزق . قال سيبويه : كسب : أصاب ، واكتسب : تصرف واجتهد) .

قال ابن جني[1] في قوله تعالى : ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ : عبّر عن الحسنة بكسبت ، وعن السيئة باكتسبت ، لأن معنى كسب دون معنى اكتسب ، لما فيه من الزيادة ، وذلك أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : آية ١٦٠] أفلا ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها ؛ ضعف الواحد إلى العشرة ؟ ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تحتقر إلى الجزاء عنها ، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة ، فإذا كان فعل السيئة ذاهباً بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية ؛ عظم قدرها ، وفخم لفظ العبارة عنها ، فقيل : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، فزيد في فعل السيئة وانتقص من لفظ فعل الحسنة[2] .

والكسب وإن كان في الأصل ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ، ككسب المال ؛ فإنه قد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة ثم يستجلب به مضرة ، فالكسب يُقال فيما أخذه لنفسه ولغيره ، والاكتساب لا يُقال إلاَّ فيما استفاده لنفسه ، وكل اكتساب كسب ، وليس كل كسب اكتساب .

وقد ورد في القرآن في فعل الصالحات والسيئات .

---

(١) ابن جني : عثمان بن جني الموصلي أبو الفتح ، إمام في الأدب والنحو ، ت ٣٩٢ هـ ، الأعلام (٤/٢٠٤) .

(٢) لسان العرب (١/٧١٦) ، تاج العروس (١/٤٥٥) .

ففي الصالحات كقوله تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : آية ١٥٨] .

وفي السيئات كقوله تعالىٰ : ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الأنعام : آية ٧٠]. والاكتساب ورد فيهما أيضاً .

ففي الصالحات قال تعالىٰ : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء : آية ٣٢] وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : آية ٢٨٦] .

قيل : خص الكسب ها هنا بالصالح ، والاكتساب بالسيء .

وقيل : عنى بالكسب ما يتحراه من المكاسب الأخروية ، والاكتساب ما يتحراه من المكاسب الدنيوية)[١] .

والخلاصة : أن الله أثبت للقلوب والنفوس قصداً وعزماً ، على علم ومعرفة منها بما تقصده وتريده ، فما خرج منها من غير قصد لا تحاسب عليه ؛ كلغو اليمين ، والذنوب التي لا تكون عن إصرار القلب ؛ سيغفرها الله ، والله غفور رحيم .

وقد أوضح ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأحزاب : آية ٥] .

والعمد : ضد الخطأ وسائر الجنايات ، يُقال : تعمده وتعمّد له : أي قصده بجد ويقين[٢] . فالعمد : قصد الشيء والاستناد

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٤/ ٣٥٠) .

(٢) لسان العرب (٣/٣٠٢) ، بصائر ذوي التمييز (٤/ ٩٨) .

إليـه ، والعمد والتعمـد في التعارف خـلاف السهو ، وهـو المقصود بالنية[1] .

(١) المفردات ص (٣٤٦) .

المبحث الثاني

ضـرب القلـوب

عنـدما نعـود إلى مراجعـة تتالي الـذنـوب على القلوب وكثـرة الإفســاد ؛ نجد أنـه لا يقتصر ضـرره على العـاصي فقط ، بـل يعم غيره ، فالكل معرّض إلاَّ مَنْ عصم الله ، ولا يـظن أصحاب القلوب السليمة أنهم في مأمن من مهالك دركات المرض والمـوت القلبي ، لأنهم إن لم يـأخـذوا بيـد ذوي القلوب السقيمـة ؛ خلط الله قلوبهم بقلوب غيــرهـم ، وقست قلوبهم ، فقـد حـذر رســول الله ﷺ من ذلك ، فقـال : **«إن أول ما دخـل النقص على بني إسرائيـل : كـان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هـذا ! اتق الله ودع ما تصنـع فإنـه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشـريبه وقعيـده ، فلمـا فعلوا ذلــك ضـرب الله قلوب بعضهم ببعض»**[1] . ومعنى ضـرب الله قلوب بعضهم ببعض : أي خلطها ، وقيـل : أي سـوّد الله قلب من لم يعص بـشؤم مـن عصـى ، فصـارت قـلوب

---

(١) عون المعبود (١١/٤٨٧) كتاب الملاحم باب (١٧) ، وأخرجه الترمـذي في تفسير سورة المائدة (٥ ، ٦ ، ٧) وقال : حسن غريب ، وأخـرجه ابن ماجه في الفتن رقم (٢٠) .

جميعهم قاسية ، بعيدة عن قبول الحق والخير والرحمة ، بسبب المعاصي ومخالطة بعضهم بعضاً[1] .

(١) عون المعبود (١١/٤٨٧) ، القاموس المحيط ص (١٣٨) . معنى ضرب الشيء بالشيء أي خلطه . وتكملة الحديث في سنن أبي داود : (ثم قال : ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ـ إلى قوله ـ فاسقون﴾ ثم قال : كلا والله لتأمُرُنّ بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ـ زاد ابن مسعود في رواية : أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم) (٤/١٢١) .

المبحث الثالث

تشابه القلوب

الحب في الله من علامات طهارة القلب وصلاحه ، فيقتضي أن يبعد هذا القلب عن تلك القلوب ، لأن جليس السوء له تأثير ، والقلوب إذا خلطت ببعضها تشابهت . والتشابه كما يكون في الخير يكون في ضده ، وقد ورد تشابه قلوب أهل المعاصي في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : آية ١١٨] .

(وهي وردت في تشابه قلوب اليهود والنصارى في ارتكاب المعاصي وقلة معرفتهم بعظمة الله وجرأتهم على أنبيائه ورسله ، كما اشتبهت أقوالهم التي قالوها . ذكر ذلك الإمام الطبري)[1] ، وبمثله قال أكثر أهل التفسير .

والشبه : المثل ، وأشبه الشيء بالشيء : ماثله ، وفي

---

(١) جامع البيان (١/٥١٤) ، التفسير الكبير (٤/٢٩) ، محاسن التأويل (٢/٢٤٠) .

المثل : من أشبه أباه فما ظلم[1] .

والمهم أن أهل الضلال تتشابه أقوالهم وأفعالهم ، بما تكنّه قلوبهم من التعنت واقتراح الأباطيل واللجاج والعناد وطلب الباطل ، ولا مانه أن تتشابه قلوب أهل الهدى أيضاً : في محبة الله وتقواه وعبادته ، والتراحم فيما بينهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والله أعلم بقلوب عباده .

---

(١) لسان العرب (١٣/ ٥٠٣) .

الباب السادس

القلـب والمعـرفة

- **الفصل الأول : مكانة القلب من الأعضاء وارتباط التعقل به .**
- **الفصل الثاني : المعارف المباشرة للقلب .**

الفصل الأول

مكانة القلب من الأعضاء وارتباط التعقل به

- المبحث الأول : تمهيد عن مقر العقل .
- المبحث الثاني : أهمية القلب .
- المبحث الثالث : التعقل عمل من أعمال القلب .
- المبحث الرابع : تعريف الفهم .
- المبحث الخامس : النظر الصحيح أول مراتب المعرفة .
- المبحث السادس : تدرج رقيّ المعرفة .
- المبحث السابع : رعاية أحوال القلب أهم من رعاية غيره .
- المبحث الثامن : مكانة الخشية .
- المبحث التاسع : مكانة السمع وتعريفه .
- المبحث العاشر : النظر وأقسامه .

المبحث الأول

تمهيد عن مقر العقل

أين مقر العقل ؟ وما الفرق بينه وبين الفكر والنظر ؟ .

سؤال لا بد أن يطرقه من أراد أن يتحدث عن المعرفة ، وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا السؤال فقال :

(العقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل ، وأما من البدن : فهو متعلق بقلبه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

وقيل لابن عباس ـ رضي الله عنه ـ : بماذا نلت العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول .

لكن لفظ القلب قد يُراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن ، التي جوفها علقة سوداء ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ : «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ،وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد**»[1] .

---

(١) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري (١٢٦/١) كتاب الإيمان باب (٣٩) ، من حديث النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله ﷺ .

وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً ، فإن قلب الشيء باطنه ، كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك ، وقد سمّي القليب قليباً لأنه أخرج قلبه ، وهو باطنه .

وعلى هذا ، فإذا أريد بالقلب هذا ؛ فالعقل متعلق بدماغه أيضاً .

ولهذا قيل : إن العقل في الدماغ كما يقول كثير من الأطباء ، ونقل ذلك عن الإمام أحمد . ويقول طائفة من أصحابه : إن أصل العقل في القلب ، فإذا كمل انتهى إلى الدماغ .

لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ، ومبدأ الإرادة في القلب ، والعقل يراد به العلم ويراد به العمل ، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة ، وأصل الإرادة في القلب ، والمريد لا يكون مريداً إلَّا بعد تصور المراد ، فلا بد أن يكون القلب متصوراً ، فيكون منه هذا وهذا)[1] .

فسيد الأعضاء ورأسها هو القلب ؛ كما صرح به رسول الله ﷺ في الحديث : «**إن في الجسد مضغة**» ، فهو أمير البدن ، وبصلاح الأمير تصلح الرعية ، وبفساده تفسد .

وقال ابن حجر : (يستدل من الحديث على أن العقل في القلب)[2] .

= يقول : «**الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ ألا وهي القلب**» .

(١) مجموع الفتاوى (٩/٣٠٣) .

(٢) فتح الباري (١/١٢٩) .

والحق تبارك وتعالىٰ نسب التعقل للقلب فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : آية ٣٧] .

والحق تبارك وتعالىٰ أنزل القرآن على أشرف الأعضاء وهو القلب ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [البقرة : آية ٩٧] .

وقال تعالىٰ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : آية ١٩٣ ـ ١٩٤] .

ولا يعقل إلَّا القلب الحي ، فهو الذي يعي من الحق ما أمر به ، فالقلب آلة التعقل والتدبر ، ومحل الإرادة والاعتبار ، ومحل العلم ، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين[1] . وقيل : الدماغ محل العلم .

ولا يبعد أن يكون بين الدماغ والقلب رابطة معنوية ، ومعرفة حقيقة تلك الرابطة لا يعلمها إلَّا الله .

---

(١) تفسير الطبري (١/٤٣٦) ، (١٩/١١٢) ، (٢٦/١٧٧) ، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٧) ، التفسير الكبير (٢٣/٤٥) ، (٢٤/ ١٦٧) ، تفسير القرطبي (١٢/٧٧) .

المبحث الثاني

أهميـة القلـب

القلب هو المخاطب والمقصود بإلزام الحجة ؛ لأنه موضع التمييز والاختيار ، وأما سائر الأعضاء فمسخّرة له بإذن الله ، والدليل على أنه موضع التمييز والاختيار ؛ أن الله ذكر استحقاق الجزاء على كسب القلوب ، كما في قوله تعالىٰ :

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة : آية ٢٢٥] .

كما أن الله ألزم الحجة على وسائل الإدراك وهي السمع والبصر والفؤاد .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : آية ٣٦] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : آية ٧٨] .

ومن المعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلَّا بما يؤديانه إلى الفؤاد ، والفؤاد باطن القلب ولبّه ، فكأن السؤال عنهما في الحقيقة سؤال عن القلب .

المبحث الثالث

التعقل عمل من أعمال القلب

مما سبق يتضح أن التعقل عمل من أعمال القلب ، فالخطاب موجه إليه لتقوم به الحجة ، فلا يعرف بحال من الأحوال إلاَّ بأفعاله ، فهو نور في القلب كالنور في العين ، يولد مع الإنسان ويزيد بالتعليم والاطلاع ، حتى يكون حجة لازمة للعبد .

قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : آية ١٧] .

فالله بين لهم ما يعقلوه بقلوبهم إن تدبروا ذلك ، فاستحبوا الضلالة . فالله خاطب العباد من قبل ألبابهم ، واحتج عليهم بما ركب فيها من عقولهم .

كما قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : آية ١٩٧] .

وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : آية ٧] وغيرها من الآيات . فإذا أخذ معنى العقل على اللغة ؛ فالمراد به الفهم أو مطلق المعرفة . فهو أمر مشترك بين أهل

الهدى وأهـل الضلال ، وبين المطيع والعاصي ، وهـو فهم البيان ، كما قال تعالىٰ عن أهل الكتاب ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : آيـة ٧٥] قال ابن كثيـر : أي من بعد ما فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : آية ١٤٦] .

فهـذا فهم وبيان يشتـرك فيه المؤمن وغيـره ، ويسمى عقـلاً ، فهؤلاء الكفار (لديهم التحقق والإتقان العلمي)[٢] على صدق رسول الله في نبوته ، ومع هذا جحدوا هذه المعرفة ، وأنكروا هذا الفهم .

(١) تفسير ابن كثير (١/١١٥) .

(٢) ابن كثير (١/١٩٤) .

المبحث الرابع

تعريف الفهم

والفهم (هيئة للإنسان بها يتحقق معاني ما يحسن)[1] . وله مراتب : أدناه الغريزة والملكة الفطرية في العبد ، وهو القدر المشترك بين الجميع . وأعلاه : ما كان عن طريق الوحي ، لخصوصية العبد ، كقوله تعالىٰ : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [الأنبياء : آية ٧٩] .

وهذا الفهم تسميه العرب عقلاً[2] .

فإذا اجتمع مع الفهم نور البصيرة والمعرفة ، بتعظيم قدرة الله في الحال والمآل ، لعظيم إحسانه وقدرته وعقابه ، معتنياً بطلب العلم النافع ، راغباً في الفهم الصحيح ، عاقلاً عن الله في كل ما جاء به ، ملتزماً بآدابه ، مجتنباً لنواهيه ؛ فهذا هو العاقل .

ولا يلتزم بهذه المحاسن ؛ إلَّا عبد آمن وازداد إيماناً ، فيرتقي قلبه بزيادة إيمانه ، ويرتقي تعقله بنور قلبه .

(١) المفردات ص (٣٨٦) .

(٢) القاموس المحيط ص (١٣٣٦) .

أما من زال عن ذلك ومعه غريزة العقل التي يفرق بها بين العقلاء والمجانين ؛ فهو فاهم لما جاء من عند الله ، ولكنه ينكر هذا الفهم .

فقال تعالىٰ عن الصنف الأول : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : آية ٤٣] ، وكقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : آية ٤] .

وقال عن الصنف الآخر : ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ [البقرة : آية ٧٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

وهؤلاء قال الله في وصفهم : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : آية ٤٤] .

ومع هذا قال الحق عنهم : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : آية ٧] .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في معنى الآية : يعني معايشهم : متى يحصدون ، ومتى يزرعون ، ومتى يغرسون .

وروي عنه أنه قال : المراد : الكفار ؛ يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال[1] .

وقال الحسن البصري رحمه الله : والله ليبلغ من أحدهم

---

(١) تفسير الطبري (٢١/٢٢) .

بدنياه ، أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بـوزنه ، ومـا يحسن أن يصلّي[1] .

أقسام الناس بالنسبة للتعقل :

الحارث المحاسبي[2] قسّم الناس إلى فرق نذكرها باختصار :

فـرقة عقلت عن الله عـظم قدره وقـدرته ، ومـا وعد وتـوعّد ؛ فأطاعت وخشعت .

وفرقة عقلت البيان ثم جحدت ، كبراً وعناداً ؛ لطلب الدنيا ، كـإبليس : تكبّر وعـاند كبـراً ، وكـذلـك اليهـود الـذين قـال الله في حقهم : ﴿ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : آية ١٤٦] .

وثـالثة عقلت قـدر الله عزّ وجـلّ في تدبيـره وتفرده بـالصنـع ، وعرفت قدر الإيمان في النجاة بالتمسك به ، وقدر العقاب في ضرره في مجـانبة الإيمـان ، فأقـرّت وآمنت ، ولم تعقل عـظيم قدر ثـوابـه وعقابه في إتيان معاصيـه والقيام بفـرائضه ؛ فعصت وضيّعت وغفلت ونسيت ، إلاَّ أنها علمت عظيم قدر الإيمان في النجـاة وعظيم ضـرر الكفر ، قد عقلته عن الله تعالىٰ ، فهي قائمة به دائمة عليه[3] .

وعلى هـذا التقسيم ؛ فـالفِـرَق التي عقلت بيـان الله وآيـاتـه الكونية فأقرّت وآمنت ، سواء عقلت عظيم ثوابه فأطاعت وخشعت ، أو لم تعقـل عظيم عقـابه فعصت وضيعت ؛ هؤلاء هم الـذين نطلق عليهم لقب عقلاء .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٢٧) .

(٢) الحـارث بن أسد المحـاسبي أبو عبـد الله ـ من أكـابـر الصـوفيـة ـ تـوفي ٢٤٣ هـ ـ صفة الصفوة (٢/ ٣٦٧) .

(٣) العقــل وفهم القــرآن ص (٢١٤ ـ ٢١٦) بتصــرف/الحــارث بـن أســد المحاسبي .

والفِرَق التي جحدت كبراً وعناداً أو قلّدت فعميت عن الحق ، فلديهم الفهم الغريزي الذي تسميه العرب عقلاً ؛ لتفريقهم بين العقلاء والمجانين ، وبهذا الفهم والإدراك يكون حسابهم وتلزمهم الحجة .

تعريف العاقل وأقسام العقل :

وفي الإحياء : (العاقل من أطاع الله وإن كان ذميم المنظر ، حقير الخطر ، دني المنزلة ، رث الهيئة . وإن الجاهل من عصى الله تعالىٰ وإن كان جميل المنظر ، عظيم الخطر ، شريف المنزلة ، حسن الهيئة ، فصيحاً نطوقاً ، فالقردة والخنازير أعقل عند الله ممن عصاه)(١) .

فالمدار مدار إيمان ، ورقي إيمان من مرتبة خشوع القلب حتى نهاية مراتبه ، فبداية التعقل بداية يقظة القلب بإلقاء نور الإسلام فيه ، أي بانشراح الصدر . وأرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً ؛ خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ ، فعقول الناس عند عقله كقطرة ماء في بحر لجي .

وعلى هذا فمن الممكن أن نعرّف العقل فنقول : العقل نوعان :

الأول : عقل الطبع والفطرة ، وهذا لعموم بين الإنسان ، وهو الذي قال عنه ذوو الاختصاص بالطب بأن مركزه المخ أو بينه وبين القلب ترابط . ونوافق ذوي الاختصاص بالطب فيما قالوه عن مقره ، إن ثبت صحة الاستدلال لديهم عن مقره . ولم يسلبه الله من الكافرين فقال تعالىٰ : ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ

---

(١) إحياء علوم الدين (١/١٤١) .

مَا عَقَلُوهُ ﴾ [البقرة : آية ٧٥] .

والثـاني : نـور الإيمـان في القلب ، وهـذا مقصـور على المؤمن ؛ يزداد برقيّه في درجات الإيمـان ، ومسلوب عن الكافـرين بدلالة قوله تعالىٰ : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

فالقلب كما أسلفنا من خصائصه التعقل وعمـل من أعمالـه ، ولكن قبل نور الإيمان فهو مجرد معرفة قاصـرة عن رسم منهج لحيـاة الإنسان ؛ تحقق الحياة التي يريدهـا الله أو تصل إلى الهـدى . لهذا بعث الله الرسل ، وبدون الرسل لا يؤاخذ الناس ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسـراء : آيـة ١٥] ، وفي مثل قوله تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء : آية ١٦٥] .

فـأوّل حياة القلب وبـداية تيقظ العقـل الامتثال لمـا جاءت بـه الرسل . قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : آية ٢٤] .

فالرسـالة من الله على لسـان رسله ؛ توقظ العقـل وتوجهـه ، وتقيم لـه منهـج النـظر الصحيـح ، وتـرفـع عنـه وعن الفـطرة ركـام الشهوات المضلة .

المبحث الخامس

النظر الصحيح أول مراتب المعرفة

وأول يقظة القلب الرؤية الصحيحة بالنظر الموصل إلى المعرفة ، لهذا نجد أكثر السور المكية فيها التوجيه للرؤية المنهجية ، فقد تكرر فيها كثيراً قوله تعالىٰ : ﴿أَوَ لَمْ يروا﴾ في نطاق ما يشاهده الإنسان العادي . قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : آية ٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [النمل : آية ٨٦] .

وغيرها من الآيات على هذا النسق التي تتحدث عن الطير مسخرات في جو السماء ، وعن النبات ، وعن الليل والنهار ، وعن بسط الرزق والمطر والأنعام .

وهذه الآيات تدل على أن القلب قادر على التلقي وإدراك المدلولات ، فهذه وظيفته وفرصته في النور والهداية .

فالقلب بمصاحبة وحي الله وهداه بصير ، وبتكذيب وحي الله أعمى ، إذ فيه أجهزة استقبال ولكنها أجهزة قاصرة ، وإن كانت

تهديه إلى الأصل الأول أن له إلهاً ؛ ولكن لا تتعدى أكثر من ذلك ، والكمال الفطري كان مع أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؛ إذ بنور الفطرة والنظر الصحيح في المشاهدة العادية للكون ، استدل على أن الخالق لا شريك ولا ند له .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام : آية ٧٥ - ٧٩] فقد استدل بمحض فطرته إلى معرفة الله .

العقل وسيلة من وسائل الإدراك :

والعقل السوي جزء من الفطرة السوية ، مثله مثل بقية وسائل الإدراك الأخر ، كالسمع والبصر ، ولولا ما أودع الله فيها من قابلية السمع لكانت وسيلة قاصرة . وبدون الإيمان في القلب ؛ يكون تعقله وسيلة قاصرة محدودة في مسار الرقي الدنيوي ، بما أودع فيه من غريزة التعقل .

أما إذا غمره الإيمان فسيظهر نور العقل ، وعلى سبيل المثال توضح ما يعمله الإيمان في القلب ؛ قصة الصحابية : الخنساء بنت

عمرو بن الشريد ، عندما قتل أخوها لأبيها صخر ؛ أكثرت من الشعر في رثاه ، وملأت الدنيا بكاء وعويلاً ، وبعد ذلك أسلمت ، وجاء لها خبر أبنائها الأربعة في معركة القادسية ؛ إذ استشهدوا في المعركة . كان هذا أخاها وهؤلاء أولادها ، وكان أخوها واحد وهؤلاء أربعة . فماذا قالت ؟ :

قالت : (الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته)[1] .

فعندما عقل القلب استسلم واطمأن .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٨/٦٧) .

المبحث السادس
تـدرج رقـي المعرفـة

فـالمعرفـة إدراك الشيء بتفكر وتـدبر لأثـره ، وهـو أخص من العلم ، ويضاده الإنكار ، ويُقـال : فلان يعـرف الله ، ولا يُقال يعلم الله[1] . وبين المبدأ والكمال يظهر تفاوت المعرفة .

فمن عـرف الإسـلام وأسلم ، لكن سيئـاتـه رجحت عـلى حسنـاته ، أي بمعنى أنـه لم يلتزم بشـرائـع الله كـاملة ، ولم يـأخـذ بأسباب حيـاة القلوب ؛ فالنـور في قلبه ضئيـل ، وما دامت المعـرفة فعـل العقل ، والتعقـل من أفعـال القلوب المؤمنـة ، فلديـه معـرفـة محدودة لأنه عقل أن الإسلام ينجيه من الخلود في النار ، لكن نـظراً لأن تعقله ومعرفته بالله على قدر إيمـانه ، وإيمـانه ضعيف ، لـذا لم تكن له المعرفة الكاملة التي تمنعه عن معصية الله عزّ وجلّ .

وآخر عرف الإسلام وأسلم ، ولكن استوت حسناته وسيئـاته ، أي خلط عملاً سيئاً بعمل حسن ، واستويا عند ذلك ، لأنه أطاع الله تعالىٰ على قدر معرفته بـه تعالىٰ ، ووقـع في بعض المعاصي ؛ لأن معرفته به تعالىٰ لم ترتق إلى الدرجة التي توصله للتقـوى المانعـة له

---

(١) المفردات ص (٣٣١) .

من الوقوع في المعاصي . ومن ثَمَّ نقول عن أمثال هذا إنه أطاع الله بقدر معرفته به ، وعصاه بقدر جهله به ، فهؤلاء لم يدخل الإيمان قلوبهم بعد ؛ لأن الاستقرار في القلب تمكين ، وقد يشملهم قول رسول الله ﷺ : «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه . .» الحديث[1] . وفي رواية عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : **«يا معشر من أسلم ولم يفض الإيمان إلى قلبه»** . فالمعرفة على قدر الإيمان .

قال المحاسبي : واعلم أن ما يصل العبد إليه من الفهم ، بقدر تقديم عقله وموجود علمه ؛ بتقواه لله وطاعته . فمن وهب الله له العقل ، وأحياه بالعلم بعد الإيمان ، وبصره باليقين عيوب نفسه ؛ فقد نظمت له خصال البر[2] .

فزيادة المعرفة بزيادة التدرج في سلم الإيمان . فمن أدى فرائض الله وترك ما حرم الله ، مقتصراً على ذلك لا يزيد عليه ولا ينقص منه ؛ فهذا هو المؤمن الذي عقل عن الله ما جاء به ، وهو من المفلحين ، فهم عن الله وعده بتكفير السيئات ؛ إذا أدى فرائضه واجتنب ما نهى الله عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ

---

(١) سنن أبي داود رقم (٤٨٨٠) في الأدب باب الغيبة ، ونصه عن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : **«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته»** ، وهو حديث صحيح ، ورواه أحمد في مسنده (٤/٤٢١) ورواية عبد الله بن عمر في جامع الأصول (٦/٦٥٣) .

(٢) رسالة المسترشدين ص (٩٣ - ٩٤) الحارث بن أسد المحاسبي ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة .

﴿مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء : آية ٣١] وعقل عن رسول الله ﷺ أن الصلوات الخمس ، ورمضان إلى رمضان ، والجمعة إلى الجمعة ؛ مكفرات لما بينهن ، ما لم يغش كبيرة .

أعمال الخير دليل على ترقي الفهم :

تظهر زيادة التعقل بزيادة القصد لأعمال الخير ، فمن فتح الله له باباً من أبواب الخير ولكنه اقتصره على نفسه : كالصلاة والحج والعمرة والصيام وقراءة القرآن ونحوها ، مضافة إلى أداء الفرائض واجتناب النواهي ، فقد أفلح وترقى فهمه ، فإنْ صاحبه خشوع وهو أول مراتب تنوير القلب ، لا بد أن يصاحب ذلك تنوير العقل ورقيه ، فزيادة الحب من الله للعبد بزيادة التقرب إليه بالنوافل بعد الفرائض ، كما في الحديث الصحيح : **«عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال** : قال رسول الله ﷺ : **إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه»**[١] .

فمن فتح الله عليه أبواب الخير فآثر الصدقة والإحسان ، وسار في قضاء حوائج الناس والصلح بينهم ، ودفع الأضرار عنهم ؛ فهو

---

(١) فتح الباري (١١/٣٤١) كتاب الرقاق ، باب التواضع ، حديث رقم (٦٥٠٢) .

لم يؤثر الخير لنفسه بل تعداه للآخرين ، فهذا عقل أموراً منها على سبيل المثال :

عقل معنى القرض بينه وبين الله في قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد : آية ١١] كما عقل معنى أن يكون حسناً ، فأخرجه بطيب نفس طلباً لمرضاة الله من طيب ماله بدون مَنٍّ ، ولا أذى ، كما أنه استحضر في ذهنه الحبة التي دفنت في الأرض فأنبتت سبع سنابل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٢٦١] . فقد نظر بقلبه كما تنظر العين إلى هذه السنابل ، فجمع بين المشاهد بالعيان والمشاهد بالإيمان بما جاء به القرآن ، فتسخو نفسه وبالسخاء تصفو .

ومنها أنه فقه عن الله تعالىٰ أنّ قول المعروف أفضل من الصدقة التي يتبعها أذى ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة :آية ٢٦٣] .

وفهم أن هناك في الآية حسنتين مستلزمة لبعضها ، فحسن الخلق والعفو مترابطان ، ولا يعرف الأول إلاّ بالثاني ، والآخر يدل على الأول ، ولا يصل إلى هذا إلاّ بالتفكر . وكلما ازداد تدرجاً في حياة القلب ومراتبه ؛ استنبط معاني أدق ، وفهم مراد الله من كلامه . والأمثلة على هذا كثيرة اقتصرنا على بعض منها .

فإذا ارتقى العبد في إيمانه ، ورجح الهدى على الهوى ،

والآخرة على الأولى ، وعقد مع الله عقداً أن يبيع نفسه وماله لله مقابل عوض وهو الجنة ، وفهم مراد الله من قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : آية ١١١] فهذا أرجح عقلاً ، وأبين معرفة ممن قبله .

قال الإمام الرازي : (هذا البدن يجري مجرى الآلة والأدوات والمركب ، وكذلك المال خلق وسيلة إلى رعاية مصالح هذا المركب ، فالحق سبحانه اشترى من الإنسان هذا المركب وهذا المال بالجنة ، لأن الإنسان ما دام يبقى متعلق القلب بمصالح عالم الجسم المتغير المتبدل وهو البدن والمال ؛ امتنع وصوله إلى السعادات العالية والدرجات الشريفة ، فإذا انقطع التفاته إليها وبلغ ذلك الانقطاع إلى أن عرض البدن للقتل ، والمال للإنفاق في طلب رضوان الله ، فقد بلغ إلى حيث رجح الهدى على الهوى ، والمولى على الدنيا ، والآخرة على الأولى ، فعند هذا يكون من السعداء الأبرار والأفاضل الأخيار)[1] .

وهذه المكانة يبلغها من اتصف ببعض صفات كلها تدل على كمال التعقل ، فقال تعالىٰ عنهم في الآية التي تلي السابقة : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ

---

(١) التفسير الكبير (١٦/ ٢٠٠) .

ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : آية ١١٢] .

المبحث السابع

رعاية أحوال القلب أهم من رعاية غيره

وهـذه الأُمـور التسعـة وإن كـانت أعمــال الجـوارح ؛ إلاَّ أن المقصود منها ظهـور أحوال القلوب ، لأن رعـاية أحـوال القلب أهم من رعاية أحوال الظاهـر . فإذا استنـار القلب بالتـوبة والعبـادة وكثرة الـركوع والسجـود ، وأمر بـالمعروف ونهى عن المنكـر وحافظ على حدود الله ؛ فهذا دليل على زيادة إيمانه وتيقظ قلبـه مع الله تعـالىٰ ، فتزداد معرفته بزيادة قربه .

قـال الحسن البصري رحمـه الله : مرّ أعـرابي على النبي ﷺ وهو يقرأ هـذه الآية ﴿**إن الله اشتـرى من المؤمنين أنفسهم**﴾ فقال : كلام من هذا ؟ قـال : كلام الله ، قـال : بيعٌ والله مـربح ، لا نقيله ولا نستقيله . فخرج إلى الغزو واستشهد[1] .

فهـذا الأعرابي ارتقى إيمـانه بمجـرد سمـاعـه كـلام الحق من حبيب الخلق ، فـأقسم على ربـح هــذا البيــع حين لصقت هــذه الكلمات بقلبه وجذبته إليها ، فأشرق في قلبه نـور الإيمان ، وارتقى

---

(١) تفسير القرطبي (٨/٢٦٨) .

تعقله فلم يضنّ بنفسه في سبيل الله تعالىٰ ، لمعرفته بما بعدها وما يترتب عليها معرفة يقين .

ثم هناك فئة أُخرى أعلى في المعرفة مما قبلها ، استحقت ظل الله تعالىٰ يوم لا ظل إلاّ ظله ، ازداد فيها نور الإيمان في القلب ، فعقلت عن الله بيانه ، فكان للقلب دور في السيطرة على الأعضاء ، فانقادت طائعة ملبية لأمر الله فيه .

ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : **«سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلاّ ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»**[1] .

وقال ابن حجر : إن العدد المذكور لا مفهوم له ، فقد وردت أحاديث صحيحة أُخر فيمن يظلّهم الله تحت ظل عرشه غير هؤلاء السبعة .

والعادل هو الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير أفراط ولا تفريط[2] . والعدل من صفات النبوة ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾[الشورى: آية ١٥] .

وكمال العقل والمعرفة لدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الأذان باب (٣٦) انظر فتح الباري (١٤٣/٢) .
(٢) فتح الباري (١٤٥/٢) .

فمن اتصف ببعض ما وصفهم الله ؛ دلّ على علو إيمانه ويقظة قلبه وفطنته .

والشباب مظنة غلبة الشهوة ، فملازمة العبادة منه مع غلبة الشهوة يدل على غلبة التقوى ، والتقوى من المراتب العليا في حياة القلوب ، وملازمة المساجد وتعلق القلب بها دليل على حبها .

وكذلك الحب في الله والخوف من الله ، والصدقة الخفية يريد بها القرب من الله .

المبحث الثامن

مكانة الخشية

والخشية معرفة . ولا تدمع العين إثر ذكر الله إلَّا من قلب عامر بالإيمان .

قال ابن حجر : (ففي حال أوصاف الجلال ؛ يكون البكاء من خشية الله ، وفي حال أوصاف الجمال ؛ يكون البكاء من الشوق إليه)[1] .

ولا يبلغ هذه المرتبة إلَّا بالمعرفة الصادقة ، والعلم النافع والصلاح التام ، الذي يرضاه الله ورسوله . ومن الممكن أن نطلق على أهل هذه الفئة الصالحة : (هم الذين لا يدخل في علمهم بالله تعالىٰ ، ولا إيمانهم به وبما جاء من عنده سبحانه ؛ خلل)[2] .

وذلك تمشياً مع قول الحق تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء : آية ٦٩] .

---

(١) فتح الباري (٢/١٤٧) .

(٢) روح المعاني (٥/٧٧) .

والمراد بالشهداء في الآية ؛ أعم من أن يكون شهيد معركة بين الكفار والمسلمين .

ففي الحديث الصحيح : **«الشهداء خمسة : المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم ، والشهيد في سبيل الله»**[1] .

وقال ابن حجر في شرح الحديث : (وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة) أي أنواع الشهداء عشرون ، بالطرق الجيدة صحيحة أو حسنة . والمهم أن هذه المرتبة في المعرفة تشمل العلماء العاملين ، وأن الله لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلاَّ من العلم ، فقال تعالىٰ : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه : آية ١١٤] . أي زدني منك علماً[2] .

والعلماء متفاوتون في العلم فرب مبلغ أوعى من سامع . كما قال رسول الله ﷺ : **«فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له**

---

(١) صحيح الإمام البخاري : كتاب الجهاد ، باب : الشهادة سبع سوى القتل . انظر فتح الباري (٦/٤٢) .

وأنواع الشهداء عدّهم ابن حجر كما يلي : (المطعون ، المبطون ، الغريق ، صاحب الهدم ، المقتول في سبيل الله ، الحريق ، صاحب ذات الجنب ، المرأة تموت بجمع ، السل ، من قتل دون ماله ، من قتل دون دينه ، دون دمه ، دون أهله ، دون مظلمته ، من وقصه فرسه أو بعيره ، من لدغته هامة أو مات على فراشه على أيّ حتف شاء الله تعالىٰ ، موت الغريب ، المرابط في سبيل الله ، والذي يفترسه السبع) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/١٦٧) .

منه»[1] .

فقد يأتي في الآخرين من يكون أفهم ممن تقدموه ، وكلهم خير ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، والعلماء ربانيون ، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : (كونوا ربانيين حلماء فقهاء . ويُقال : الرباني : الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره كما قال الإمام البخاري في تفسيره لهذا القول[2] .

زيادة الفهم بزيادة الايمان :

لا يؤتى العلم إلَّا من قبيل الفهم ، والفهم : فطنة يفهم بها صاحبها من الكلام ما يقترن به من قول أو فعل ، ففي حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ : **«أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال : إن عبداً خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده ، فاختار ما عنده ، فبكى أبو بكر وقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فعجبنا له . وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر هو أعلمنا به»**[3] .

فأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بزيادة إيمانه فهم خطاب المصطفى أكثر من فهم غيره من الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين ، وهذه مرتبة الصديقية أعلى من مرتبة الشهداء

(١) صحيح الإمام البخاري : كتاب العلم باب (٩) انظر فتح الباري (١٥٨/١) .

(٢) فتح الباري (١/ ١٦٠) كتاب العلم باب (١٠) .

(٣) صحيح البخاري : كتاب مناقب الأنصار باب (٤٥) وانظر فتح الباري (٢٢٧/٧) ، سنن الترمذي (٦٠٦/٥) كتاب المناقب باب (١٥) .

والصالحين ، فقد قرنهم الله في كتابه بالأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾ [النساء : آية ١٣].

فهؤلاء راسخون في العلم هم خلفاء رسول الله وخاصته ، ذوي الإيمان التام الذي يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه .

قال ابن القيم رحمه الله : (وهم كانوا السبب في وصول الإسلام إلينا ، وفي تعليم كل خير وهدى وسبب تنال به السعادة والنجاة ، وهم أعدل الأمة فيما ولّوه ، وأعظمها جهاداً في سبيل الله . والأمة في آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلى يوم القيامة . فلا ينال أحد مسألة علم نافع إلّا على أيديهم ومن طريقهم ينالها . ولا يسكن بقعة من الأرض آمناً إلّا بسبب جهادهم وفتوحهم ، ولا يحكم إمام ولا حاكم بعدل وهدى إلّا كانوا هم السبب في وصوله إليه . فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف ، والقلوب بالإيمان وعمروا البلاد بالعدل ، والقلوب بالعلم والهدى ، فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة إلى يوم القيامة مضافاً إلى أجر أعمالهم التي اختصوا بها)[1] .

مراتب الأنبياء في المعرفة :

ثم يرتقي العلم والمعرفة بالطاعة الكاملة التامة فيبلغ مداه ومنتهاه عند سادات البشر ، عند أنبياء الله ، فيشتركون مع غيرهم في العلم النظري والعملي والتفكر والتدبر ، ويتميزون بعلم من لدن الله بواسطة الوحي ، وهم ثلاث مراتب في المعرفة :

---

(١) طريق الهجرتين ص (٣٦٢) شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية .

الأول : نبوة دون الرسالة ، فاشتركوا مع الرسل في الوحي ونزول الملائكة عليهم .

الثاني : رسل الله ، على مراتبهم من تفضيلهم بعضهم لبعض .

الثالث : أولو العزم من الرسل : وهم الطبقة العليا من الخلائق .

فهؤلاء المصطفون اختصهم الله بوحيه ، وجعلهم أُمناء على رسالته ، وخصهم بأنواع كراماته ، فمنهم خليل الله ومنهم كليم الله ، ومنهم من رفعه الله مكاناً علياً ، خصهم الله بكمال العلم ، فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم ، وبهم عرف المؤمنون ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وبهم عبد وأطيع ، أعطاهم كمال النور في قلوبهم وكمال النور يقتضي كمال الإيمان ، وكمال الإيمان يقتضي كمال العقل ، وكمال العقل ينبىء عن كمال العلم والمعرفة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : آية ٤٠] .

خصوصيات المعرفة :

الفهم والمعرفة تزيد بزيادة نور الإيمان في القلب ، وقد يكون في الطبقة الواحدة من هو أعلم من غيره ، ولا يدل ذلك على زيادة إيمانه عنهم ، بل لخصوصية اختصه الله بها، أو اختصه بها رسول الله ﷺ كابن عباس - رضي الله عنه - دعا له رسول الله ﷺ أن يزيده فهماً وعلماً ، كما في الحديث الصحيح عن ابن عباس قال : ضمني رسول الله ﷺ وقال : «**اللهم علمه الكتاب**»[1] وفي رواية

(١) صحيح البخاري كتاب العلم ، باب (١٧) ، فتح الباري (١/ ١٦٩) .

«اللَّهمَّ علمه الحكمة»[1] .

وقال ابن حجر في شرحه للحديث : (والمراد بالتعليم : ما هو أعم من حفظه والتفهم فيه) .

(وكذلك الحكمة : اختلف الشراح في المراد بها هنا ، فقيل : القرآن ، وقيل : العمل به، وقيل: السنة ، وقيل : الإصابة في القول ، وقيل : الخشية ، وقيل : الفهم عن الله، وقيل: العقل ، وقيل : ما يشهد العقل بصحته ، وقيل : نور يفرق بينه وبين الإلهام والوسواس ، وقيل : سرعة الجواب مع الإصابة)[2] .

وقال ابن كثير : هي الفهم والعلم والتعبير[3] .

وكل المعاني الواردة تدل على زيادة في الفهم والإدراك .

وقد كان علقمة يقول لأصحابه : امشوا بنا نزداد إيماناً : يعني تفقهاً[4] .

وفي الحديث : **«القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض»**[5] .

فإذا امتلأ القلب إيماناً امتلأ معرفة وعلماً ، وقد يحتمل قلب

---

(١) صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة ، باب (٢٤) ، فتح الباري (١٠٠/٧) .

(٢) فتح الباري (١٧٠/١) ، (١٠٠/٧) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤٤٤/٣) .

(٤) الفقيه والمتفقه ص (٣٦) أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١٤٠٠/٢ هـ .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٧٧/٢) وقال ابن الأثير : إسناده حسن ـ جامع الأصول (١٥٣/٤) وبه قال المنذري في الترغيب (٤٩٢/٢) .

عبد من المعرفة أكثر مما يحتمله قلب عبد آخر ، وكل ذلك فضل من الله تعالىٰ .

شرط كمال المعرفة :

والكمال في أن يقترن العلم بالعمل والتعليم ، وقد اجتمعت هذه الخصال في الصفوة الخيرة من السلف الصالح ، كلما ازداد الفرد منهم علماً ازداد عمله ، وبث علمه لخلق الله تعليماً وسلوكاً ، فنشأت أمة لا تخشى في الله لومة لائم ، وبقدر نقص إحدى هذه الثلاث الخصال تنقص الأخرى وتقل المعرفة من القلب .

(فالإنسان له قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة عملية إرادية ، وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوّتيه العلمية والإرادية ، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة الطريق التي توصل إليه ، ومعرفة آفاتها ، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها ، فبهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية ، وأعلم الناس أعرفهم بها ، وأفقههم فيها ، واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلاَّ بمراعاة حقوقه ـ سبحانه ـ على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنّته عليه ، وتقصيره هو في أداء حقه ، فهو مستحٍ من مواجهته بتلك الخدمة ؛ لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ، ودونَ دون ذلك ، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلاَّ بمعونته ، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم ، الذي هدى إليه أولياءه وخاصته ، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط ، إما بفساد قوته العلمية فيقع في الضلال ، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب)[1] .

---

(١) الفوائد ص (١٨ ـ ١٩) شمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، مكتبة النهضة العلمية ، مكة .

وهـذه المعارف الخمس لا تحصـل إلاَّ بزيـادة رقي القلب في مراتبه ، وبقدر زيادة الإيمان تحصل المعرفة .

قـال الجنيد[1] : الـرضـا على قـدر قـوة العلم والـرسـوخ في المعرفة[2] .

الخشية طريق جامع للمعرفة :

فـالعلم إن كان بتـدبر وانتفـاع وتصديق وطـاعة فهـو في دائـرة المعـرفة والفهم ، فـلا بد أن يؤدّي إلى تعـظيم الله والخـوف منـه ، وهـذه هي الخشيـة[3] التي أودعهـا الله في صـدور العلمــاء . قـال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فـاطر : آيـة ٢٨] (أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلّما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمـال المنعوت بـالأسماء الحسنى ، وكلمـا كانت المعـرفة بـه أتم والعلم بـه أكمـل ، كـانت الخشية له أعظم) .

أما مرضى القلوب أو موتاها ؛ فتجد الفـرد عالمـاً متمكناً ممـ يقـول ومعـرفتـه قـاصـرة على الاستمتـاع الـدنيـوي ، أو البحث عن مطاعن ما تعلم ، فيهوي في درك موت القلوب .

ونستطيع أن نقول : إن الأمر الجـامع للمعـرفة بـالله والمعرفـة بحق عبوديته ، والطريق الأمثل لـرقي القلب في دائرة الإيمـان : هو

---

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز ، صوفي ، تـوفي ٢٩٧ هـ . الأعلام (١٤١/٢) .

(٢) روح المعاني (٢٠٦/٣٠) .

(٣) الخشيـة : خوف يشـوبه تعـظيم . المفـردات ص (١٤٩) ، بصـائـر ذوي التمييز (٥٤٤/٢) .

الخشيـة ، ولا تكون الخشيـة إلاَّ بـالعلم ، تـزداد بـزيـادتـه وتنعـدم بـانعـدامـه ، ومـدارنـا على العلم الـذي يؤدي إلى العمـل والتسليم والتعليم ، فاجتماع هذه الثلاث بـداية يقـظة القلب من نوم الغفلة ، وأوّل النور الذي يشرق فيه بعـد نور الشهـادتين ، وهذا دأب السلف الصالح .

أقســام المعـرفـة :

والمعرفة إما مباشرة للقلب : كالرؤى والإلهام ، أو غير مباشرة له .

فالمعرفـة غير المبـاشرة تكـون بوسـائل الإحسـاس الخمس : السمع والبصر والذوق والشم واللمس ، وهذه حـواس الإنسـان التي بها يشعر . وهي حواس مباشرة للإنسان . فالحـاسة : اسم لمـا يقع به إدراك مخصوص ، وهو أول العلم[1] .

والإحساس : العلم بالحـواس ، ويُقال : أحسست بـالشيء ؛ إذا علمته وعرفته[2] .

ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

أي استشعر منهم التصميم على الكفر[3] .

وتـأتي بمعنى اليقين ، كما في قـوله تعـالىٰ : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ [الأنبياء : آية ١٢] أي تيقنوا أن العذاب

---

(١) الفروق اللغوية ص (٧١) .

(٢) لسان العرب (٦/٤٩) .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (١/٢٨٥) .

واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم[1] .

أما القلب فليس من الحواس المباشرة للإنسان .

(١) تفسير ابن كثير (٣/١٧٤) .

المبحث التاسع

مكانة السمع وتعريفه

وأهم الحواس السمع ، يتلوه البصر ثم ما عداهما ، لتقديم الله إيّاه في كتابه ، والتقديم دليل التفضيل . وأيضاً أكثر المعارف مدارها على السمع ، بل بعضها مستغن عن البصر تماماً ، وأيضاً لارتباطه بالنطق ، فإذا تعطل السمع بطل النطق .

والسمع لا يجدي من لا تعقل له ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : آية ٤٢] ، (أي يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، وفي هذا كفاية عظيمة . ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطرش ، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء ؛ إلَّا أن يشاء الله)[1] .

فالسمع : إدراك المسموع ، والسمع اسم الآلة التي يسمع بها ، فالذي يريده الله هو الإدراك المؤدي إلى معرفته والامتثال له ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤١٨) .

والإدراك لا يكون إلاّ بالإصغاء .

والإصغاء : طلب إدراك المسموع بإمالة السمع إليه[1] .

فإذا أمال السمع إلى كلام الحق برغبة المعرفة المؤدية إليه ؛ كان الصغو محموداً ومطلوباً .

ونهاية السمع الحفظ .

والحفظ : هو العلم بالمسموعات دون غيره من المعلومات[2] .

فلا يُقال للعلم بالمشاهدات حفظ ، فلا يقال : حفظت أن زيداً في البيت ، وإنما يُقال : حفظت قولك : أي فهمته ، فيستعمل الحفظ في الكلام فقط ، أي في المسموعات ، وأيضاً الحفظ نقيض النسيان ، وهو أي الحفظ : التعاهد وقلة الغفلة[3] .

أو هو : العلم بالشيء حالاً بعد حال ، من غير أن يتخلله جهل أو نسيان[4] .

ولهذا سمي حفاظ القرآن حفاظاً ؛ لأنهم رزقوا حفظ ما سمعوا وقلّما ينسون شيئاً يَعُوْنَهُ .

---

(١) سبق تعريف الإصغاء في (صغو القلب) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٧٤) .

(٣) لسان العرب (٧/٤٤١) .

(٤) الفروق اللغوية ص (٧٤) .

المبحث العاشر

النظـر وأقسـامـه

أمـا البصـر : فهـو أداة الـرؤيـة ، والـرؤيــة : إدراك المـرئي بالبصر ، ولا يجدي النظر إذا انعدم البصر .

(والنظر : طلب معرفة الشيء من جهته ومن جهة غيره) .

وحـدّ النظر : طلب إدراك الشيء من جهـة البصر أو الفكـر ، ويحتـاج في إدراك المعنى إلى الأمـرين جميعـاً ، كـالتـأمـل للخط الـدقيق بالبصـر أولاً ثم بالفكـر ، لأن إدراك الخط الـدقيق التي بهـا يقرأ ؛ طريق إلى إدراك المعنى ، وكذلك طريق الدلالـة المؤدية إلى العلم بالمعنى .

وأصـل النظر المقـابلة ، فـالنـظر بـالبصـر : الإقبـال بـه نحـو المبصر، والنظر بالقلب : الإقبال بالفكر نحـو المفكَّر فيـه ، ويكون النظر باللمس ليدرى اللين من الخشونة[1] .

فهنا النظر إما أن يكون مجرد تقليب العين طلباً للرؤيـة ، فهذا لا يغني في المعرفة شيئاً .

---

(١) الفروق اللغوية (٥٧ ـ ٥٨) .

وقد يكون طلباً للهدى ، وهذا بحده نوعان :

الأول : أن يكون بديهة :

(والبديهة : أول النظر ، يُقال : عرفته على البديهة ؛ أي في أول أحوال النظر ، وله في الكلام بديهة حسنة : إن كان يرتجله من غير فكر فيه)[1] .

فبديهة القول : ما يكون من غير فكر .

والنوع الثاني : ما كان بتفكر ، والفكر ما عدا البديهة . وهو تصرف القلب بالنظر في الدلائل ، والفكر جنس من النظر الذي هو سبب العلم[2] .

ويشمل التأمل والروية فالتمييز والشهادة .

تعريف التأمل ومراتبه :

فالتأمل : هو النظر المؤمل به معرفة ما يطلب ، ولا يكون إلاَّ في طول مدة ، فكل تأمل نظر وليس كل نظر تأمل[3] .

والتأمل التثبت ، وتأملت الشيء : إذا نظرت إليه مستثبتاً له ، وتأمل الرجل : تثبت في الأمر والنظر[4] .

والروية : آخر النظر ، ولهذا يُقال للرجل إذا وصف بسرعة الإصابة في الرأي : بديهته كروية غيره ، أو هي إشباع الرأي والاستقصاء في تأمله[5] .

---

(١) الفروق اللغوية (٥٨) .

(٢) الفروق ص (٥٨) .

(٣) الفروق ص (٥٨) .

(٤) لسان العرب (١١/٢٧) .

(٥) الفروق اللغوية ص (٧٥) .

والروية في الأمر : أن تنظر ولا تعجل[1] .

فالروية نظر وتفكر في الأمر ، فنقول للطالب : تأمل في الأسئلة وتروّى في الإجابة لتمييز الرأي الصحيح من غيره .

والتمييز : هو استعمال العقل ؛ بالنظر والفكر اللذين يؤدّيان إلى تمييز المعلومات .

والتمييز : قوة في الدماغ يستنبط بها المعاني[2] .

فإذا ميّز شهد بوجود الشيء من قبيل ذاته .

فالشهادة أخص من العلم ، وذلك أنها علم بوجود الأشياء لا من قبيل غيرها ، ولهذا يسمّى ما يدرك بالحواس وما علم بالضرورة : شاهد .

فالشهادة علم يتناول الموجود ، والعلم يتناول الموجود والمعدوم[3] .

والمشاهد للشيء هو المدرك له رؤية .

وقال بعضهم : أو سمعاً ، وفي الرؤية أشهر[4] .

وبقية الحواس من الشم واللمس والذوق تدخل في معنى النظر ، فإذا لمس الشيء ليدري نعومته من خشونته فهو بمعنى لينظر وصفه ، ومثله لو شمّ أو ذاق مطعوماً .

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٣٥٠) .

(٢) المصباح المنير ص (٥٨٧) .

(٣) الفروق ص (٥٨) .

(٤) الفروق اللغوية ص (٧٦) .

أهمية الحواس المباشرة للانسان بالنسبة للقلب :

فوسائل الإحساس المباشر للإنسان لا بد أن تنتقل إلى الحاسة غير المباشرة وهي حاسة القلب ؛ ليتم التعقل في إدراك الشيء المدل على صانعه جلت عظمته ، وقد فصل تعالى هذا المعنى في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : آية ١٧٩] .

فما تسمعه الآذان وتراه الأبصار لا يجدي إذا لم يكن بتأمل وتفكر لآيات الله في خلقه ، وآياته المنزلة على رسله ، ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالىٰ في خلقه . فالآذان قد خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع لا من القرآن فقط .

كما أن الأبصار خلقت له ليستفيد من كل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك بتوجيه إرادته إلى استعمال كل منها فيما خلق له . قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : آية ٢٦ ـ ٢٧] .

فقد ضرب الله فيها مثلين للآيات البصرية والسمعية وأمثالهما كثير ، فلا بدّ أن ترتبط آلات العلم والعرفان بمواهب القلوب ؛ لتتم المعرفة الدالة إلى طريق الهدى والإيمان ، فكثير من الخلق تجد نظره في منتهى الكمال ، وسمعه صحيح ، ويصل باختراعاته إلى ما

يريد من ملاذ الدنيا ، قاصراً حواسه الظاهرة والباطنة على ذلك ، فلا يستدل بما يبصر أو يسمع على وجود خالق ، وحتى إن استدل فلا يطيعه فيما أمر . قال تعالىٰ بعد ذكر هلاك عاد : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[الأحقاف : آية ٢٦] .

قال الإمام الرازي : (والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعاً ، فما استعملوه في سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر ، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في معرفة الله تعالىٰ ، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها ، فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئاً)[1] . فالذي يبحث في منافع الأشياء لأجل الانتفاع بها في هذه الحياة الدنيا ، من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً مدبراً عليماً حكيماً يجب أن يعبد وحده ؛ فقد بعد عن منتهى كل غاية من الحياة ، وأصبح علمه ناقصاً ، وكان الانتفاع به مشوباً بضرر عظيم ، فإن الأمور بمقاصدها ، «إنما الأعمال بالنيات» ، والنية عمل القلب ، وبهذا ؛ يصدق على العلماء الذين استعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم في استنباط حقائق العلوم ونفعها المادي العاجل ؛ ما يصدق على الذين أهملوا استعمالها ؛ أنهم كالأنعام .

---

(١) التفسير الكبير (٢٨/ ٢٩) .

التقليد من أسباب نقص المعرفة :

وهنا نقطة نلاحظها : أنه بقدر تقليد أخذ العلوم عن مكتشفها في الانتفاع الدنيوي يكون نقص في المعرفة فعندما يمعن سليم النظر والسمع والفؤاد في آيات الله في الأنفس والآفاق ، فيرى آيات الله في الإنسان والجماد والنبات والحيوان والهواء والماء والبخار وسنن الضوء والكهرباء والهيئة الفلكية وغيرها ، يزداد إيماناً ويعمر قلبه النور الذي يهديه بخلاف لو أخذها تقليداً عن مكتشفها القاصر ، فتكون عادة لديه تدل بديهة على خالقه ، وهذا في فطرته ، فلا يرتقي في مراتب الإيمان ، بل ربما يحاربها ويتجه إلى الشكليات المتعلقة بالحياة الدنيا وملذاتها ، فينصرف عن الجوهر المؤدّي إلى الإيمان بالله والدار الآخرة .

فالمهم أن عموم المعارف لا بد أن تؤدّي إلى أعلى أنواع المعرفة ، وهي معرفة الحق تبارك وتعالىٰ ، ولا يكون ذلك إلاّ عن طريق القلب العاقل الذي يشعر ثم يتدبر بما أكرم من بصيرة .

الشعـور :

(والشعور علم يوصل إليه من وجه دقيق كدقة الشعر ، ولهذا قيل للشاعر شاعراً لفطنته لدقيق المعاني .

وقال بعضهم : الذم للإنسان بأنه لا يشعر أشد مبالغة من ذمه بأنه لا يعلم ، لأنه إذا قال : لا يشعر ؛ فكأنه أخرجه إلى معنى الحمار ، وكأنه قال : لا يعلم من وجه واضح ولا خفي ، وهو كقولك : لا يحس .

وهذا قول من يقول : إن الشعور هو أن يدرك بالمشاعر وهي الحواس)[1] .

---

(١) الفروق ص (٦٤) .

والتدبر : تصرف القلب بالنظر في العواقب[1] .

والبصر تكامل العلم والمعرفة بالشيء[2] .

والخلاصة : أن عموم الحواس الخارجية لا بد أن ترتبط بالقلب ، فإن كان القلب فيه نور الإيمان كان تعقله فيما يرضي الله وينفع الإسلام والمسلمين ، وإلاَّ كانت معرفته قاصرة على ملذات الدنيا . فلا عبرة بالمعرفة في هذا الحال ، كما ذكر الله ذلك في كتابه الكريم في آيات كثيرة ذكرت في ثنايا البحث .

---

(١) الفروق اللغوية ص (٥٨) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٦٤) .

الفصل الثاني
المعارف المباشرة للقلب

- **المبحث الأول : الرؤيا .**
- **المبحث الثاني : الخاطر والإلهام والتحديث والفراسة .**
- **المبحث الثالث : نزول كلام اللّه على أنبيائه .**

المبحث الأول

الـرؤيـا

وهناك معرفة مباشـرة للقلب لا دخل للجـوارح فيها . فـالقلب الحي له معرفـة ، يهبها الله لـه تزيـده إيمانـاً وترفعـه مكانـة أعلى ، والقلب المـريض له معـرفة : قـد تكون من الله ؛ فتـوقـظه من سنـة الغفـوة وتعيد إليـه حياتـه ، وقد تكـون من الشيطان ؛ تـزيده ضـلالاً ومرضاً ، والقلب الميت لـه معرفـة من الشيطان ، تـزيد غـوايته التي هي من الله ، وتكون مباشرة بالقلب .

وأولى المعارف : الرؤيا .

والـرؤيـا : مـا يـراه الشخص في منـامـه ، وهـي مـن الله تعالىٰ .

والرؤية ـ بالهاء ـ : إدراك المرء بحاسة البصر[1] .

(والـرؤيا : إدراكـات علقها الله تعـالىٰ في قلب العبـد ، على يَدَي ملك ، أو شيطان ، إما بأسمائها أي حقيقتها ، وإما بكنـاها أي بعباراتها ، وإما تخليط)[2] .

---

(١) المفردات ص (٢٠٩) ، لسان العرب (١٤/٢٩٧) .

(٢) فتح الباري (١٢/٣٥٢) .

(والبعض من العلماء يرى أنها اعتقادات وليست إدراكات ، لأن الإنسان قد يرى نفسه في الرؤيا أو الحلم بهيمة أو طائراً ، والاعتقاد قد يكون على خلاف المعتقد)[١] .

كما اختلف في حقيقة الرؤيا إلى أقوال كثيرة لأنها أُمور لا تدرك بالعقل ولا يقوم عليها برهان . فمن ينتمي إلى الطب مثلاً يرى أنها أخلاط : أي زيادة خلط في جسم الإنسان يسبب له هذه الرؤيا ، ومن ينتمي إلى الفلسفة يقول : إن صور ما يجري في الأرض هي في العالم العلوي كالنقوش ، فما حاذى بعض النقوش منها انتقش فيها .

قال ابن حجر : (والصحيح ما عليه أهل السنة أن الله يخلق في القلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان ، فإذا خلقها فكأنه جعلها علماً على أُمور أُخرى يخلقها في ثاني الحال ، ومهما وقع على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان)[٢] .

أنواع ما يراه النائم :

وأحاديث المنام نوعان : رؤيا وأحلام ، ففي الحديث الصحيح عن أبي قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : **«الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان»**[٣] .

وقد سمّى الله تعالىٰ هذين النوعين أحاديث ، كما في قوله

---

(١) فتح الباري (١٢/٣٥٣) .

(٢) فتح الباري (١٢/٣٥٣) وسنتكلم في الرؤيا من ناحية ارتباطها بالقلب فقط ، أي من ناحية أنها معرفة قلبية مباشرة .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الرؤيا : باب (١) حديث رقم (٢٢٦١) ، شرح النووي (١٥/١٦) .

تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ [يوسف : آية ٦] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : آية ٢١] .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : آية ١٠١] .

والأحلام قسمان :

الأول : حديث النفس ، كالحزن الذي يعتري الإنسان ، والخوف والآمال ، وما يغشى قلب النائم الممتلىء من الطعام أو الخالي منه .

وقد ضرب لها النابلسي[1] بعض الأمثلة فقال : مثل أن يرى الإنسان مع من يحب قلبه أو يخاف من شيء فيراه ، أو يكون جائعاً فيرى أنه يأكل ، أو ممتلئاً فيرى أنه يتقيأ ، أو ينام في الشمس فيرى أنه يحترق ، أو في أعضائه وجع ويرى أنه يعذب[2] .

والثاني : تحزين الشيطان ، وهي ما يلعب الشيطان بالنائم ، كما ورد في الحديث الصحيح عن جابر قال : «**جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله رأيت في المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج فاشتددت على أثره ، فقال رسول الله ﷺ للأعرابي:**

---

(١) النابلسي ، عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي ، متصوف عالم بالدين والأدب ، توفي عام ١١٤٣ هـ ، الأعلام (٤/٣٢) .

(٢) تعطير الأنام في تعبير المنام ص (٤) ، عبد الغني النابلسي .

«لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك»[1] .

قال ابن تيمية : (فهذان النوعان من وسواس النفس ، ومن وسواس الشيطان ؛ كلاهما معفو عنه ، فإن النائم قد رفع القلم عنه ، ووسواس الشيطان يغشى القلب كطيف الخيال ، فينسيه ما كان معه من الإيمان حتى يعمى عن الحق فيقع في الباطل ، فإذا كان من المتقين كان كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف : آية ٢٠١] . فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب .

وقد يكون لطيفاً وقد يكون كثيفاً ، إلَّا أنه غشاوة على القلب تمنعه إبصار الحق)[2] .

وبذلك يكون ما يراه النائم على ثلاث حالات ، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : **«الرؤيا ثلاثة : فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه»**[3] .

درجات الرؤيا :

والرؤيا توافق طبيعة الإنسان ، فبقدر إيمانه وبزيادته في درجات نور القلب تصدق رؤياه ، ففي الحديث الصحيح : **«أصدقكم رؤيا : أصدقكم حديثاً»**[4] .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الرؤيا حديث (١٥) ، انظر شرح النووي (٢٧/١٥) .

(٢) الفتاوى (٥٢٢/١٧) .

(٣) صحيح مسلم (١٧٧٣/٤) كتاب الرؤيا حديث (٢٢٦٣) .

(٤) صحيح مسلم (١٧٧٣/٤) كتاب الرؤيا حديث (٢٢٦٣) .

ويقول ابن سيرين[1] : (وقد يكون الإنسان صدوقاً في حديثه ، فتصدق رؤياه ، ويكون كذاباً في حديثه ويحب الكذب ؛ فتكذب عامة رؤياه)[2] .

وهذا يوضح لنا درجات رؤيا المؤمن بالنسبة لدرجات النبوة ، فقد ورد في الحديث الصحيح : «**عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**»[3] .

وورد في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «**رؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة**»[4] .

كما ورد في الحديث الصحيح : «**الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة**»[5] .

فحصل لدينا ثلاث روايات مشهورة ، في رواية : الرؤيا الصالحة ستة وأربعين ، وخمسة وأربعين ، وسبعين جزءاً ، ووردت روايات أخرى في غير الصحيحين :

قال الإمام النووي : (وفي غير مسلم من رواية ابن عباس : من أربعين جزءاً ، وفي رواية : من تسعة وأربعين ، وفي رواية

---

(١) ابن سيرين : محمد بن سيرين البصري الأنصاري ، تابعي اشتهر بالورع وتعبير الرؤيا ، توفي ١١٠هـ ، الأعلام (٦/١٥٤) .

(٢) منتخب الكلام في تفسير الأحلام ص (١١) محمد بن سيرين ، بهامش تعطير الأنام .

(٣) صحيح البخاري كتاب الرؤيا ، فتح الباري (١٢/٣٦١) ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٣٦٢) .

(٤) صحيح مسلم كتاب الرؤيا ، شرح النووي (١٥/٢٠) .

(٥) صحيح مسلم كتاب الرؤيا ، شرح النووي (١٥/٢٤) .

العباس : من خمسين ، ومن رواية ابن عمر : ستة وعشرين ، ومن رواية عبادة : من أربعة وأربعين)[1] .

وقد أوصلها ابن حجر إلى خمسة عشر لفظاً ثم قال : (وأما خصوص العدد فهو مما أطلع الله عليه نبيه ، لأنه يعلم من حقائق النبوة ما لا يعلمه غيره)[2] .

والحاصل أن الرؤيا علم من علم الغيب يكشفه الله لمن يشاء من عباده ، ولهذا شبّهه بجزء من أجزاء النبوة ، يحصل منها العبد بقدر صفاء قلبه ، فإن كان قلبه أبيض مثل الصفا ؛ كانت الرؤيا جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة .

وبقدر علو الإيمان تنخفض الدرجات ، وبقدر نقص الإيمان يزداد تفاوت الدرجات .

قال ابن حجر رحمه الله : (إذا قلّت الأجزاء ؛ كانت الرؤيا أقرب إلى الصدق ، وأسلم من وقوع الغلط في تأويلها ، بخلاف ما إذا كثرت)[3] .

الرؤيا الجلية :

وممكن أن نستشف من العدد ميزة أُخرى ، لعله والله أعلم : كلّما قل العدد كانت الرؤيا جلية لا تحتاج إلى تأويل ، وكلما زاد العدد كانت الرؤيا خفية تحتاج إلى مفسر .

ومن الرؤى الجلية رؤيا رسول الله ﷺ التي كان يراها في بدء الوحي ، كما في الحديث الصحيح عن أُم المؤمنين عائشة -

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٢١) .
(٢) فتح الباري (١٢/٣٦٣) .
(٣) فتح الباري (١٢/٣٦٥) .

رضي الله عنها ـ قالت : «**أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءته مثل فلق الصبح**»(١) .

فرؤيا الأنبياء وحي ، بخلاف غيرهم ، والوحي لا يدخله خلل لأنه محروس من الحق تبارك وتعالىٰ .

أما بعد الوحي الجلي فقد تؤول رؤيا الأنبياء ، كما ورد في الصحيح عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن ، فشربت منه حتى إني لأرى الرِّي يخرج في أظافيري ، ثم أعطيت فضلي ـ يعني عمر ـ قالوا : فما أوّلته يا رسول الله ؟ قال : العلم**»(٢) .

الرؤيا نوع من أنواع الكرامة :

والمهم أن الرؤيا : (نوع من أنواع الكرامات ، وتحقيق الرؤيا : خواطر ترد على القلب ، وأحوال تتصور في الوهم ؛ إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار . ومثاله : كالذي يكون في ضوء السراج عند اشتداد الظلمة ، فإذا طلعت الشمس عليه غلبت ضوء السراج ، فيتقاصر نور السراج بالإضافة إلى ضياء الشمس .

فمثال حال النوم كمن هو في ضوء السراج ، ومثال المستيقظ كمن تعالىٰ عليه النهار ، فإن المستيقظ يتذكر ما كان متصوراً له في حال نومه)(٣) .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التعبير ، فتح الباري (١٢/٣٥١) .
(٢) صحيح البخاري : كتاب التعبير ، فتح الباري (١٢/٣٩٣) .
(٣) الرسالة القشيرية (٢/٧١٥) أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، تحقيق عبد الحليم محمود .

الرؤيا في القرآن الكريم :

وقد أورد القرآن الكريم عدة رؤى منها : رؤيا رسول الله ﷺ في موقعة بدر ، تثبيتاً من الله له وللمؤمنين ، ورفعاً لروحهم الجهادية الصادقة .

قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الأنفال : آية ٤٣] .

فالرؤيا النبوية صادقة ؛ لأن العدد المادي ليس كل شيء في حساب النصر ،فكانت الرؤيا البصرية - اليقظة - مؤيدة للرؤيا المنامية. ثم قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الأنفال : آية ٤٤] .

ومن الرؤيا الجلية التي ذكرها الحق في كتابه الكريم ؛ رؤيا خليل الرحمان إبراهيم عليه السلام . قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ ﴾ [الصافات : آية ١٠٢] .

ومنها رؤيا يوسف عليه السلام ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف : آية ٤] .

وقد ورد تأويل هذه الرؤيا في نفس السورة : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ

﴿ ... عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ ﴾ [يوسف : آية ١٠٠] .

وأيضاً في نفس السورة رؤيا السجينين مع يوسف ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ ﴾ [يوسف : آية ٣٦] .

وأوّلها لهما يوسف عليه السلام ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ ﴾ [يوسف : آية ٤١] .

وفي السورة نفسها رؤيا الملك ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ ۖ ﴾ [يوسف : آية ٤٣] .

الرؤيا في السنة المشرفة :

وقد ورد في السنة الصحيحة كثير من الرؤى ، رآها الرسول ﷺ ، أو رآها الصحابة وفسّرها لهم رسول الله ﷺ ، أو فسّروها فيما بينهم ، فلو لم تكن علماً من علم الله لما كان في تفسيرها أدنى فائدة ، ولكنها علم قلبي مباشر يختص به الله من يشاء من عباده ، فقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على تأويل الرؤيا . ففي الحديث الصحيح عن سمرة بن جندب قال : «**كان النبي ﷺ إذا صلى الصبح أقبل عليهم بوجهه ، فقال : هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا**»[1] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الرؤيا (١٥/ ٣٥) .

وقد قال النووي في شرحه لهذا الحديث : (وفيه : استحباب السؤال عن الرؤيا والمبادرة إلى تأويلها وتعجيلها أول النهار ، لهذا الحديث ، ولأن الذهن جمع قبل أن يتشعب بإشغاله في معايش الدنيا ، ولأن عهد الرائي قريب لم يطرأ عليه ما يهوش الرؤيا عليه ، ولأنه قد يكون فيها ما يستحب تعجيله ؛ كالحث على خير أو تحذير من معصية ونحو ذلك)[1] .

ثم هي من المبشرات ، كما قال رسول الله ﷺ : **«لم يبق من النبوة إلا المبشرات . قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة»**[2] .

وهذا كله يثبت لنا : أن الرؤيا معرفة مباشرة للقلب حال نوم الإنسان .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٣٥) .

(٢) فتح الباري ، كتاب التعبير (١٢/ ٣٧٥) وللرؤيا الصالحة علامات وآداب ينبغي لمريد الرؤيا أن يفعلها ، وإذا رأى ما يكره له خصال يفعلها . وهناك أوقات تقوى في الرؤيا وآداب لمعبر الرؤيا تحتاج إلى بحث مستقل ، يلتزم فيه الباحث بأصول الدين لينتفع به المسلمون ، والتوسع فيه يخرجنا عن المقصود .

المبحث الثاني

الخاطر والإلهام والتحديث والفراسة

أولاً : الخـاطـر :

وهناك معارف مباشرة للقلب حال يقظته ، خواطر ترد عليه .

والخاطر : ما يخطر في القلب من تـدبير أوامـر ، والخاطـر : الهاجس[1] . وعرّف أيضاً بأنه (مرور معنى بالقلب ، بمنزلـة خطاب مخاطب يحدث بضروب الأحاديث)[2] .

والخاطر إن كـان من الله فهو الإلهـام ، وإن كان من الشيـطان فهو النزغ .

(والنـزغ : هو الإغـواء بـالـوسـوسـة ، وأكثـر مـا يكـون عنـد الغضب ، وقيـل : أصله الإيعاز بـالحركـة إلى الشر ، ويقـال : هذه نزغة من الشيطان للخصلة الداعية إلى الشر)[3] .

فإن كان صـوتـاً خفياً فهو الوسواس (وأصل الوسوسة الصوت

---

(١) لسان العرب (٤/ ٢٤٩) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٦٠) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٥١) .

الخفي ومنه يُقال لصوت الحلي : وسواس ، وكل صوت لا يفهم تفصيله لخفائه : وسوسة ووسواس)[1] .

والنزغ والوسواس من الشيطان قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء : آية ٥٣] ، وقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ ﴾ [يوسف : آية ١٠٠] .

وقال عن الوسواس : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأعراف : آية ٢٠] وكذلك في قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [طه : آية ١٢٠] .

ووسوسة الشيطان مقرّها الصدر ، قال تعالى : ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس : آية ٤ - ٦] .

قال الحكيم الترمذي : (فهذا الصدر موضع دخول الوسواس والآفات)[2] .

وقال أيضاً : (وكذلك الشيطان يدخل بوسوسته في صدر العبد ، وهو آخر ولاية حد النفس)[3] .

وعلاج نزغ الشيطان الاستعاذة . قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ

---

(١) الفروق اللغوية ص (٥١) .

(٢) الفروق بين الصدر والقلب ص (٣٥) .

(٣) الفروق بين الصدر والقلب ص (٤٠) .

مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : آية ٢٠٠] ، وفي الأخرى قال تعالىٰ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : آية ٣٦] .

ثانياً : الإلهام :

أما الإلهام (فهو أن يلقي الله في النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك ، وهو نوع من الوحي يخص الله به من يشاء من عباده ، والإلهام ما يلقى في الروع ، وألهمه الله خيراً : لقّنه إياه)[١] .

وعرّفه مرتضى الزبيدي فقال : (الإلهام ما يلقى في الروع بطريق الفيض ، ويختص بما من جهة الله والملأ الأعلىٰ ، ويُقال : إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر ، يخص الله به بعض أصفيائه)[٢] .

وهذا التعريف للإلهام نواجه فيه كلمة (الفيض) فإن كان المراد معناه اللغوي وهو : جريان الشيء بسهولة ، كما عرّفه ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ؛ فلا بأس ، فهو عطاء من الله تعالىٰ ، وإن كان المقصود التعريف الصوفي ، كما عرّفه ابن عربي[٣] فقال : (هو تجلي الذات الأحدية لنفسها في صور جميع الممكنات)[٤] ؛ فهذا من الباطل ، ولكن الزبيدي أراد به المعنى

(١) لسان العرب (١٢/٥٥٥) .

(٢) تاج العروس (٩/٦٨) .

(٣) ابن عربي : محمد بن علي بن محمد بن محمد بن عربي المعروف بمحيي الدين ابن عربي ، اشتهر بمذهبه الباطل في القول بوحدة الوجود ، ت ٦٣٨ هـ ، الأعلام (٦/٢٨١) .

(٤) المعجم الصوفي مادة (فيض) ص (٨٨٩) ، د . سعاد الحكيم .

اللغوي كما هو معروف من سيرته .

وعرّفه ابن فارس فقال : اللام والهاء والميم أصل صحيح ، يدل على ابتلاع شيء ، ثم يقاس عليه . ومن هذا الباب : الإلهام ، كأنه شيء ألقي في الروع فالتهمه[1] .

قال ابن تيمية رحمه الله : (والإلهام في القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد ، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب . فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر للصواب ، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : **«قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر»**[2] .

والمحدَّث الملهَم المخاطَب ، وفي مثل هذا قول النبي ﷺ في حديث وابصة : **«البر ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب ، والإثم ما حاك في نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك»**[3] وهو في السنن . وفي صحيح مسلم عن النواس عن النبي ﷺ قال : **«البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس»**[4] .

وقال ابن مسعود : الإثم حزاز القلوب .

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٢١٧) .

(٢) فتح الباري (٧/٤٢) فضائل الصحابة ، باب (٦) حديث رقم (٣٦٨٩) وفيه : (زاد زكريا بن أبي زائدة عن سعد عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ **«لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر»** .

(٣) مسند أحمد (٤/١٩٤) .

(٤) صحيح مسلم : كتاب البر (١٤/١٥) .

وأيضاً ، فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظناً ؛ فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى ، فإنه إلى كشفها أحوج ، لكن هذا في الغالب لا بد أن يكون كشفاً بدليل ، وقد يكون بدليل ينقدح في قلب المؤمن ولا يمكنه التعبير عنه ، وهذا أحد ما فسر به الاستحسان)[1] .

وقال رحمه الله : (ومن طرق ذلك (الإلهام) فقد يلهم بعض عباده حال هذا المال المعين ، وحال هذا الشخص المعين ، وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره .

وقصة موسى مع الخضر هي من هذا الباب ، ليس فيها مخالفة لشرع الله تعالىٰ ، فإنه لا يجوز قط لأحد لا نبي ولا ولي أن يخالف شرع الله ، لكن فيها علم حال ذلك المعين بسبب باطن يوجب فيه الشرع ما فعله الخضر ، كمن دخل إلى دار وأخذ ما فيها من المال لعلمه بأن صاحبها أذن له وغيره لم يعلم ، ومثل من رأى ضالة أخذها ولم يعرفها لعلمه بأنه أتى بها هدية له ، ونحو ذلك ، ومثل هذا كثير عند أهل الإلهام الصحيح)[2] .

وقال في موضع آخر رحمه الله : (وإذا كانت الرؤيا على ثلاثة أقسام : رؤيا من الله ، ورؤيا من حديث النفس ، ورؤيا من الشيطان ، فكذلك ما يلقى في نفس الإنسان في حال يقظته ثلاثة أقسام .

ولهذا كانت الأحوال ثلاثة : رحماني ، ونفساني ، وشيطاني .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤٧٦ ـ ٤٧٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٤٧٩) .

وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف ثلاثة أصناف : ملكي ، ونفسي ، وشيطاني ، فإن الملك له قوة ، والنفس لها قوة ، والشيطان له قوة ، وقلب المؤمن له قوة ، فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق ، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل)[1] .

الفرق بين إلهام الملَك وإلقاء الشيطان :

وقد فرّق ابن القيم رحمه الله بين إلهام الملَك وإلقاء الشيطان من وجوه ، فقال : الفرق بين إلهام الملَك وإلقاء الشيطان من وجوه :

منها : أن ما كان لله موافقاً لمرضاته وما جاء به الرسول ؛ فهو من الملَك ، وما كان لغيره غير موافقاً لمرضاته ؛ فهو من إلقاء الشيطان .

ومنها : أن ما أثمر إقبالاً على الله ، وإنابة إليه ، وذكراً له ، وهمة صاعدة إليه ؛ فهو من إلقاء الملَك ، وما أثمر ضد ذلك ؛ فهو من إلقاء الشيطان .

ومنها : أن ما أورث أنساً ونوراً في القلب ، وانشراحاً في الصدر ؛ فهو من الملَك ، وما أورث ضد ذلك ؛ فهو من الشيطان .

ومنها : أن ما أورث سكينة فهو من الملَك ، وما أورث قلقاً وانزعاجاً واضطراباً فهو من الشيطان .

فالإلهام الملكي يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي استنارت بنور الله ، فللملَك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة ، فإنه طيب طاهر لا يجاور إلاَّ قلباً يناسبه ، فتكون لمة الملَك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦١٣) .

وأما القلب المظلم الذي قد اسودّ بدخان الشهوات والشبهات ؛ فإلقاء الشيطان ولمّته به أكثر من لمّة الملَك[1] .

الفرق بين التحديث والإلهام :

استشهد ابن تيمية عند ذكره للإلهام بحديث أبي هريرة الصحيح الذي فيه : «**لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدَّثون . .**» الحديث . فما الفرق بين الحديث والإلهام ؟ .

قال ابن حجر : (اختلف في تأويله فقيل : ملهم ، قاله الأكثر . قالوا : المحدث ـ بالفتح ـ هو الرجل الصادق الظن ، وهو من ألقي في روعه شيء من قِبَل الملأ الأعلى ، فيكون كالذي حدثه غيره به ، وبهذا جزم أبو أحمد العسكري ، وقيل : من يجري الصواب على لسانه من غير قصد ، وقيل : مكلَّم أي تكلّمه الملائكة بغير نبوّة)[2] .

التحديث ومرتبته :

فالمحدَّث من تتكلم الملائكة على لسانه ، ويؤيده الحديث الصحيح : «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل ؛ رجال يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر**»[3] .

فعلى هذا فمرتبة التحديث أعلى من مرتبة الإلهام ، سواء رأى الملائكة ، أم جرى اللفظ على لسانه بإلهام من الله تعالىٰ .

وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خير الملهَمين والمحدَّثين

---

(١) الروح ص (٢٥٦ ـ ٢٥٧) شمس الدين ابن قيم الجوزية .

(٢) فتح الباري (٧/٥٠) .

(٣) فتح الباري (٧/٤٢) كتاب فضائل الصحابة حديث رقم (٣٦٨٩) .

يقول عن نفسه : (وافقت ربي عزّ وجلّ في ثلاث : قلت يا رسول الله ! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلّى فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : آية ١٢٥] . وقلت : يا رسول الله ! إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقلت لهن: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم : آية ٥] فنزلت كذلك)[١] .

وبلغ التحديث في عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : أن خرج - رضوان الله عليه - يوم الجمعة إلى الصلاة فصعد المنبر ثم صاح : يا سارية بن زنيم ! الجبل ؛ يا سارية بن زنيم ! الجبل ؛ ظَلَم من استرعى الذئب الغنم ، فلم يدرِ الناس ما يقول حتى قدم سارية المدينة على عمر - رضي الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين ! كنا محاصري العدو ، وكنا نقيم الأيام لا يخرج علينا منهم أحد ، نحن في خفض من الأرض وهم في حصن عال ، فسمعت صائحاً ينادي بكذا وكذا ، فعلوت بأصحابي الجبل ، فما كان إلاَّ ساعة حتى فتح الله علينا ، ولما سئل عمر قال : والله ما ألقيت له بالاً ، شيء أتي به على لساني[٢] .

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . ابن الجوزي ص (٢٢) ، تفسير ابن كثير (١/ ١٦٩) .

(٢) ذكر القصة كثير من العلماء على سبيل المثال : «الفرقان» لابن تيمية ص (٢٦٧) ، «مناقب عمر» لابن الجوزي ص (١٧٢) ، «ختم الولاية» للحكيم الترمذي ص (٣٩١) .

على قدر الطاعة والاتباع تكون المخاطبة والمكاشفة :

وذكر ابن تيمية رحمه الله : (أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة) وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنها تتجلى للمطيعين ؛ هي الأمور التي يكشفها الله عزّ وجلّ لهم ، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات ، وأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر ؛ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ ، فإن خير هذه الأمة بعد نبيّها : أبو بكر ثم عمر .

وقد ثبت في الصحيح تعيّن عمر بأنه محدَّث في هذه الأمة . وأيُّ محدَّث ومخاطَب فُرِض في أُمة محمد ﷺ ؛ فعمر أفضل منه)[1] .

وقال الشاطبي رحمه الله : (إن جميع ما أعطيته هذه الأُمة من المزايا والكرامات والمكاشفات والتأييدات وغيرها من الفضائل ؛ إنما هي مقتبسة من مشكاة نبينا ﷺ لكن على مقدار الاتباع ، فلا يظن ظان أنه حصل على خير بدون وساطة نبوّته ﷺ ، كيف وهو السراج المنير الذي يستضيء به الجميع ، والعَلَم الأعلىٰ الذي يهتدى به في سلوك الطريق)[2] .

ومما ذكره ابن حجر رحمه الله في شرحه للحديث الصحيح

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : ٢٩ ، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية .

(٢) الموافقات في أُصول الشريعة (٢/٢٥٩) ، أبو إسحاق الشاطبي .

«لم يبق من النبوة إلّا المبشرات»[1] ، قال : وقال ابن التين[2] : معنى الحديث ؛ أن الوحي ينقطع بموتي ولا يبقى ما يعلم منه ما سيكون إلّا الرؤيا ، ويرد عليه الإلهام ؛ فإن فيه إخباراً بما سيكون وهو للأنبياء بالنسبة للوحي كالرؤيا ، ويقع لغير الأنبياء ، كما في الحديث الماضي في مناقب عمر : **«قد كان فيمن مضى من الأمم محدَّثون»** ، وفسَّر المحدث ـ بفتح الدال : بالملهم ـ بالفتح أيضاً ، وقد أخبر كثير من الأولياء عن أمور مغيبة فكانت كما أخبروا ، والجواب أن الحصر في المنام لكونه يشمل آحاد المؤمنين ، بخلاف الإلهام فإنه مختص بالبعض ومع كونه مختصاً فإنه نادر ، فإنما ذكر المنام لشموله وكثرة وقوعه ، ويشير إلى ذلك قوله ﷺ : **«فإن يكن»** وكأن السر في ندور الإلهام في زمنه وكثرته من بعده ؛ غلبة الوحي إليه ﷺ في اليقظة وإرادة إظهار المعجزات منه ، فكان المناسب أن لا يقع لغيره منه في زمانه شيء ، فلما انقطع الوحي بموته : وقع الإلهام لمن اختصه الله به ، للأمن من اللبس في ذلك . وفي إنكار وقوع ذلك مع كثرته واشتهاره مكابرة ممن أنكره)[3] .

وهكذا تبيّن لنا أن أكثر العلماء كابن تيمية وابن القيم وابن حجر وغيرهم يثبتون المعرفة المباشرة للقلب ، والاعتماد عليهم أولىٰ ، لأن إقناع البعض بثبوته وارتباطه بالقلب ليس باليسير ، وفتح هذا الباب على مصراعيه يدخله كثير من الشك . فهو أمر غيبي بحت يطلعه الله من يشاء من عباده ، فالواجب أن يراعى بشرط أن

---

(١) صحيح البخاري كتاب التعبير ، باب المبشرات ، حديث (٦٩٩٠) .

(٢) عبد الواحد ابن التين السفاقسي المالكي المعروف بابن التين أحد شراح الصحيح . كشف الظنون (١/٥٤٦) .

(٣) فتح الباري (١٢/٣٧٦) .

لا يخرم حكماً شرعياً ولا قاعدة دينية ، وإلاَّ كان خيالاً ووهماً من إلقاء الشيطان ، ولا يستمد منه حكماً شرعياً ، فالأحكام الشرعية تبنى على الظاهر . أما إنكاره بالكلية بعد إثباته فمكابرة ، والأخذ به بالكلية لا يحفظ ترتيب الظواهر التي هي مبنى الشريعة ، فليت هذا الأمر يُتقصى ، فهو بحث مستقل حباه الله خلقه الأصفياء المخلصين .

الفراسة :

ومن باب الإلهام : الفِراسة ، وقسّمها الإمام الرازي إلى قسمين :

فقال : (أحدهما : أن يحصل خاطر في القلب أن هذا الإنسان من حاله وخلقه كذا وكذا ، من غير أن يحصل هناك علامة جسمانية ، ولا أمارة محسوسة . والسبب فيه : ما ثبت أن جواهر النفوس الناطقة مختلفة بالماهيات ، فمنها ما يكون في غاية الإشراق والتجلي والبعد عن العلائق الجسمانية ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وكما أن النفس تقدر على معرفة الغيوب في وقت النوم ، فكذلك النفس المشرقة الصافية قد تقدر على معرفة المغيبات حال اليقظة ، والنفوس التي شأنها ذلك تكون أيضاً مختلفة المعنى بالكم والكيف)[1] .

أما النوع الآخر وهو : الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة ؛ فهذا علم مستقل لا دخل للإلهام فيه ، ولكنه علم له أصول وفروع ، مجال بحثها كتب استقلت به .

---

(١) الفراسة ص (٣٠) ، محمد بن عمر فخر الدين الرازي ، تحقيق مصطفى عاشور .

والمهم : أن من الفراسة علم لا دخل للمدارك المحسوسة فيه بشيء ، إنما هو ضرب من إشراق القلوب .

فهذه الفراسة : استنباط الأسرار بالنظر الثاقب المعزز بنور البصيرة ، وسببه رقي القلب في مراتب حياته .

قال ابن تيمية في ذكر فوائد غض البصر : (أنه يورث نور القلب والفراسة . قال تعالىٰ عن قوم لوط : **﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾** . فالتعلق في الصور يوجب فساد العقل وعمى البصيرة ، وسكر القلب بل جنونه .

وقال : وذكر سبحانه آية النور عقب آيات غض البصر فقال : **﴿الله نور السموات والأرض﴾** .

وكان شاه بن شجاع الكرماني[١] لا تخطىء له فراسة ، وكان يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكفّ نفسه عن الشهوات ، وذكر خصلة خامسة وهي أكل الحلال ، لم تخطىء فراسته . والله تعالىٰ يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، فغضّ بصره عما حرم يعوّضه الله عليه من جنسه بما هو خير منه ، فيطلق نور بصيرته ، ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشوف ونحو ذلك ، مما ينال ببصيرة القلب)[٢] .

وقد ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله

---

(١) شاه بن شجاع الكرماني ، صوفي ذكره الأصفهاني في ترجمة (٥٦٦) وقال : إنه صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيد البسري . ولم يذكر تاريخ وفاته ، حلية الأولياء (١٠/٢٣٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/٢٥٦ ـ ٢٥٨) وقول شاه الكرماني ذكره أيضاً ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/٥٠٥) .

عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[1] .

فراسة المؤمن على قدر إيمانه :

الفراسة على حسب قوة الإيمان في القلب ، فليس كل مؤمن ذا فراسة ، أما من كان إيمانه أقوى كان أحدَّ فراسة ، وليس لأحد أن يدّعيها ؛ لأنها هبة في القلوب . فعلى المؤمن أن يتقي الفراسة من الغير لا أن يدّعي الفراسة .

وذكر ابن القيم (عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : العزيز في يوسف حيث قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف : آية ٢١] ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى ﴿ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ [القصص : آية ٢٦] ، وأبو بكر في عمر ـ رضي الله عنهما ـ حيث استخلفه، وفي رواية أخرى : وامرأة فرعون حين قالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [القصص : آية ٩])[2] .

---

(١) سنن الترمذي (٥/٢٩٨) كتاب التفسير باب (١٦) حديث (٣١٢٧) وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه ، وقد روي عن بعض أهل العلم .

(٢) مدارج السالكين (٢/٥٠٦) .

المبحث الثالث

نزول كلام الله على أنبيائه

وأخيراً ننتقل إلى أعلى مـراتب المعرفـة في القلب ، كلام الله للعبد ، ومنه : الوحي .

والواو والحاء والحرف المعتل : أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك[1] .

والوحي : الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي ، وكل ما ألقيته إلى غيرك يُقال : وحيت إليه الكلام[2] .

وقيل : أصله التفهيم . وكل ما دللت به من كلام أو كتابـة أو رسالة أو إشارة فهو وحي .

وشرعاً : الإعلام بالشـرع[3] وقد يـطلق الوحي ويـراد به اسم المفعول منه ، أي المـوحَىٰ ، وهو : كـلام الله المنزل على نبي من أنبيائه ، عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ٩٣) .
(٢) لسان العرب (١٥/ ٣٧٩) .
(٣) فتح الباري (١/ ٩) .

ومن التعريف اللغوي نلاحظ أن كلمة الوحي تشمل وحي الإلهام ووحي الرسالة ، وقد تحدثنا عن وحي الإلهام في قلوب المؤمنين .

أما وحي الرسالة فمختص بأنبيائه ورسله عليهم السلام .

أقسام المعرفة لدى الأنبياء عليهم السلام :

فالمعرفة لديهم على أقسام ثلاثة :

أحدها : **سماع كلام الله تعالىٰ** : كسماع موسى عليه السلام . كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : اية ١٦٤] .

وهذا منتهى مراتب الوحي وأعلاها ، وقد وقع التكليم أيضاً لنبينا محمد ﷺ في الإسراء ، كما ثبت في صحيح الآثار . من ذلك حديث المعراج ، وفيه مراجعة رسول الله مع موسىٰ عليه السلام ، إذ قال له : «**فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عني عشراً** . .» الحديث[1] .

قال ابن تيمية : (وقد فرَّق سبحانه بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[2] فرّق سبحانه بين

---

(١) صحيح البخاري : كتاب المعراج حديث رقم (٢٧٠) ، عمدة القاري (٢٢/١٧) .

(٢) ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى** =

تكليمه لموسى وبين إيحائه لغيره ، ووكّد تكليمه لموسى بالمصدر ، وقال تعالىٰ : ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**﴾ ، إلى قوله تعالىٰ : ﴿**روح القدس**﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاَّ وحياً**﴾ إلى آخر السورة ، فقد بيّن سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلاَّ على أحد الأوجه الثلاثة :

إما وحياً ، أو من وراء حجاب ، وإما أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ، فجعل الوحي غير التكليم ، والتكليم من وراء حجاب كان لموسى)(1) .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ : (فالله تعالىٰ يقول : ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط**﴾ ، إلى قوله : ﴿**وكلم الله موسىٰ تكليماً**﴾ ففضل موسىٰ بالتكليم على غيره ممن أوحي إليهم ، وهذا يدل على أُمور : على أن الله يكلم عبده تكليماً زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص ، فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص ، فالتكليم هو المقسوم في قوله : ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاَّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً**﴾ والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس هو قسماً منه ، وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاماً فيدخل فيه التكليم

= **إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسىٰ تكليماً**﴾ [النساء : آية ١٦٣ ـ ١٦٤] .

(1) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٩) .

الخاص كما في قوله لموسى ﴿**فاستمع لما يوحى**﴾ وقد يكون قسيم التكليم الخاص كما في سورة الشورى ، وهذا يبطل قول من يقول : الكلام معنى واحد قائم بالذات ، فإنه حينئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى والوحي العام الذي يكون لآحاد العباد ، ومثل هذا قوله في الآية الأخرى : ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلَّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء**﴾ فإنه فرّق بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب وبين إرسال رسول يوحي بإذنه ما يشاء ، فدل على أن التكليم من وراء حجاب ـ كما كلّم موسى ـ أمر غير الإيحاء)[1] .

ثانياً : الوحي بواسطة الملَك :

القسم الثاني : وحي رسالة بواسطة ملَك معروف حامله مستيقن طريقه ، مشهودة رحلته ، يراه الرسول ﷺ رأي العين والقلب ، من غير وهم ولا خداع بصر ، ورؤيا القلب أثبت في المعرفة لأنها تنفي خداع النظر ، وتثبت أن حامل الوحي رسول ربه إليه ليعلمه ويكلّفه تبليغ ما يعلم ، فهي رؤية محققة ويقين جازم ومعرفة مؤكدة ، والمبلغ عن الحق تبارك وتعالى كريم عند ربه ، قوي بوصف الله له : أمين على وحيه ، مكين في مقامه ومكانته ، مطاع في الملأ الأعلى .

القسم الثالث : **وحي تلق بالقلب** ، كقوله عليه الصلاة والسلام : «**إن روح القدس نفث في روعي**» أي في نفسي ، وقيل : كان هذا حال داود عليه السلام[2] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٢٨ ـ ١٢٩) .

(٢) عمدة القاري (١/٤٠) ، الحديث قال عنه ابن حجر : أخرجه ابن أبي =

أقسام الوحي بواسطة الملك :

وأما صور المعرفة بالوحي فلها أحوال مختلفة :

الأول : **المنام** ، كما جاء في الحديث الصحيح : «**أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح**»(١) أي مبينة واضحة مثل مجيء الصبح ، ورؤيا الأنبياء وحي صادق لم يسلط فيها ضغث ولا تلبس شيطان ، وقد ذكرنا في الرؤى أن الله يخلق في قلب النائم أو في حواسه الأشياء كما يخلقها في اليقظان ، وهو سبحانه يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا غيره ، فربما يقع ذلك في اليقظة كما رآه في المنام .

وسبب ابتداء النبوة بالرؤيا الصالحة كما قال البدر العيني (لئلا يفجأه الملك ويأتيه بصريح النبوة ولا تحتملها القوى البشرية ، فبدىء بأوائل خصال النبوة وتباشير الكرامة ؛ من صدق الرؤيا مع سماع الصوت وسلام الحجر والشجر عليه بالنبوّة ورؤية الضوء ، ثم أكمل الله له النبوة بإرسال الملك في اليقضة ، وكشف له عن الحقيقة كرامة له)(٢) .

مدى تأثير الوحي :

والوحي سواء كان مناماً أو يقظة أو إلهاماً ، سلطانه أقوى من

= الدنيا في «القناعة» وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود . فتح الباري (١/٢٠) .

(١) صحيح البخاري : كتاب الوحي حديث رقم (٣) ، عمدة القاري (١/٤٦) .

(٢) عمدة القاري (١/٦٠) .

أن يقاوم ، وله سلطة على طبع الموحىٰ إليه لا بد أن ينقاد له . قال تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ [القصص : آية ٧] .

وكذا فعلت فألقته ولم تخالف ، مع أن الحالة تؤذن أنها ألقته في الهلاك ، ولكنها لم تتردد ولا حكمت عليها النفس البشرية بأن إلقاءها في اليم في تابوت من أخطر الأشياء ؛ لأن المعرفة بالوحي من أصدق المعارف وأقواها وأنفذها إلى قلب الإنسان ، فتصل إلى فؤاده وتنفذ إليه ، ولا كذب في رؤيا الفؤاد . وكذلك إبراهيم عليه السلام ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : آية ١٠٢] أسلم واستسلم وانقاد ، إنفاذاً لأمر ربه يقيناً ، فلم يشك وأسلم وتلّه للجبين .

الثانية : أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس :

والصلصلة : في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ، ثم أطلق على كل صوت له طنين ، والصلصلة أيضاً صفاء صوت الرعد[1] .

(والحكمة في تقديمه أن يقرع سمعه الوحي ، فلا يبقى فيه مكان لغيره ، وقال شيخ الإسلام البلقيني[2] : سبب ذلك أن الكلام

---

(١) لسان العرب (١١/٣٨٢) .

(٢) شيخ الإسلام البلقيني : صالح بن عمر بن رسلان الشافعي ، من علماء الحديث والفقه ، ت : ٨٦٨ هـ ، الأعلام (٣/١٩٤) .

العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به)[1] .

وهـذا أشـد أنـواع الـوحي كمـا في الحـديث الصحيـح أن الحـارث بن هشام ـ رضي الله عنـه ـ سأل رسـول الله ﷺ فقال : يـا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : «**أحياناً يـأتيني مثـل صلصلة الجرس ، وهـو أشدّه عليّ ، فيفصم عني وقـد وعيت عنه ما قال**»[2] .

وشـدة هـذه الصلصلة (ليستجمـع قلبـه عنـد تلك الصلصلة ، فيكون أوعى لما سمع ، وألقن لما يُلقى)[3] .

والوعي هنا قبل الفصم لابعده بدلالة الحديث .

قال البدر العيني رحمه الله : (إن قيل : ما الحكمة في ضـربه ﷺ في الجواب بالمثل المذكـور : (مثل صلصلة الجـرس) ؟ أُجيب بأنه ﷺ كان معتنياً بالبلاغة مكاشفاً بالعلوم الغيبية ، وكان يـوفر على الأمة حصتهم بقدر الاستعداد ، فإذا أريد أن ينبئهم بما لا عهـد لهم به من تلك العلوم ، صاغ لهـا أمثلة من عالم الشهـادة ، ليعرفـوا بما شاهدوه ما لم يشاهـدوه ، فلما سـأله الصحـابي عن كيفية الـوحي ، وكـان ذلك من المسـائل الغـويصة ؛ ضـرب لهـا في الشـاهـد مثـلاً بالصوت المتدارك الذي يُسمـع ولا يُفهم منه شيء ، تنبيهـاً على أن إتيانها يرد على القلب في لبسه الجلال ، فيأخذ هيبة الخـطاب حين ورودها بمجامع القلوب ، ويلاقي من ثقل القول ما لا علم له بالقول

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٠) .

(٢) صحيـح البخاري : كتـاب بـدء الـوحي حديث رقم (٢) ، فتـح البـاري (١/ ١٨) .

(٣) الروض الأنف (١/ ٢٦٩) أبو القـاسم عبد الـرحمن بن عبد الله السهيلي ، ط : ١٣٩٨ هـ .

مع وجود ذلك ، فإذا كشف عنه وجد القول المنزل بيّناً ، فيلقى في الروع واقعاً موقع المسموع ، وهذا معنى قوله (فيفصم عني) . وهذا الضرب من الوحي شبيه بما يوحى إلى الملائكة ؛ على ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : **«إذا قضى الله في السماء أمراً ؛ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنها سلسلة على الحجر ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ؛ وهو العلي الكبير »**[1] .

الثالثة : أن ينفث في روعه الكلام :

وأصل النفث : خروج شيء من فم أو غيره بأدنى جرس ، منه : نفث الراقي ريقه[2] .

والنفث شبيه بالنفخ وفي الحديث : **«أن النبي ﷺ قال : إن روح القدس نفث في روعي وقال : إن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»**[3] .

قال أبو عبيد : هو النفث بالفم شبيه بالنفخ ، يعني جبريل ، أي أوحى وألقى[4] ، وهو أقل من التفل لا يكون إلاّ ومعه شيء من الريق[5] .

---

(١) عمدة القاري (١/٤٤) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥/٤٥٧) .

(٣) الحديث رواه الحاكم (٢/٤) من طريق آخر مطولاً وأوّله: «ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلاّ وقد أمرتكم به ، ولا عمل يقرب إلى النار إلاّ وقد نهيتكم عنه» وقال : صحيح على شرط مسلم ، مسند الشهاب (٢/١٨٥) رقم (١٨٥/٢/٧٢٨) ، القاضي محمد بن سلامة القضاعي ، تحقيق حمدي السلفي ، ط :١ ، ١٤٠٥ هـ .

(٤) لسان العرب (٢/١٩٥) .

(٥) النهاية في غريب الحديث (٥/٨٨) .

قال مجاهد : (نفث ينفث في قلبه فيكون إلهاماً)[١] .

وقد ذكرنا الإلهام ، فكل إلهام وحي وليس كل وحي إلهام ، لأن الوحي يقين يكمن في القلب بأنه من قبل الله ؛ سواء كان بواسطة أو بغير واسطة ، بخلاف الإلهام الذي ينساق معه القلب إلى ما يمليه عليه الإلهام .

الرابعة : أن يتمثل له الملَك رجلاً :

وقد ورد ذلك في الحديث الصحيح ، أنه ﷺ قال : «وأحياناً يتمثل لي الملَك رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول»[٢] .

وفيه دليل أن الملائكة تتشكل بالصورة البشرية بالقدرة الإلهية .

قال السهيلي رحمه الله : (فقد كان يأتيه في صورة دحية بن خليفة ـ رضي الله عنه ـ ويروى أن دحية إذا قدم المدينة لم تبق معصر إلاَّ خرجت تنظر إليه لفرط جماله)[٣] .

وقال العيني رحمه الله : (كان يأتيه في صورة دحية ـ رضي الله عنه ـ واختصاص تمثله بصورة دحية دون غيره من الصحابة ـ رضوان الله عنهم ـ لكونه أحسن أهل زمانه صورة ، ولهذا كان يمشي متلثماً خوفاً أن يفتن به الناس)[٤] .

ولعل هذه الحالة من المعرفة هي أهون الحالات بدلالة قوله

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/٥٣) .

(٢) عمدة القاري (١/٣٦) كتاب كيف بدأ الوحي ، حديث رقم (٢) وأوّله : (أن الحارث بن هشام ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! كيف يأتيك الوحي . .) الحديث .

(٣) الروض الأنف (١/٣٦٩) والمعصر : المرأة إذا اكتملت أنوثتها .

(٤) عمدة القاري (١/٤٠) .

عليـه السلام : **«فيكلمني فـأعي ما يقـول»** فالملك تشكّـل بالصـورة البشرية ثم يكلّم الرسول ثم يعي ما يقول .

فالفاء للعطف المشير إلى التعقيب ، فالوعي حال المكالمة لا قبلها . وفي الحالة (الثانية) التي يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس ، وهـو أشد أنـواع الوحي الـذي يـرد على القلب في لبسـة الجـلال ، فيأخذ هيبـة الخطاب حين ورودهـا بمجامـع القلوب ، يكون الـوعي أثنـاء التلبس بالصفـات الملكية ، فحـالـة تشكـل الملَك بـالصفـات البشـرية أهـون من تحول الـطباع البشـرية إلى الأوضـاع الملكيـة ، فيوحى إليه كما يوحى إلى الملائكة .

الخامسة : أن يتراءى له جبريل عليـه السلام في صـورته التي خلقهـا الله تعالىٰ ، كمـا في الحديث الصحيـح قولـه عليـه الصـلاة والسـلام : **«بينما أنـا أمشي إذ سمعت صوتـاً من السمـاء . فـرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت : زملوني»**الحديث(١) .

وفي «شرح السنة» عن الشيباني قال : سـألت زراً(٢) عن قولـه عـزّ وجلّ : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم : آية ٩] قـال : أخبـرنا عبـد الله أن محمـداً ﷺ رأى جبـريـل ـ رضي الله عنـه ـ لـه ستمائة جناح(٣) .

---

(١) صحيح البخاري (١/٤) كتاب كيف بدأ الوحي حديث رقم (٣) .

(٢) زر بن حبيش أبـو مـريم الأسـدي مخضـرم كثيـر الحـديث ، ت ٨١ هـ ، طبقات الحفاظ ص (٢٠) .

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير «سورة النجم» باب قوله تعالى : **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** ، فتح الباري (٨/٤٧٠) ومسلم (١٧٤) (٢٨٢) .

وقال السهيلي في روضه : (يتراءى له جبريل في صورته التي خلقه الله فيها ، له ستمائة جناح ، ينتشر منها اللؤلؤ والياقوت)[1] .

السادسة : أن يكلمه الله تعالىٰ من وراء حجاب إما في اليقظة كما مر في ليلة المعراج وإما في النوم كما جاء في سنن الترمذي من حديث ابن عباس قال : «**قال رسول الله ﷺ : أتاني الليلة ربي تبارك وتعالىٰ في أحسن صورة قال : أحسبه في المنام ـ فقال : يا محمد : - تدري فيم يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ . قال : قلت : لا . قال : فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي ـ أو قال : في نحري ـ فعلمت ما في السمٰوات وما في الأرض ، قال : يا محمد ! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ قلت : نعم . .**» الحديث[2] .

وقد روي أيضاً من حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال : «**احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس ، فخرج سريعاً فثوّب بالصلاة فصلّى رسول الله ﷺ وتجوّز في صلاته فلما سلّم دعا بصوته قال لنا : مصافكم كما أنتم ، ثم انفتل إلينا ثم قال : أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة : إني قمت من الليل فتوضأت وصلّيت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استثقلت ، فإذا أنا بربي تبارك وتعالىٰ في أحسن صورة ، فقال : يا محمد ! قلت : لبيك رب . قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري ، قالها ثلاثاً ، قال :**

---

(١) الروض الأنف (١/ ٢٧٠) .

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٣٦٦) كتاب التفسير باب (٣٩) حديث رقم (٣٢٣٣) ، وكذلك رقم (٣٢٣٤) ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . (ومعنى ثوّب بالصلاة : أي أقام الصلاة ـ النهاية : ١/ ٢٢٦) .

فرأيته وضع كفّه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي ، فتجلّى لي كل شيء وعرفت ، فقال : يا محمد ! قلت : لبيك رب . . » الحديث[1] .

فهنا المعرفة بين الحق وبين الخلق . رأى رسول الله ﷺ ربه في المنام في أحسن صورة ، أو رآه في اليقظة من وراء حجاب رؤية فؤاد ، ولا كذب في رؤية الفؤاد ، وعلّمه الحق تبارك وتعالى علم كل شيء في الملأ الأعلىٰ ، أو علم ما في السموات وما في الأرض كما في الحديث السابق ، فلما سأله الحق فيم يختصم الملأ الأعلىٰ ؟ قال : نعم ، لأنه قد علمه في جملة ما علّمه الله ، وكان قبل ذلك لا يعلمه .

وهنا طرفة أحببت ذكرها تدخل معنا فرعاً لا أصلاً ، وهي : إن الخلق متفاوتون في المعرفة والفهم ، فكما أن بني آدم متفاوتون في الفهم ؛ نجد أيضاً الملائكة متفاوتون بدلالة الحديث . وفيه : **«يا محمد ، قلت : لبيك رب . قال : فيم يختصم الملأ الأعلى . قلت : في الكفارات . قال : ما هنّ ؟ قلت : مشي الأقدام إلى الحسنات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء حين الكريهات ، قال : فيم ؟ قلت : إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة بالليل والناس نيام . . »** الحديث[2] .

كلام شيخ الاسلام في رؤية الله تعالى :

قال ابن تيمية : (إن أئمة السنة والجماعة متفقون من أن الله

---

(١) سنن الترمذي (٥/٣٦٨) كتاب التفسير باب (٣٩) حديث رقم (٣٢٣٥) قال الترمذي : هذا الحديث حسن صحيح ، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الحديث السابق نفسه .

لا يـراه أحد بعينـه في الدنيـا ولـم يتنـازعـوا إلاَّ في نبينـا محمـد ﷺ خاصة ، وقد روي نفي رؤيتنا له في الدنيـا ، عن النبي ﷺ من عدة أوجه ، منها : ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال ـ لما ذكر الدجال ـ : «**واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت**» . وموسى ابن عمران عليه السلام قد سأل الرؤية فذكر الله سبحانه قوله ﴿**لن تراني**﴾ وما أصاب موسى من الصعق)[1] .

وقال أيضاً : (وقد خطب عروة بن الزبيـر من عبد الله بن عمـر ابنته وهو في الـطواف فقال : أتحـدثني في النساء ونحن نتـراءى الله في طوافنا ؟ فهذا كله وما أشبهه لم يريدوا به أن القلب تـرفع جميـع الحجب بينـه وبين الله ، حتى تكافـح الروح ذات الله كمـا يرى هـو نفســه ، فإن هـذا لا يمكن لأحد في الـدنيا ، ومن جـوّز ذلـك إنمـا جـوّزه للنبي ﷺ كقول ابن عبـاس : رأى محمد ربـه بفؤاده مرتين ، ولكن هـذا التجلي يحصل بـوسـائط بحسب إيمـان العبـد ومعـرفتـه وحبـه ، ولهذا تتنـوع أحوال النـاس في ذلـك كمـا تتنـوع رؤيتهم لله تعـالىٰ في المنام ، فيـراه كل إنسـان بحسب إيمانـه ويرى في صـور متنوعة)[2] .

والمهم أن المعـرفة بـالـوحي بتعـدد أنـواعـه ؛ محفـوظـة من الخطرات الشيطانيـة والهواجس النفسيـة ، لأن الموحىٰ إليـه معصوم من كل ذلك : بخلاف المعارف الأُخر ؛ لا بد أن يرجع فيهـا إلى ما أتى عن المعصوم ﷺ .

بيان أن الصدّيق أفضل من المحدّث :

قال ابن تيمية : (إن المكاشفات يقع فيها من الصواب والخطأ

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٤٩) .

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٤٩٢) .

نظير ما يقع في الرؤيا وتأويلها ، والرأي ، والرواية ، وليس شيء معصوماً على الإطلاق إلا ما ثبت عن الرسول ﷺ ولهذا يجب رد جميع الأمور إلى ما بعث به ، ولهذا كان الصدّيق المتلقي عن الرسول كل شيء ، مثل أبي بكر ، أفضل من المحدَّث ، مثل عمر - رضي الله عنهما - وكان الصدّيق يبيّن للمحدَّث المواضع التي اشتبهت عليه حتى يرده إلى الصواب ، كما فعل أبو بكر بعمر يوم الحديبية ، ويوم موت النبي ﷺ ، وفي قتال مانعي الزكاة وغير ذلك)[1] .

ولا ريب أن سيد الأعضاء ، هذه المضغة التي نزل القرآن عليها ، ألا وهي القلب ؛ هو محل العلم ، وهو الملزم بالحجة ، إذا قذف فيه نور البصيرة والمعرفة ازداد قرباً من الله فازداد علماً ، يرتقي فيه تعقله ، فالمدار مدار إيمان ويقظة ، مع كل ما أتى عن الحق تبارك وتعالىٰ ، فيؤتيه الله علماً من عنده بسبب طهارة قلبه ، وهو ما يسمى بالعلم اللدني .

كلام شيخ الاسلام في العلم اللدني :

قال ابن تيمية : وأما العلم (اللدني) ؛ فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه ، واتباعهم ما يحبه ؛ ما لا يفتح به على غيرهم ، وهذا كما قال علي - رضي الله عنه - : إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه . وقد دلّ القرآن على ذلك في غير موضع كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء : آية ٦٦ - ٦٨] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٤٢٩) .

فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطاً مستقيماً[1] .

نسأل الله أن يعلّمنا ما ينفعنا ، وينفعنا بما علّمنا ، وأن يزيدنا علماً من عنده .

وختاماً : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٥) .

الخاتمة

الخاتمة

أما بعد حمد الله الذي هو فاتحة كل كتاب ، والصلاة على رسله التي هي خاتمة كل خطاب ، نشكره جلّت عظمته أن حبانا بنعمه ، وأغدق علينا من فضله .

كل صنعة يخترعها العبد ؛ لا بد أن تحوي دليلاً يوضح كيفية العناية بهذه الآلة ، وطرق وقايتها ، وأسباب إتلافها ، وكذلك الإنسان ، هو صنعة الخالق جلّت عظمته ، أعطاه ينبوع الإسلام الأول ، يقلب في ثناياه ما شاء ، وسيجد في كل آية من الكتاب المفصل ؛ ما يشفي صدره ، ويعالج قلبه ، ويجعله يسيطر بروحه على بدنه ، ويسمو بنفسه فوق حسه .

وكان الهدف الأسمى من هذا البحث ؛ معرفة هذه اللطيفة الربانية ، المرتبطة ارتباطاً معنوياً باللحم الصنوبري الشكل ، المودوع في الجانب الأيسر من الصدر ، ولها به تعلق وثيق ، ولا أقصد بالمعرفة الكشف التام ؛ إنما لمسات منيرة أوضحها الذكر الحكيم والسنة المطهرة ، واقتبستها منهما ، مع الاستدلال والاستئناس بأقوال الأكابر من العلماء ، على مختلف الطبقات والأشربة ، مع التحفظ عن المجاز ومشتقاته .

أوضحت بقدر الإمكان معاني القلب ومترادفاته ، والتوضيح يظهر الفوارق . فالفؤاد اشترك مع القلب في الصغو والتقليب ، وانفرد بالفراغ والرؤيا والتثبيت وغيرها ، فهو جزء من القلب اختص ببعض الأحوال ؛ من معرفة وخواطر تتقارب مع اللب حيناً وتغايره أحياناً ، كما أن العقل نور يقذف في القلب ، يستعد به لإدراك الأشياء ، وليس عيناً قائمة بذاتها ، إنما التعقل عمل من أعمال القلب المؤمن الحي ، وبالتتبع وجدنا أن الصدر استقل ببعض الأحوال ، فهو يضيق أحياناً وينشرح أُخرى ، وهو أول مقامات القلب وموضع نور الإسلام ، والقلب مقرّه ومكمنه .

وبالنسبة للفطرة : توصلت إلى أنها أعم من أن تكون في قلب أو صدر ، فهي تهيئة النفس لقبول الحق ، وميثاق أقدم من الرسل والرسالات ، ولكنها تتعرض إلى الاجتيال بالشبهة أو الشهوة ، ولا حادي لها سوى الإسلام ، وبه ترتقي إلى حقيقة التوحيد ، ومع الإيمان تصور وقفة بين الحظ الأدنى والأعلى ، وعلى قدره يكون النور في القلب ، وبقدر عظم النور يحترق الاجتيال ، وفيه تم التفريق بين الإسلام والإيمان إذا افترقا ، وذكرنا بعضاً من أنوار لا إله إلاَّ الله بقدر ما صرح به الوحي .

وبتتبع أحوال القلب الحي حالة بعد أُخرى استقصاءً ، بقدر ما يسر الله بين الكتاب والسنة وأقوال العلماء ، مع المحافظة على لغة الذكر الحكيم ؛ تبيّن لنا من النصوص أن أول ما يطالب به العبد بعد سلامة القلب الخشوع ، حتى يترقى في الثواب ويسلم من العقاب . وبيّنا معاني ورود الحالة في كتاب الله وأقوال العلماء فيها ، ثم أثر تلك الحالة على الجوارح وعلى المجتمع سلباً وإيجاباً ، ومقدار دوام الحالة في الأُمة ، وما ينتج عن ذلك ، وكيف يتم الانتقال في درجات الإحسان ، ومن هو المحظوظ بهذه المكانة

من الأُمة ، وحين ترد الحالة في اللغة تحتمل المدح والذم ؛ فصلت لمن تكـون تلك الأحـوال كشـدة القلوب مثـلاً ؛ مـرغـوبـة في وقت ومرفوضة في وقت آخر ، وأن من الأحوال ملكات في استطاعة العبد أن ينميهـا ، حتى يطمئن قلبـه إلى ذكر الله فيـزول مـا فيـه من القلق والوحشة ، ومن التتبـع تبيّن أن أعلى حالات القلب الحي ، ومنتهى الكمـال ، وأقصى ما تتحمله طـاقة القلب ؛ الغين عليـه ، وهي من مراتب النبوة التي اختص بها المفضَّل بالشفاعة ﷺ .

وتبيّن لنا أن لله تبارك وتعالىٰ أفعالاً في قلوب عباده ، يعطيهـا لمستحقها إذا بلغ مرحلة من مـراحل القلب ، سـواء كانت المـرحلة رقياً أو دركاً . فالطهـارة والتزين والتثبيت والهـداية ؛ من خلق الله أو إنشـائـه في القلوب المتـرقيـة ، وللدرك أحـوال أُخـرى ، ولا تتفق القلوب على المودة والألفة إلاَّ بـالمحبة الخـاصة التي وعـد الله أهل التقوى أن يؤتيهم كفلين منها .

والإنسان وإن كان يولد بقلب سليم على الفطرة ؛ إلاَّ أنه قابل للانحراف ، لا عاصم له من وسـاوس الجن والأنس ؛ إلاَّ بالتمسـك بما يحييه ويرتقي به في مراتب الإيمان . وهو محل الميل والإرادة ، فإذا مال إلى الهدى فهذه إرادة الرحمن ، وإن مال إلى الضلال فبغية الشيـطان ، والقلب المـريض اتضـح لنـا أنــه لا يخلو من أحـوال : كالغل والغلظة والغيظ والإباء ، وكلها مراحل كبـر أو نفاق أو كفـر لا يخرجان عن الملة ، وفصلت القول مستشهداً بقـول السلف في هذه الأحـوال ؛ متى تكون مـرضاً من أمـراض القلوب ، ومتى تخرج من الملة ، وكيفية معالجة هذه الأمراض ، مع توضيح لأثر الذنوب على القلوب ، مستدلاً على ذلك بنصوص الوحي الكريم .

وحتى أوضـح آخـر مــراحـل مــوت القلب ؛ فصّلت تعـريف

الموت وأنواعه وأوجه وروده في القرآن الحكيم ، مع ذكر الآيات التي تدل إشارة إلى موته ، فلا بد من الحيطة ، إذ كثير من المشركين أزيحت الغشاوة عن قلبه فآمن ، وهذا يعني بالضرورة : أنهم لم يبلغوا المرحلة النهائية من مراحل موت القلب ، وتبيّن لنا أن هناك صفات وحالات ، تمر على القلب المتهالك في المرض ، فتقوده إلى الموت التام ؛ كاللهو والغمر والإنكار والاشمئزاز والإكنان وما تابعهم من صفات ، حتى يشرب القلب حب المعاصي ، فتقوده إلى الطبع ثم الختم عليه ، وكل ذلك راجع إلى ما كسب العبد من الخطايا والرزايا .

وتحدثت عن مقر العقل والفرق بينه وبين الفكر والنظر ، وبيّنت أن التعقل عمل من أعمال القلب ، وليس هناك عين بذاتها في الإنسان تسمى العقل ؛ مستأنساً بأقوال العلماء في شرح الآيات والأحاديث الدالة على ذلك ، فقادنا هذا إلى أن موضع التمييز والاختيار وإلزام الحجة هو القلب ، وحتى يتم التوضيح أكثر عرّفت الفهم ومراتب الناس بالنسبة للتعقل وتعريف العاقل ، كل ذلك ليقودنا إلى مراتب المعرفة عند الإنسان ، سواء كانت معرفة مباشرة أو غير مباشرة للقلب ، وظهر لنا أن زيادة أعمال الخير فَتْح من الله تبارك وتعالىٰ ، تدل على ترقي الفهم الذي يقود إلى التعقل ، ولا يتم ذلك إلاّ بزيادة الإيمان ، أو بخصوصية المشرع للصفوة الطاهرة ، برجحان القوة العملية الإرادية أو القوة العملية النظرية .

والمهم أن يكون العلم بتدبر وانتفاع وتصديق وطاعة ، حتى يؤدي ذلك إلى تعظيم الله . أما العلم القاصر على الاستمتاع الدنيوي فقط ؛ فهو درك يهوي بصاحبه . وتحدثت عن وسائل المعرفة غير المباشرة للقلب ؛ كالسمع والبصر ووظائف كل منهم ، بقدر ما يحتاج إليه البحث مع بيان أهميتها بالنسبة للإنسان .

أما المعرفة المباشرة فهي الرؤى والأحلام ، وظهر أنه بقدر الإيمان وبرقيه تزداد المعرفة عن طريق الرؤى ، وكذلك الخاطر والإلهام والتحديث ، وتقييد كل معرفة بقيود شرعية موافقة لمرضاة الله ، مع توضيح مراتب كل معرفة ، وما يترتب على ذلك من مخاطبات ومكاشفات ، وإسناد ذلك كله على أقوال السلف الطاهر ، ثم الفراسة بصفتها نوع من أنواع المعرفة ، وختمت أبواب المعرفة بكلام الله لأنبيائه بصفته أعلى أنواع المعارف وأشرفها وأرقاها ، مع تفصيل مستند من الوحي .

وأتمنى على الله تبارك وتعالىٰ ؛ أن يتبع هذه البحث ببحوث متممة تسانده وتوضحه أكثر وأجلى لتتم الاستفادة منه على ما ينبغي ، ومن ذلك التوضيح التام لكل حالة تكرر ذكرها في الكتاب والسنة بتفصيل ؛ كالتقوى والطمأنينة والسكينة ، وكذلك المعرفة : فهي أنواع ، كل نوع تتكون منه رسالة علمية يستفيد منها المسلمون ؛ كالرؤى ، فقد كان اهتمام الرسول ﷺ بها كثيراً ، فلا بد من وضع قواعد لها مستقاة من الشرع ، وكذلك التحديث والإلهام وفراسة المؤمن .

ومن المواضيع التي يحتاجها هذا البحث ؛ معرفة النفس أحوالاً وتفصيلاً ، لا دراسة عامة كما هو مشاهد ، بل حَوَت من الأحوال والصفات أكثر من ثمانين حالة ما بين حياة ومرض وموت ، ومدى ارتباط الحالات بالقلب ، مع التركيز على التفريق بين أمراض النفوس وأمراض القلوب . فدراسة فردية يمكن أن تلم بالموضوع أمر من الصعوبة بمكان ، فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقاداً في فضل نفسه ، وأثبت الناس عقلاً أشدّهم اتهاماً لنفسه . نسأل الله جلّت عظمته أن يلهمنا الصواب في القول والعمل .

ومما نختم به ؛ قول الحبيب المصطفى ﷺ : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم»[١] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



(١) صحيح البخاري : كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى ﴿ونضع الموازين بالقسط﴾ ، (٩/١٩٩) .

(الفَهَارِسُ العَامَّة)

فهـرس الأحـاديث

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهـرس
المصـادر والمراجـع

١ ـ **إتحـاف السادة المتقين بشـرح إحياء علوم الـدين** : السيـد محمـد الحسيني الزبيدي . مطبعة دار الفكر .

٢ ـ **الإحكـام في أصـول الأحكـام** : سيف الـدين أبـو الحسن علي بن أبي علي الآمدي . طبعة عام ١٤٠٠ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٣ ـ **إحياء علوم الدين** : أبو حامـد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي . الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ ـ لجنة نشر الثقافة الإسلامية .

٤ ـ **الأربعين الطبية ـ المستخرجة من سنن ابن مـاجه** : شـرحها : عبـد اللطيف البغـدادي ، عمل : الحـافظ محمد يـوسف البـرزالي ، تحقيق : عبـد الله كنون . مطبعة فضالة المحمدية ـ المغرب .

٥ ـ **إرشـاد العقل السليم إلى مـزايـا الكتـاب الكـريم** : أبـو السعـود بن محمـد العمادي الحنفي ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا . طبعة عـام ١٤٠١ هـ ـ مكتبة الرياض الحديثة .

٦ ـ **أضـواء البيان في إيضـاح القرآن بـالقرآن** : الشيـخ محمد الأمين بن محمـد المختار الشنقيطي . الطبعة الثانية .

٧ ـ **إعـراب القـرآن** : أبـو جعفـر أحمـد بن محمـد بن إسمـاعيـل النحـاس . تحقيق : الـدكتور زهيـر غازي زاهـد . الـطبعـة الثـانيـة ١٤٠٥ هـ ـ عـالم

الكتب ـ بيروت .
٨ ـ **الأعلام ـ قاموس تراجم** : خير الدين الزركلي . الطبعة السادسة ١٩٨٤ م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
٩ ـ **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان** : الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيّم الجوزية . تحقيق : محمد حامد الفقي . دار الكتب العلمية ـ بيروت .
١٠ ـ **الجامع لأحكام القرآن** : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
١١ ـ **إنباه الرواة على أنباه النحاة** : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الأولى : ١٣٦٩ هـ ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة .
١٢ ـ **إيضاح المكنون في الذيل عن كشف الظنون** : إسماعيل باشا البغدادي . طبعة عام ١٤٠٢ هـ ـ دار الفكر .
١٣ ـ **بدائع الفوائد** : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي ابن قيم الجوزية . دار الفكر العربي ـ بيروت .
١٤ ـ **البداية والنهاية** : أبو الفداء الحافظ ابن كثير . طبعة عام ١٣٨٩ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت .
١٥ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي . تحقيق : محمد علي النجار . المكتبة العلمية ـ بيروت .
١٦ ـ **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد** : شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية . الطبعة الأولى عام ١٤٠٨ هـ ـ مكتبة العلوم والحكم .
١٧ ـ **بيان الفروق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب** : أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي . تحقيق : الدكتور نقولا هبر . مكتبة الكليات الأزهرية ـ الأزهر ـ القاهرة .

١٨ ـ **تأويل مشكل القرآن** : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . شرحه ونشره : السيد أحمد صقر . الطبعة الثانية : ١٣٩٣ هـ ـ دار التراث ـ القاهرة .

١٩ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس** : محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٠ ـ **التبيان في أقسام القرآن** : شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية . تصحيح وتعليق : محمد حامد الفقي . دار المعرفة ـ بيروت .

٢١ ـ **التعريفات** : الشريف علي بن محمد علي الجرجاني . الطبعة الأولى : ١٤٠٣ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

٢٢ ـ **تعطير الأنام في تعبير المنام** : عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي . دار الفكر ـ بيروت .

٢٣ ـ **تفسير البحر المحيط** : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي . الطبعة الثانية : ١٤٠٣ هـ ـ دار الفكر للطباعة والنشر ـ بيروت .

٢٤ ـ **تفسير الجلالين** : جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي . بتعليق : الشيخ علي محمد الضباع . طبعة عام : ١٣٧٠ هـ ـ مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي .

٢٥ ـ **تفسير روح البيان** : الشيخ إسماعيل حقي البرسوي . دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .

٢٦ ـ **تفسير غريب القرآن** : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . تحقيق : السيد أحمد صقر . طبعة عام ١٣٩٨ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢٧ ـ **تفسير القاسمي** ـ المسمى : **محاسن التأويل** : محمد جمال الدين القاسمي . الطبعة الثانية : ١٣٩٨ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت .

٢٨ ـ **تفسير القرآن الحكيم** : السيد محمد رشيد رضا . الطبعة الثانية :

١٣٩٨ هـ ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٢٩ ـ **تفسير القرآن العظيم** : إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي . المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر .

٣٠ ـ **التفسير القيم** : للإمام ابن القيم . جمعه : محمد أويس الندوي . حققه : محمد حامد الفقي . لجنة التراث العربي ـ بيروت .

٣١ ـ **التفسير الكبير** : الإمام محمد بن عمر الفخر الرازي . الطبعة الثالثة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٣٢ ـ **تفسير النهر الماد من البحر المحيط** : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي . الطبعة الثانية : ١٤٠٣ هـ ـ دار الفكر للطباعة والنشر . بهامش البحر المحيط .

٣٣ ـ **تفصيل آيات القرآن الحكيم** : جول لابوم ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي . دار الكتاب العربي ، بيروت .

٣٤ ـ **تلخيص المستدرك** : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي . طبعة عام : ١٣٩٨ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت . بهامش المستدرك .

٣٥ ـ **تهذيب التهذيب** : شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . الطبعة الأولىٰ : ١٣٢٥ هـ ـ حيدر أباد ـ الهند .

٣٦ ـ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** : الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي . تحقيق : محمد زهري النجاري . طبعة عام ١٤٠٤ هـ ـ الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ الرياض .

٣٧ ـ **الجامع لأحكام القرآن** : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . طبعة أوفست ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٣٨ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . دار الفكر .

٣٩ ـ **الجامع المسند الصحيح ـ المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه** : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري

الجعفي . الطبعة السلطانية عام ١٣١١ هـ عن النسخة اليونينية ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٤٠ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم** : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري . تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط . الطبعة الثانية : ١٤٠٣ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت .

٤١ ـ **جسم الإنسان** : كتاب المعرفة ـ علوم . إنتاج عام ١٩٨٧ م ـ شركة اتحاد النشر والتسويق ـ بيروت .

٤٢ ـ **الحكمة في مخلوقات الله** : الإمام أبو حامد الغزالي الطوسي . تحقيق الشيخ : محمد رشيد رضا القباني . الطبعة الثانية : ١٤٠٦ هـ ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت .

٤٣ ـ **الجواهر في تفسير القرآن الكريم ؛ المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات** . الشيخ : طنطاوي جوهري .

٤٤ ـ **حياة الصحابة** : محمد يوسف الكاندهلوي . الطبعة الأولى : عام ١٣٩٤ هـ ، دار الفكر .

٤٥ ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** : عبد القادر بن عمر البغدادي . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . الطبعة الثانية : ١٩٧٩ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤٦ ـ **خلق الإنسان بين الطب والقرآن** : الدكتور : محمد علي البار . الطبعة الثالثة : ١٤٠٢ هـ ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .

٤٧ ـ **دائرة معارف القرن العشرين** : محمد فريد وجدي . دار الفكر ـ بيروت .

٤٨ ـ **دائرة المعارف** : بطرس البستاني . دار المعرفة ـ بيروت .

٤٩ ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور** : الإمام عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي . الطبعة الأولى : عام ١٤٠٣ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت .

٥٠ ـ **الدر اللقيط من البحر المحيط** : تاج الدين الحنفي النحوي . الطبعة الثانية : عام ١٤٠٠ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت . بهامش البحر المحيط .

٥١ ـ **الداء والدواء ؛** أو **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** : ابن قيم

الجوزية . طبعة عام ١٤٠٣ هـ ـ دار المديني ـ جدة .
٥٢ ـ **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب** : الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي . الطبعة الثانية : في آخر المجلد التاسع من أضواء البيان .
٥٣ ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** : أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي . توثيق وتعليق : الدكتور عبد المعطي قلعجي . الطبعة الأولى : ١٤٠٥ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٥٤ ـ **ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الحديث** : الشيخ عبد الغني النابلسي . انتشارات إسماعيليان ـ تهران ـ ناصر خسرو ـ باشار مجيدي . توزيع : دار الباز للنشر والتوزيع .
٥٥ ـ **الأذكياء** : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي . المكتبة التجارية ـ بيروت .
٥٦ ـ **ذيل الأضداد** : الحسن بن محمد الصاغاني الحنفي . نشر الدكتور : أوغست هفنر ـ في آخر كتاب الأضداد . دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٥٧ ـ **رسالة المسترشدين** : أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري . تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة . الطبعة الثانية ـ مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب .
٥٨ ـ **الرسالة القشيرية** : الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري . تحقيق الدكتور : عبد الحليم محمود . الطبعة الأولى : ١٣٨٥ هـ ـ مطبعة دار التأليف ـ مصر .
٥٩ ـ **الروح ؛ في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء** : شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية . الطبعة الثالثة ١٣٨٦ هـ ـ مطبوعات محمد علي صبيح ـ الأزهر ـ مصر .
٦٠ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي . طبعة : إدارة الطباعة المنيرية . دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .

٦١ ـ **الروض الأنف** : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي . طبعة عام ١٣٩٨ هـ ـ دار المعرفة للطبعة والنشر ـ بيروت .
٦٢ ـ **زاد المسير في علم التفسير** : الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن ابن علي الجوزي القرشي البغدادي . المكتب الإسلامي .
٦٣ ـ **زهر الربى على المجتبى** : جلال الدين السيوطي . بهامش سنن النسائي .
٦٤ ـ **سنن الدارمي** : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي . دار إحياء السنة النبوية .
٦٥ ـ **سنن أبي داود** : سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي . تعليق : محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر للطباعة والنشر .
٦٦ ـ **سنن النسائي** : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي . المكتبة العلمية ـ بيروت .
٦٧ ـ **سنن الترمذي** : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي . تحقيق وتعليق : إبراهيم عطوة عوض . دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
٦٨ ـ **سنن ابن ماجه** : الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه . تحقيق وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي .
٦٩ ـ **سير أعلام النبلاء** : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
٧٠ ـ **السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)** : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري . طبعة عام ١٣٥٥ هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر .
٧١ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** : عبد الحي ابن العماد الحنبلي . دار الفكر ـ بيروت .
٧٢ ـ **شرح السنة** : الإمام الحسين بن مسعود البغوي . تحقيق : شعيب الأرناؤوط . الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .
٧٣ ـ **شرح العقيدة الطحاوية** : الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي . تحقيق : جماعة من العلماء ، وتخريج : ناصر الدين

الألباني . الطبعة السادسة : ١٤٠٠ هـ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٧٤ ـ **صفة النفاق وذم المنافقين** : أبو بكر الفريابي . تحقيق : محمد عبد القادر عطا . الطبعة الأولى عام ١٤٠٥ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٧٥ ـ **صحيح مسلم بشرح النووي** : محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الشافعي النووي . الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ ـ المطبعة المصرية .

٧٦ ـ **صحيح مسلم** : الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري . ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي .

٧٧ ـ **صفة الصفوة** : جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي . تحقيق : محمود فاخوري . الطبعة الرابعة : ١٤٠٦ هـ ـ دار المعرفة ـ لبنان .

٧٨ ـ **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** : شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية . تحقيق الدكتور : علي بن محمد الدخيل الله . الطبعة الأولى : ١٤٠٨ هـ ـ دار العاصمة ـ الرياض .

٧٩ ـ **الأضداد** : عبد الملك بن قريب الباهلي الأصمعي .

٨٠ ـ **الأضداد** : سهل بن محمد بن عثمان السجستاني .

٨١ ـ **الأضداد** : يعقوب بن إسحاق ابن السكّيت . الكتب الثلاثة نشرها الدكتور أوغست هفنر في مجلد واحد . دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٨٢ ـ **طبقات الشافعية الكبرى** : تاج الدين عبد الوهاب ابن تقي الدين السبكي . الطبعة الثانية ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٨٣ ـ **الطبقات الكبرى** : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري . دار صادر ـ بيروت .

٨٤ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين** : شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية . الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٨٥ ـ **العقل وفهم القرآن** : الحارث بن أسد المحاسبي . تقديم د. حسين القوتلي . الطبعة الثالثة : ١٤٠٢ هـ ـ دار الفكر للطباعة والنشر .

٨٦ ـ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري** : الإمام بدر الدين أبو محمد

محمود العيني . نشر إدارة الطباعة المنيرية . تصوير : دار إحياء التراث العربي .

٨٧ ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود** : محمد شمس الحق العظيم أبادي . الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ ـ دار الفكر للطباعة والنشر .

٨٨ ـ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** : نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري . تحقيق : إبراهيم عطوة عوض . مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر .

٨٩ ـ **غريب الحديث** : الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي . تحقيق : د. سليمان بن إبراهيم العايد . الطبعة الأولى ـ مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي . دار المدني للطباعة ـ جدة .

٩٠ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري** : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي . دار المعرفة ـ بيروت .

٩١ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية وعلم التفسير** : محمد بن علي بن محمد الشوكاني . طبعة عام ١٤٠١ هـ ـ دار الفكر .

٩٢ ـ **الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس** : محمد بن عمر بن الحسن البكري فخر الدين الرازي . تحقيق : مصطفى عاشور . مكتبة القرآن ـ القاهرة .

٩٣ ـ **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان** : تقي الدين أحمد ابن تيمية . دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٩٤ ـ **الفروق اللغوية** : الإمام أبو هلال العسكري . تحقيق : حسام الدين القدسي . الطبعة ١٤٠١ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٩٥ ـ **فقه اللغة وسحر البلاغة وسر العربية** : الإمام أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري . طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٩٦ ـ **الفقيه والمتفقه** : أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي . الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٩٧ ـ **فهرس البداية والنهاية ونهاية البداية والنهاية** : محمد سليمان الأشقر .

الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ دار الأرقم ـ الكويت .
٩٨ ـ **الفوائد** : شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية . مكتبة النهضة العلمية ـ مكة المكرمة .
٩٩ ـ **في ظلال القرآن** : الشهيد سيد قطب . الطبعة السادسة : ١٣٩٨ هـ ـ دار الشروق .
١٠٠ ـ **القاموس المحيط** : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي .
تحقيق ـ: مكتب تحقيق التراث . الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ـ مؤسسة الرسالة .
١٠١ ـ **قاموس القرآن ـ أو ـ إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم** :
الحسين بن محمد الدامغاني . تحقيق : عبد العزيز السيد الأهدل .
الطبعة الثانية ١٩٧٧ م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
١٠٢ ـ **قاموس القلب الطبي** : محمد رفعت . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ـ دار مكتبة الهلال ـ بيروت .
١٠٣ ـ **القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته** : محمد أحمد جمال . رابطة العالم الإسلامي ـ كتاب دعوة الحق عدد (٨) .
١٠٤ ـ **القضاء والقدر في الإسلام** : د. فاروق أحمد الدسوقي . الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت .
١٠٥ ـ **القلب في الصحة والمرض** : الدكتور سعيد الصايغ . الطبعة الأولى ١٩٨٣ م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
١٠٦ ـ **الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف** : الإمام أحمد بن حجر العسقلاني . بذيل الكشاف .
١٠٧ ـ **كتاب المعرفة ـ جسم الإنسان** : طبعة عام ١٩٨٧ م ـ شركة إنماء النشر والتسويق ـ بيروت .
١٠٨ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي . دار المعرفة ـ بيروت .

١٠٩ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** : مصطفى بن عبد الله الحنفي المعروف بحاجي خليفة . طبعة عام ١٤٠٢ هـ ـ دار الفكر .

١١٠ ـ **كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة** : أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل ابن الأجدابي . ملحق بكتاب ـ فقه اللغة للثعالبي . دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١١١ ـ **كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب صلى الله عليه وسلم** ؛ المعروف بكتاب : **الخصائص الكبرى** : أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١١٢ ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال** : علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري . الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

١١٣ ـ **لسان العرب** : الإمام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري .

١١٤ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام** : أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية . جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي . الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين .

١١٥ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** : أبو عبد الرحمن محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية . دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١١٦ ـ **المستدرك على الصحيحين في الحديث** : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري . طبعة عام ١٣٩٨ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت .

١١٧ ـ **المسند** : الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل . طبعة عام ١٣١٣ هـ ـ المطبعة الميمنية بالقاهرة ـ بمصر .

١١٨ ـ **مسند الشهاب** : القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي . تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

١١٩ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي** : أحمد بن محمد بن المقري الفيومي . المكتبة العلمية ـ بيروت .
١٢٠ ـ **معالم التنزيل في التفسير والتأويل** : أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي . طبعة عام ١٤٠٥ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت .
١٢١ ـ **معترك الأقران في إعجاز القرآن** : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . تصحيح : أحمد شمس الدين . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
١٢٢ ـ **المعجم الصوفي** : د. سعاد الحكيم . الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ـ دندرة للطباعة والنشر ـ بيروت .
١٢٣ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** : محمد فؤاد عبد الباقي . طبعة عام ١٣٧٨ هـ، مطابع الشعب .
١٢٤ ـ **معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ؛ تكملة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** : د. إسماعيل أحمد عمايره ، د. عبد الحميد مصطفى السيد . الطبعة الأولى عام ١٤٠٧ هـ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .
١٢٥ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** : نشر الدكتور أ. ي. ونسنك. عام ١٩٣٦ م ـ مطبعة بريل ـ ليدن .
١٢٦ ـ **معجم مقاييس اللغة** : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . الطبعة عام ١٣٩٩ هـ ـ دار الفكر .
١٢٧ ـ **المغرب في ترتيب المعرب** : الإمام أبو الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي المطرزي الخوارزمي . دار الكتاب العربي ـ بيروت .
١٢٨ ـ **المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار** : زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي . بهامش إحياء علوم الدين .
١٢٩ ـ **المفردات في غريب الحديث** : أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني . تحقيق : محمد سيد كيلاني . دار المعرفة ـ بيروت .

١٣٠ ـ **منتخب كنز العمال** : علاء الدين علي بن حسام الدين الهندي . طبعة عام ١٣١٣ هـ ـ المطبعة الميمنية ـ مصر .

١٣١ ـ **منتخب الكلام في تفسير الأحلام** : محمد بن سيرين البصري الأنصاري . بهامش تعطير الأنام . دار الفكر ـ بيروت .

١٣٢ ـ **منع جواز المجاز في المنزَّل للتعبد والإعجاز** : محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي . الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ .

١٣٣ ـ **الموافقات في أصول الشريعة** : إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي أبو إسحاق الشاطبي . ترقيم الشيخ عبد الله دراز . المكتبة التجارية ـ مصر .

١٣٤ ـ **الموطأ** : الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي : تصحيح وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

١٣٥ ـ **الموسوعة العلمية الحديثة** : المجلد الخامس ـ الجسم البشري . ميتشل ولسن . عام ١٩٨٥ م ـ الأهلية للنشر والتوزيع .

١٣٦ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي . طبعة ١٣٨٣ هـ ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .

١٣٧ ـ **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر** : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي . تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي . الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ـ مؤسسة الرسالة .

١٣٨ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر** : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير) . تحقيق : طاهر أحمد الزواوي ، محمود الطناحي . دار الفكر للطباعة والنشر ـ بيروت .

١٣٩ ـ **هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين** : إسماعيل باشا البغدادي . الطبعة ١٤٠٢ هـ ـ دار الفكر ـ بيروت .

١٤٠ ـ **هدي الساري مقدمة فتح الباري** : أحمد بن علي بن حجر

العسقلاني . تخريج : محب الدين الخطيب . دار المعارف للطباعة ـ بيروت .

١٤١ ـ **ولله الأسماء الحسنى** : جمع وترتيب : أحمد عبد الجواد . دار الكتب العلمية ـ بيروت .



فهرس الموضوعات